http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : البحر المديد . نسخة محققة

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٥٠

أمر الدنيا ، وَما خَلْفَنا من أمر الآخرة ، وَما بَيْنَ ذلِكَ مما بين النفختين ، وهو أربعين سنة. أو ما بين أيدينا بعد الموت ، وما خلفنا قبل أن يخلقنا ، وما بين ذلك مدة حياتنا ، أي : له علم ذلك كله ، وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا : تاركا لك ومهملا شأنك ، أو : ذاهلا عنك حتى ينسى أمر الوحى إليك لأنه محال ، يعنى : أن عدم نزول جبريل لم يكن إلا لعدم الأمر به لحكمة بالغة فيه ، ولم يكن تركه تعالى لك إهمالا وتوديعا ، كما زعمت الكفرة.

وفى إعادة اسم الرب المضاف إلى ضميره صلى اللّه عليه وسلم من تشريفه والإشعار بعلية الحكم ما لا يخفى.

وقوله تعالى : رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى فإن من بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما كيف يتصور أن يحوم حول ساحته الغفلة والنسيان. والفاء فى قوله : فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، من كونه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما. أو من كونه تعالى غير تارك له عليه السّلام ، أو غير ناس لأعمال العاملين ، والمعنى على الأول : فحين عرفته تعالى بما ذكر من الربوبية الكاملة فاعبده ، أو حين عرفته تعالى لا ينساك ، أو : ينسى أعمال العاملين فأقبل على عبادته واصطبر على مشاقها ، ولا تحزن بإبطاء الوحى وهزء الكفرة ، فإنه يراقبك ويلطف بك فى الدنيا والآخرة ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا أي : شبيها ونظيرا ، أو هل تعلم أحدا تسمى بهذا الاسم غير الله تعالى ، والتسمية تقتضى التسوية بين المتشابهين ، ولا مثل له ، لا موجودا ولا موهوما ، مع أن المشركين مع غلوهم فى المكابرة لم يسموا الصنم بالجلالة أصلا ، ولم يتجاسر أحد أن يسمى بهذا الاسم ، ولو تجاسر أحد لهلك.

وقيل : إن أحدا من الجبابرة أراد أن يسمى ولده بهذا الاسم ، فخسف به وبتلك البلدة. ذكره القشيري فى التحبير. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما قاله جبريل عليه السّلام من كونه لا ينزل إلا بأمر ربه ليس خاصا به بل كل أحد لا حركة له ولا سكون إلا باللّه وبمشيئته ، فلا يصدر عن أحد من عبيده قول ولا فعل ، ولا حركة ولا سكون ، إلا وقد سبق فى علمه وقضائه كيف يكون ، فلا انتقال ولا نزول إلا بقدر سابق وتحريك لاحق «ما من نفس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه». وقال الشاعر :

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن قسمت منيته بأرض فليس يموت فى أرض سواها
فراحة الإنسان أن يكون ابن وقته ، كل وقت ينظر ما يفعل اللّه به ، فبهذا ينجو من التعب ، ويتحقق له الأدب.
وباللّه التوفيق.
ثم ردّ على من أنكر البعث ، بعد أن ردّ على من اعتقد الشرك ، وبهما كفرت العرب ، فقال :

(٣/٣٥٠)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٥١
[سورة مريم (١٩) : الآيات ٦٦ الى ٧٢]
وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً (٦٧) فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا (٧٠)
وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا (٧٢)
قلت : (أَ إِذا) : ظرف ، والعامل فيه محذوف ، أي : أأخرج إذا مت ، لا المتأخر عن اللام لأنه لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، إلا أن يرخص فى الظروف. واللام فى «لَسَوْفَ» ليست للتأكيد ، فإنه منكر ، وكيف يحقق ما ينكر ، وإنما كلامه حكاية لكلام النبي صلى اللّه عليه وسلم ، كأنه الذي قال : واللّه إن الإنسان إذا مات لسوف يخرج حيا ، فأنكر الكافر ذلك وحكى قوله ، فنزلت الآية على ذلك ، قاله الجرجاني : و(الشَّياطِينَ) : عطف على ضمير المنصوب ، أو مفعول معه.
و(جِثِيًّا) : حال من ضمير (لَنُحْضِرَنَّهُمْ) البارز ، أي : لنحضرنهم جاثين ، جمع جاث ، من جثى إذا قعد على ركبتيه ، وأصله : «جثوو» بواوين ، فاستثقل اجتماعهما بعد ضمتين ، فكسرت الثاء تخفيفا ، وانقلبت الواو الأولى ياء لانكسار ما قبلها ، فاجتمعت واو وياء ، وسبقت إحداهما بسكون ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمت الأولى فى الثانية ، ومن قرأ بكسر الجيم : فعلى الإتباع.
و«أَيُّهُمْ» : مبنى على الضم عند سيبويه ، لأنه موصول ، فحقه البناء كسائر الموصولات ، لكنه أعرب فى بعض التراكيب للزوم الإضافة ، فإذا حذف صدر صلته زاد نقصه فقوى شبه الحرف فيه ، وهو منصوب المحل بلننزعن ، وقرئ منصوبا على الإعراب ، ومرفوعا عند الخليل وغيره بالابتداء ، وخبره : «أَشَدُّ» ، والجملة محكية ، والتقدير :

لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم أيهم أشد ... إلخ. وقال يونس : علق عنها الفعل وارتفعت بالابتداء ، و(عِتِيًّا) و(صِلِيًّا) أصلهما : عتوى وصلوى ، من عتى وصلى ، بالكسر والفتح ، فاعلا بما تقدم.

يقول الحق جل جلاله : وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أي : جنس الإنسان ، والمراد الكفرة ، وإسناد القول إلى الكل لوجود القول فيما بينهم ، وإن لم يقله الجميع ، كما يقال : بنو فلان قتلوا فلانا ، وإنما القاتل واحد ، وقيل : القائل : أبيّ بن خلف ، فإنه أخذ عظاما بالية ، ففتتها ، وقال : يزعم محمد أنا نبعث بعد ما نموت ونصير إلى هذا الحال ، فنزلت.

أي : يقول بطريق الإنكار والاستبعاد : أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أي : أأبعث من الأرض بعد ما متّ وأخرج حيا؟ قال تعالى : أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ ، من الذّكر الذي يراد به التفكر ، ولذلك قرىء بالتشديد من

(٣٥١/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٥٢

التذكير. والإظهار فى موضع الإضمار لزيادة التقرير والإشعار بأن الإنسانية من دواعى التفكر فيما جرى عليها من شؤون التكوين ، فإذا ترك التفكر التحق بالبهائم ، فهلّا يذكر أصله! ، وهو أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ أي : من قبل الحالة التي فيها ، وهى حالة حياته ، وَلَمْ يَكُ شَيْئاً أي : والحال أنه لم يك شيئا أصلا ، وحيث خلقناه وهو فى تلك الحال فلأن نبعث الجمع بتفرقاته أولى وأظهر لأن الإعادة أسهل من البدء.

قال تعالى : فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ أي : لنجمعنهم بالسّوق إلى المحشر بعد ما أخرجتهم من الأرض.

وإقسامه سبحانه بربوبيته مضافة إلى ضميره – عليه الصلاة والسلام لتحقيق الأمر ، والإشعار بعلّيّته ، وتفخيم شأنه ، ورفع منزلته صلى اللّه عليه وسلم ، وفيه إثبات البعث بالطريق البرهاني على أبلغ وجه وآكده ، كأنه أمر واضح غنى عن التصريح به ، وإنما المحتاج إلى البيان ما بعد ذلك من الأهوال ، أي : حيث ذكر الحشر وما بعده. ولم يصرح بنفس البعث لتحقق وضوحه ، وإنما قال : فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ أي : نجمعهم وَالشَّياطِينَ المغوين لهم ، إلى المحشر ، وقيل : إن الكفرة يحشرون مع قرنائهم من الشياطين التي كانت تغويهم ، كل منهم مع شيطانه فى سلسلة ، ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا : باركين على ركبهم لما يدهمهم من هول المطلع ، والجثو : جلسة الذليل الخائف.

والآية كما ترى ، صريحة فى الكفرة ، فهم الذين يساقون من الموقف إلى شاطىء جهنم ، جثاة إهانة بهم ، أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم من شدة الخوف. وأما قوله تعالى : وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً «١» فهى عامة للناس فى حال الموقف قبل التواصل إلى الثواب والعقاب ، فإن أهل الموقف جاثون على

الرّكب ، كما هو المعتاد فى مقام التفاؤل والخصام ، قلت : ولعل هذا فيمن يناقش الحساب ، وأما غيرهم فيلقى عليهم سحابة كنفه ، ثم يقررهم بذنوبهم ويسترهم ، كما فى الحديث.

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أي : من كل أمة تشيعت دينا من الأديان ، أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا أي : من كان منهم أعصى وأعتى ، فيطرحهم فيها. قال ابن عباس : أي : أيهم أشد جرأة ، وقال مجاهد : فجورا وكذبا ، وقال مقاتل : علوا ، أو غلوا فى الكفر ، أو كبرا ، وقال الكلبي : قائدهم ورأسهم ، أي : فيبدأ بالأكابر فالأكابر بالعذاب ، ثم الذي يليهم جرما. وفى ذكر الأشدية تنبيه على أنه تعالى يعفو عن بعض أهل العصيان من غير الكفرة ، إذا قلنا بعموم الآية ، وأما إذا خصصناها بالكفرة ، فالأشدية باعتبار التقديم للعذاب.

قال تعالى : ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا أي : أولى بصليها وأحق بدخولها ، وهم المنتزعون الذين هم أشدهم عتوا ، أو رؤوسهم ، فإن عذابهم مضاعف لضلالهم وإضلالهم.

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الجاثية.

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها ، فيه التفات لإظهار مزيد الاعتناء ، وقرىء : «وَإِنَّ مِنْهُمْ». ويحتمل أن يكون الخطاب لجميع الخلق ، أي : وإن منكم أيها الناس إِلَّا وارِدُها أي : واصلها وحاضرها ، يمر بها المؤمنون وهى خامدة ، وتنهار بغيرهم. وعن جابر أنه صلى اللّه عليه وسلم سئل عن ذلك فقال : «إذا دخل أهل الجنّة الجنّة قال بعضهم لبعض :

أليس قد وعدنا ربّنا أن نرد النّار؟ فيقال لهم : قد وردتموها وهى خامدة». وأما قوله تعالى : أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ فالمراد به الإبعاد عن عذابها ، وقيل : ورودها : الجواز على الصراط بالمرور عليها.

وعن ابن مسعود : الضمير فى (وارِدُها) للقيامة ، وحينئذ فلا يعارض : لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها «١» ، ولا ما جاء فيمن يدخل الجنةبغير حساب ، ولا مرور على الصراط ، فضلا عن الدخول فيها ، على أنه اختلف فى الورود ، فقيل : الدخول وتكون بردا وسلاما على المؤمن. وقيل : المرور كما تقدم ، وقيل : الإشراف عليها والاطلاع.

قال القشيري : كلّ يرد النار ، ولكن لا ضير منها ولا إحساس لأحد إلا بمقدار ما عليه من السيئات ، والزلل ، فأشدّهم فيها انهماكا : أشدهم فيها بالنار اشتعالا واحتراقا ، وأما برىء الساحة ، نقى الجانب بعيد الذنوب ، فكما فى الخبر :

«إن النار عند مرورهم ربوة كربوة اللّبن – أي : جامدة كجمود اللبن حين يسخن – فيدخلونها ولا يحسون بها ، فإذا عبروها قالوا : أليس قد وعدنا جهنم على الطريق؟ فيقال لهم : عبرتم وما شعرتم». هـ.

كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا أي : كان ورودهم إياها أمرا محتوما أوجبه اللّه تعالى على ذاته ، وقضى أنه لا بد من وقوعه. وقيل : أقسم عليه ، ويشهد له : «إلا تحلة القسم» «٢».

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا الكفر والمعاصي ، بأن تكون النار عليهم بردا وسلاما ، على تفسير الورود بالدخول ، وعن جابر أنه قال : سمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول : «الورود الدّخول ، لا يبقى برّ ولا فاجر إلّا دخلها ، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما ، كما كانت على إبراهيم ، حتّى إنّ للنّار ضجيجا من بردهم» «٣». وإن فسرنا الورود بالمرور ، فنجاتهم بالمرور عليها والسلامة من الوقوع فيها ، وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا : باركين على ركبهم ، قال ابن زيد : الجثى شر الجلوس ، لا يجلس الرجل جاثيا إلا عند كرب ينزل به. هـ.

---

(١) من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

(٢) يقصد حديث : «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار ، إلا تحلة القسم» أخرجه البخاري فى (الأيمان والنذر ، باب قول الله تعالى : «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ») ومسلم فى (البر والصلة ، باب : فضل من يموت له ولد فيحتسبه).

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ٣٢٩) والحاكم فى المستدرك (الأهوال ٤/ ٥٨٧) ، والبيهقي فى الشعب (١/ ٣٣٦) ، من حديث جابر ابن عبد اللّه. والحديث : صححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي فى المجمع (٧/ ٥٥) : رواه أحمد ، ورجاله ثقات.

الإشارة : من أراد كرامة الآخرة فليربّ يقينه فيها ، حتى تكون نصب عينيه ، فإنه يرد على اللّه كريما. ومن أراد السلامة من أهوالها فليخفف من أوساخها وأشغالها ، ويلازم طاعة اللّه واتباع الرسول صلى اللّه عليه وسلم. ومن أراد سرعة المرور على الصراط فليلزم اليوم اتباع الصراط المستقيم ، فبقدر ما يستقيم عليها تستقيم أقدامه على الصراط ، وبقدر ما يزل عنها يزلّ عن الصراط.

قال فى الإحياء ، لما تكلم على العدل فى الكيل والوزن ، قال بعد كلامه : وكل مكلف فهو صاحب موازين فى أفعاله وأقواله وخطراته ، فالويل له إن عدل عن العدل ، ومال عن الاستقامة ، ولو لا تعذّر

هذا واستحالته لما ورد قوله تعالى : (وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها ..) الآية ، فلا ينفك عبد ليس معصوما عن الميل عن الاستقامة ، إلا أن درجات الميل تتفاوت تفاوتا عظيما ، فبذلك تتفاوت مدة إقامتهم فى النار إلى أوان الخلاص ، حتى لا يبقى بعضهم إلا بقدر تحلة القسم ، ويبقى بعضهم ألفا وألوف سنين ، نسأل اللّه تعالى أن يقربنا من الاستقامة والعدل ، فإن الاستداد على متن الصراط المستقيم من غير ميل عنه غير مطموع فيه فإنه أدق من الشعرة ، وأحدّ من السيف ، ولولاه لكان المستقيم عليه لا يقدر على جواز الصراط الممدود على متن النار ، الذي من صفته أنه أدق من الشعر ، وأحدّ من السيف ، وبقدر الاستقامة على الصراط المستقيم يخف مرور العبد يوم القيامة على الصراط. هـ.

وقال الترمذي الحكيم : يجوز الأولياء والصديقون وهم لا يشعرون بالنار ، قال اللّه تعالى : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ «١» ، وإنما بعدوا عنها لأن النور احتملهم واحتوشهم ، فهم يمضون فى النار ، حتى إذا خرجوا منها قال بعضهم لبعض : أليس قد وعدنا النار ، فذكر ما تقدم. ثم قال : فأما ضجة النار فمن بردهم ، وذلك أن الرحمة باردة تطفئ غضب الرب ، فبالرحمة نالوا النور ، حتى أشرق فى قلوبهم وصدورهم ، فكان نوره فى قلوبهم ، والرحمة مظلة عليهم ، فخمدت النار من بردهم عند ما لقوها ، فضجت من أجل أنها خلقت منتقمة ، فخافت أن تضعف عن الانتقام. ولذلك روى أنها تقول : «جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى». «٢» هـ.

وقال الورتجبي : إذا كان جمال الحق مصحوبهم ، فلا بأس بالوقوف فى النيران ، فإن هناك أهل الجنان.

إذا نزلت سلمى بواد فماؤها زلال وسلسال ، وسيحانها ورد. هـ.

وقال جعفر الصادق : لو لا مقاربة النفوس ما دخل أحد النار ، فلما فارقتهم نفوسهم أوردهم النار بأجمعهم ، فمن كان أشد إعراضا عن خبث النفس كان أسرع نجاة من النار ، ألا ترى اللّه يقول : (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا). هـ. قلت.

---

(١) من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية (٩/ ٣٢٩) ، والخطيب فى تاريخ بغداد (٥/ ١٩٤) ، والطبراني فى الكبير ، وابن عدى فى الكامل ، والحكيم الترمذي فى نوادر الأصول ، وفى سنده : سليم بن منصور بن عمار ، وهو ضعيف ، انظر : مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٠) ، وكشف الخفاء (١/ ٣٧٣ - ٣٧٤).

وقد تقدم أن من لاحساب عليهم – وهم المقربون – يمرون على الصراط ولا يحسون به ، وهم الذين يمرون عليه كالطير أو كالبرق ، جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه ، وبجاه خير الخلق مولانا محمد نبيه وحبه ، آمين.

ثم ذكر أحوال من سقط فى جهنم ويبقى فيها جثيّا ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٧٣ الى ٧٤]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً (٧٤)

قلت : «هم أحسن» : صفة لكم.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ على الكفرة آياتُنا الناعية عليهم فظاعة حالهم ووخامة مآلهم ، والناطقة بحسن عاقبة المؤمنين ، حال كونها بَيِّناتٍ : واضحات فى نفسها ، أو بينات الإعجاز ، أو بينات المعاني ، قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : قالوا ، ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على أنهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادين له ، أو : قال الذين تمرّدوا فى الكفر والعتو وهم النضر بن الحارث وأتباعه ، قالوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، اللام للتبليغ ، أي : قالوا مبلغين الكلام لهم ، وقيل : لام الأجل ، كقوله تعالى : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ «١» أي : لأجلهم وفى حقهم ، والأول أولى لأن الكلام هنا كان معهم بدليل قوله : أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أي : المؤمنين والكفار ، خَيْرٌ كأنهم قالوا : أينا خَيْرٌ مَقاماً أي : مكانا :

نحن أو أنتم ، وقرىء بالضم ، أي : موضع إقامة ومنزل ، وَأَحْسَنُ نَدِيًّا مجلسا ومجتمعا ، أو : أينا خير منزلا ومسكنا ، وأحسن مجلسا؟.

يروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنونها ، ويتزينون بالزينة الفاخرة ، ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين ، يريدون بذلك أن خيريتهم ، حالا ، وأحسنيتهم ، مقالا ، مما لا يقبل الإنكار ، وأنّ ذلك لكرامتهم على اللّه سبحانه وزلفاهم عنده ، وأنّ الحال التي عليها المؤمنون ، من الضرورة والفاقة ورثاثة الحال لقصور حظهم عند اللّه. وما هذا القياس العقيم والرأى السقيم إلا لكونهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ، وذلك مبلغهم من العلم ، فردّ عليهم بقوله : وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً : مالا ومتاعا وَرِءْياً منظرا ، أي : كثيرا من القرون التي كانوا أفضل منهم ، فيما يفتخرون به من الحظوظ الدنيوية ، كعاد وثمود وأضرابهم العاتية قبل هؤلاء ،

---

(١) الآية ١١ من سورة الأحقاف.

أهلكناهم بفنون العذاب ، ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا ، لما فعلنا بهم ما فعلنا ، وفيه من التهديد والوعيد ما لا يخفى ، كأنه قيل : فلينتظر هؤلاء أيضا مثل ذلك.

و«أثاثا» : تمييز ، وهو متاع البيت ، أو ما جد منه ، و«رءيا» : كذلك ، فعل من الرؤية بمعنى المنظر ، قال ابن عزيز : «رءيا» بهمزة ساكنة : ما رأيت عليه من شارة حسنة وهيئة ، وبغير همز : يجوز أن يكون على معنى الأول «١» ، ويجوز أن يكون من الريّ. أي : منظرهم مرتو من النعمة. وزيّا ، بالزاي المعجمة ، فى قراءة ابن عباس ، يعنى هيئة ومنظرا. هـ.

الإشارة : رفعة القدر والمقام لا تكون بالتظاهر بمفاخر اللباس والطعام ، ولا بحسن الهيئة ومنظر الأجسام ، وأنما يكون باحتظاء القلوب بمعرفة اللّه ، وتمكين اليقين من القلوب ، واطلاعها على أسرار الغيوب ، مع القيام بوظائف العبودية ، أدبا مع عظمة الربوبية ، ونسيان النفوس والاشتغال عنها بالعكوف فى حضرة القدوس ، فأهل القلوب لا يعبأون بظواهر الأشباح ، وإنما يعتنون بحياة الأرواح.

كمل حقيقتك التي لم تكمل والجسم دعه فى الحضيض الأسفل

فقوت قلوبهم التواجد والأذكار ، وحياة أرواحهم العلوم والأسرار ، وأنشدوا :

بالقوت إحياء الجسوم ، وذكره تحيا به الألباب والأرواح

هو عيشهم ووجودهم وحياتهم حقا وروح نفوسهم والرّاح.

وأما من عظم جهله ، وكثف حجابه ، فإنما ينظر إلى بهجة الظواهر وتزيينها بأنواع المفاخر ، أو إلى من عظم جاهه وكثرت أتباعه ، وهذه نزعة جاهلية ، حيث قالوا حين يتلى عليهم الوعظ والتذكير : (أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا) ، يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ «٢». وباللّه التوفيق.

ثم ذكر الحق تعالى مدد الفريقين أهل الضلال وأهل الإيمان ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٧٥ الى ٧٦]

قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦)

---

(١) أي : هو مهموز الأصل ، أي : منظرا ، من الرؤية ، سهلت همزته بإبدالها ياء ، ثم أدغمت الياء فى الياء. [.....]

(٢) الآية ٧ من سورة الروم.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٥٧

قلت : «ويزيد» : عطف على «فليمدد» لأنه فى معنى الخبر ، أي : من كان فى الضلالة يمده اللّه فيها ، ويزيد فى هداية الذين اهتدوا مددا لهدايتهم ، أو عطف على «فسيعلمون» ، وجمع الضمير فى (رأوا) وما بعدها باعتبار معنى (من) ، وأفرد أولا باعتبار لفظها.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : مَنْ كانَ مستقرا فِي الضَّلالَةِ مغمورا فى الجهل والغفلة عن عواقب الأمور ، مشتغلا بالحظوظ الفانية ، فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا أي : يمد له بطول العمر وتيسير الحظوظ ، إما استدراجا ، كما نطق به قوله تعالى : إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً «١» ، أو قطعا للمعاذير كما نطق به قوله تعالى : أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ «٢» ، أو : (فَلْيَمْدُدْ لَهُ) : يدعه فى ضلاله ، ويمهله فى كفره وطغيانه ، كقوله تعالى : وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ «٣». والتعرض لعنوان الرحمانية لبيان أن أفعالهم من مقتضيات الرحمة مع استحقاقهم تعجيل الهلاك.

وكأنه جل جلاله لما بيّن عاقبة الأمم المهلكة ، مع ما كان لهم من التمتع بفنون الحظوظ العاجلة ، أمر رسوله صلى اللّه عليه وسلم أن يجيب هؤلاء المفتخرين بما لهم من الحظوظ بمآل أمر الفريقين ، وهو استدراج أهل الضلالة ثم أخذهم ، وزيادة هداية أهل الإيمان ثم إكرامهم ، كما بيّن ذلك بقوله : حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ ، فهو غاية للحد الممتد ، أي : نمد لهم فى الحياة وفنون الحظوظ حتى ينزل بهم ما يوعدون إِمَّا الْعَذابَ الدنيوي بالقتل ، والأسر ، وغلبة أهل الإيمان عليهم ، وَإِمَّا السَّاعَةَ ، وهو يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزي والهوان ، و«إما» هنا : لمنع الخلو ، لا لمنع الجمع فإن العذاب الأخروى لا ينفك عنهم بحال.

فَسَيَعْلَمُونَ حينئذ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً من الفريقين ، بأن يشاهدوا الأمر على عكس ما كانوا يقدّرون ، فيعلمون أنهم شر مكانا ، لا خير مقاما ، وَيعلمون أنهم أَضْعَفُ جُنْداً أي : جماعة وأنصارا ، لا أحسن نديّا ، كما كانوا يدعونه ، وليس المراد أن لهم يوم القيامة جندا سيضعف ، وما كان له من فئة ينصرونه من دون اللّه ، وإنما ذكر ذلك ردا لما كانوا يزعمون أن لهم أعوانا وأنصارا ، يفتخرون بهم فى الأندية والمحافل ، فردّ ذلك بأنه باطل وظل آفل ، ليس تحته طائل.

ثم ذكر فريق أهل الإيمان فقال : وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً أي : كما يمد لأهل الضلالة زيادة فى ضلالهم ، كذلك يزاد فى هداية أهل الهداية ثوابا على طاعتهم لأن كلا يجزى بوصفه ، فلا تزال الهداية تنمو فى

---

(١) من الآية ١٧٨ من سورة آل عمران.

(٢) من الآية ٣٧ من سورة فاطر.
(٣) من الآية ١١٠ من سورة الأنعام.

(٣٥٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٥٨
قلوبهم حتى يردوا موارد الكرم ، أمّا فى الدنيا فبكشف الحجاب وانقشاع السحاب حتى يشاهدوا رب الأرباب ، فما كانوا يؤمنون به غيبا صار عيانا ، وأمّا فى الآخرة فبنعيم الحور والقصور ، ورؤية الحليم الغفور.
فقد بيّن الحق تعالى حال المهتدين إثر بيان حال الضالين ، وأن إمهال الكافر وتمتيعه بالحظوظ ليس لفضله ، وأن منع المؤمن من تلك الحظوظ ليس لنقصه ، بل قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا الفانية ، وقوم ادخرت لهم طيباتهم للحياة الباقية ، قال تعالى : وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ كأنواع الطاعات ، خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ لبقاء فوائدها ودوام عوائدها .. وقد تقدم تفسيرها»
.
والتعرض لعنوان الربوبية والإضافة إلى ضميره صلى اللّه عليه وسلم لتشريفه ، أي : فهى أفضل ثَواباً أي : عائدة مما يتمتع به الكفرة من النعم الفانية ، التي يفتخرون بها لأن مآلها الحسرة السرمدية والعذاب الأليم ، ومآل الباقيات الصالحات النعيم المقيم فى دار الدوام ، كما أشير إليه بقوله : وَخَيْرٌ مَرَدًّا أي : مرجعا وعاقبة ، وتكرير الخير لمزيد الاعتناء بشأن الخيرية وتأكيد لها فى التفضيل ، مع أن ما للكفرة بمعزل من أن يكون له خيرية فى العاقبة ، ففيه نوع تهكم بهم. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : اعلم أن الحق – جل جلاله – يرزق العبد على قدر نيته ، ويمده على قدر همته ، فمن كانت همته فى الحظوظ العاجلة والشهوات الفانية ، أمده اللّه فيها ، ومتعه بها ما شاء ، على حسب القسمة ، ثم أعقبه الندم والحسرة ، ومن كانت همته الآخرة ، أمده سبحانه فى الأعمال التي توصله إلى نعيمها ، كصلاة وصيام وصدقة وتدريس علم ، وأذاقه من حلاوتها ما يهون عليه مرارتها ، ثم أعقبه النعيم الدائم من القصور والحور ، وأنواع الطيبات ، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.
ومن كانت همته اللّه – أي : الوصول إلى حضرته دون شيء سواه – أمده اللّه فى الأعمال التي توصله إليه ، وهى أعمال القلوب من التخلية والتحلية ، كالتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل ، وكقطع المقامات بأنواع المجاهدات ، ورأس ذلك أن يوصله إلى شيخ كامل جامع بين الحقيقة والشريعة ، بين الجذب والسلوك ، قد سلك الطريق على شيخ كامل ، فإذا وصله إليه وكشف له عن سر خصوصيته فليستبشر بحصول المطلب وبلوغ الأمل. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر بعض من مدّ له فى الضلالة وخصه بزيادة ضلالته ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٧٧ الى ٨٠]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً (٨٠)

---

(١) راجع تفسيرالآية ٤٦ من سورة الكهف.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٥٩

يقول الحق جل جلاله فى حق العاص بن وائل : أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا : القرآن المشتمل على البعث والحساب ، قال خبّاب بن الأرت : كان لى على العاص بن وائل دين ، فاقتضيته ، فقال : لا ، واللّه لا أقضيك حتى تكفر بمحمّد ، ، فقلت : لا واللّه لا أكفر بمحمّد حتّى تموت ثم تبعث ، قال العاص : فإذا متّ ثم بعثت ، جئتنى وسيكون لى ثمّ مال وولد ، فأعطيك ، لأنكم تزعمون أن فى الجنة ذهبا وفضة – استهزاء واستخفافا – وفى رواية البخاري : «كنت قينا «١» فى الجاهلية ، فصنعت للعاصى سيفا فجئت أتقاضاه ...» «٢» فذكر الحديث. فالهمزة للتعجيب من حاله ، للإيذان بأنها من الغرابة والشناعة بحيث يقضى منها العجب ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أي : أنظرت فرأيت الذي كفر بآياتنا الباهرة التي من حقها أن يؤمن بها كل من شاهدها.

وَقالَ مستهزءا بها ، مصدّرا باليمين الفاجرة : واللّه لَأُوتَيَنَّ فى الآخرة مالًا وَوَلَداً أي : انظر إلى حاله فتعجب من حالته البديعة وجرأته الشنيعة ، أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أي : أبلغ من عظمة الشأن إلى أن يرتقى إلى علم الغيب ، الذي استأثر به العليم الخبير ، حتى ادعى أن يؤتى فى الآخرة مالا وولدا ، وأقسم عليه ، أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً بذلك ، فإنه لا يتوصل إلى العلم بذلك إلا بأحد هذين الطريقين ، وهذا رد لكلمته الشنعاء ، وإظهار لبطلانها إثر ما أشير إلى التعجب منها.

والتعرض لعنوان الرحمانية للإشعار بعلّية الرحمة للإيتاء ، فإن الرحمة تقتضى الإعطاء على الدوام.

والعهد :

قيل : كلمة الشهادة ، أو العمل الصالح ، فإن وعده تعالى بالثواب عليها كالعهد ، قال القشيري : أَطَّلَعَ الْغَيْبَ فقال بتعريف له منا ، أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً أي : ليس الأمر كذلك. ثم قال : ودليل الخطاب يقتضى أن المؤمن إذا أمّل من الله شيئا جميلا ، فاللّه تعالى يحققه له لأنه على عهد مع اللّه تعالى ، واللّه لا يخلف الميعاد. هـ.

ثم أبطل ما أمله الكافر فقال : كَلَّا أي : انزجر عن هذه المقالة الشنيعة ، فهو ردع له عن التفوه بتلك العظيمة ، وتنبيه على خطئه ، قال تعالى : سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ أي : سنظهر ما كتبنا عليه ، فهو كقول الشاعر :

إذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة أي : تبين أنى لم تلدنى لئيمة ، أو : سنحفظ عليه ما يقول فنجازيه عليه فى الآخرة ، أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمة فى الحال ويجازى عليها فى المآل ، فإن نفس الكتابة لم تتأخر عن القول لقوله تعالى : ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ «٣» قال ابن جزى : إنما جعله مستقبلا لأنه إنما يظهر الجزاء والعقاب فى المستقبل. هـ.

---

(١) القين : الحدّاد والصانع ، والجمع أقيان وقيون. انظر اللسان (قين ٥/ ٣٧٩٨).

(٢) أخرجه البخاري فى (البيوع. باب ذكر القين والحدّاد) ، وفى (تفسير سورة مريم) ، ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب ٤).

(٣) الآية ١٨ من سورة ق.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٦٠

قلت : والظاهر إنما أبرزه بصورة المستقبل ، تنبيها على عدم نسخه ، وأنه ماض نافذ. قاله فى الحاشية.

وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا ، مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والأولاد ، أي : نطول له من العذاب ونمد له فيه ما يستحقه ، أو نزيد فى مضاعفة عذابه ، لكفره وافترائه على اللّه سبحانه ، واستهزائه بآياته العظام ، ولذلك أكده بالمصدر ، دلالة على فرط الغضب والسخط.

وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ ، قال مكى : حرف الجر محذوف ، أي : نرث منه ما يقول. هـ. والظاهر أن (ما) : بدل من الضمير ، وهو الهاء ، أي : نرث ما يقول وما يدعيه لنفسه اليوم من المال والولد. وفيه إيذان بأنه ليس لما يقول مصداق موجود سوى القول ، أي : ننزع منه ما آتيناه ، وَيَأْتِينا يوم القيامة فَرْداً لا يصحبه مال ولا ولد كان له فى الدنيا ، فضلا أن يؤتى ثمّة مالا وولدا زائدا. وقال القشيري : فردا بلا حجة على قوله وقسمه : (لَأُوتَيَنَّ مالًا وَوَلَداً) ، وذلك منه استهزاء ومحض كفر. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يفهم من الآية أن الإنسان إذا آمن بآيات اللّه وعمل بما أمره اللّه يكون له عهد عند اللّه ، فإذا تمنى شيئا أو منّاه غيره لا يخيبه اللّه ، ويتفاوت الناس فى العهد عند اللّه ، على قدر تفاوتهم فى طاعته ومعرفته ، وسيأتى فى قوله : لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً «١» زيادة بيانه. واللّه تعالى أعلم.

ثم رد على أهل الضلالة ما زعموا ، من نفع الأصنام لهم ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٨١ الى ٨٤]

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)

يقول الحق جل جلاله : واتخذ المشركون الأصنام آلِهَةً يعبدونها من دون اللّه لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا يوم القيامة ، ووصلة عنده يشفعون لهم ، كَلَّا لا يكون ذلك أبدا ، فهو ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل ، وإنكار لوقوع ما علّقوا به أطماعهم ، سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ أي : تجحد الآلهة عبادتهم لها ، بأن ينطقهم اللّه تعالى وتقول ما عبدتمونا ، أو : سيكفر الكفرة عبادتهم لها حين شاهدوا سوء عاقبة عبادتهم لها ، كقوله : وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ «٢» وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا أي : تكون الآلهة ، التي كانوا يرجون أن تكون لهم عزا ، ضدا للعز ،

---

(١) الآية ٨٧ من هذه السورة.

(٢) من الآية ٢٣ من سورة الأنعام.

أي : ذلا وهوانا لأنهم تعززوا بمخلوق بسخط الخالق ، وقد قال صلى اللّه عليه وسلم : «من طلب رضا المخلوق بمعصية الخالق عاد حامده من الناس ذاما» «١». وتكون عونا عليهم ، وآلة لعذابهم ، حيث تجعل وقود النار وحصب جهنم ، أو تكون الكفرة ضدا وأعداء للآلهة ، كافرين بها ، بعد أن كانوا يحبونها كحب اللّه ، ويعبدونها من دون اللّه ، وتوحيد الضد لتوحيد المعنى الذي عليه تدور مضادتهم ، فإنهم بذلك كشيء واحد ، كقوله عليه الصلاة والسلام : «وهم يد على من سواهم» «٢».

وسبب عبادتهم للأصنام تزيين الشيطان ، وفاء بقوله : لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ «٣» كما قال تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ أي : سلطهم عليهم ومكنهم من إغوائهم ، بقوله تعالى : وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ «٤» الآية.

وهذا تعجيب لرسوله صلى اللّه عليه وسلم مما نطقت به الآيات الكريمة عن هؤلاء الكفرة ، العتاة المردة ، من فنون القبائح من الأقاويل والأفاعيل ، والتمادي في الغي ، والانهماك في الضلال ، والتصميم على الكفر ، من غير صارف يلويهم ، ولا عاطف يثنيهم ، وإجماعهم على مدافعة الحق بعد اتضاحه ، وتنبيه على أن جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائهم ، لا أن له مسوغا في الجملة ، أي :

ألم تر ما فعلت الشياطين بالكفرة حتى صدر منهم ما صدر من تلك القبائح والعظائم ، وليس المراد تعجيبه عليه السّلام من مطلق إرسال الشياطين عليهم ، كما يوهمه تقليل الرؤية ، بل عما صدر عنهم من حيث إنها من آثار إغواء الشياطين ، كما ينبئ عنه قوله تعالى : تَؤُزُّهُمْ أَزًّا أي : تغريهم وتهيجهم على المعاصي تهييجا شديدا ، بأنواع الوساوس والتسويلات. فالأز والاستفزاز أخوان ، معناهما : شدة الانزعاج ، وجملة (تَؤُزُّهُمْ) : حال مقدرة من الشياطين ، أو استئناف وقع جوابا عن صدر الكلام ، كأنه قيل : ماذا تفعل بهم الشياطين؟ قال : (تَؤُزُّهُمْ أَزًّا).

فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ بأن يهلكوا حسبما تقتضى جناياتهم ويبيدوا عن آخرهم ، وتطهر الأرض من فسادهم ، إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا أي : لا تستعجل بهلاكهم ، فإنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس قلائل نعدها عدا ، ثم نأخذهم أخذا. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البزار (كشف الأستار ٤/ ٢١٨) من حديث السيدة عائشة. وقال الهيثمي فى المجمع : (١٠/ ٢٢٨) : رواه البزار من طريق قطبة بن العلاء عن أبيه ، وكلاهما ضعيف. وورد معنى الحديث عند الترمذي ، ولفظه : «من التمس رضا الناس بسخط اللّه ، سخط اللّه عليه ، وأسخط الناس عليه».

(٢) طرف من حديث أخرجه أحمد فى المسند (١/ ١٢٢) وأبو داود فى : (الديات ، باب إيقاد المسلم بالكافر) ، والنسائي فى (القسامة ، باب القود بين الأحرار والعبيد) من حديث سيدنا على.

(٣) من الآية ٣٩ من سورة الحجر.

(٤) من الآية ٦٤ من سورة الإسراء ٤٣. [.....]

الإشارة : كل من اتخذ شيئا يتعزز به من دون اللّه وطاعته انقلب عليه ذلا وهوانا ، ولذلك قيل : «من تعزز بمخلوق مات عزه». فإن أردت عزا لا يفنى فلا تتعزز بعز يفنى ، وهو التعزز بالمال أو الجاه ، أو غير ذلك مما يفنى ، وسيأتى عند قوله : مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً «١». وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ «٢» زيادة بيان. وكما أرسل الحق تعالى الشياطين على الكافرين تزعجهم إلى المعاصي أرسل الملائكة والواردات الإلهية إلى المؤمنين تنهضهم إلى طاعة اللّه ، وتزعجهم إلى السير لمعرفة اللّه. فالملائكة تحرك العبد إلى الطاعة ، والواردات تزعجه إلى الحضرة ، تخرجه عن عوائده وتدمغ له من علائقه ، وعوائقه ، حتى ينفرد لحضرة الحق :

وفى الحكم : «الوارد يأتى من حضرة قهار ، لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلا دمغه بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ

عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ». وقال أيضا : «متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد لديك «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها».

وقال القشيري على قوله : (تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) : أي : تزعجهم إزعاجا ، فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وظلمة ، وخاطر الحقّ يكون بروح وسكون ، وهذه إحدى الفوارق بينهما. هـ. قلت : ومن الفوارق أيضا : أن خاطر الحق لا يأمر إلا بالخير مع برودة وانشراح فى القلب وسكون وأناة .. وفى الحديث «العجلة من الشيطان ، والأناة من الرحمن» «٣». هـ. بخلاف خاطر الشيطان فإنه لا يأمر إلا بالشر ، وقد يأمر بالخير إذا كان يجرّ به إلى الشر ، وعلامته أن يكون فيه ظلمة ودخن وعجلة وبطش ، وقد استوفى الكلام عليهم فى النصيحة الكافية. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر مآل فريق الإيمان وفريق الضلال ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٨٥ الى ٨٧]

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً (٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (٨٧)

قلت : (يَوْمَ نَحْشُرُ) : إما ظرف لفعل مؤخر للإشعار بضيق العبارة عن حصره لكمال جماله أو فظاعته ، والتقدير : يوم نحشر المتقين إلى الرحمن ، ونسوق المجرمين ، نفعل بالفريقين ما لا يفى به نطاق المقال ، أو ظرف لا ذكر ، و(وَفْداً) و(وِرْداً) : حالان.

---

(١) من الآية ١٠ من سورة فاطر.

(٢) من الآية ٨ من سورة المنافقون.

(٣) أخرجه البيهقي فى السنن الكبرى (١٠/ ١٠٤) بتقديم وتأخير ، من حديث أنس بن مالك ، وعزاه فى مجمع الزوائد لأبى يعلى عن أنس ، وقال : ورجاله رجال الصحيح.

يقول الحق جل جلاله : يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ : نجمعهم إِلَى الرَّحْمنِ أي : إلى ربهم يغمرهم برحمته الواسعة ، وَفْداً : وافدين عليه ، كما يفد الوفود على الملوك ، منتظرين لكرامتهم وإنعامهم. وعن على كرم اللّه وجهه : (لما نزلت هذه الآية ، قلت : يا رسول اللّه ، إنى قد رأيت الملوك ووفودهم ، فلم أر وفدا إلا راكبا ، فما وفد اللّه؟ قال : «يا على إذا حان المنصرف من بين يدى اللّه ، تلقت الملائكة المؤمنين بنوق بيض ، رحالها وأزمّتها الذهب ، على كل مركب حلة لا تساويها الدنيا ، فيلبس كل مؤمن

حلة ، ثم يستوون على مراكبهم ، فتهوى بهم النوق حتى تنتهى بهم إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ».

وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ كما تساق البهائم إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً : عطاشا ، فإن من يرد الماء لا يرده إلا للعطش ، أو كالدواب التي ترد الماء ، أي : يوم نحشر الفريقين نفعل ما نفعل مما لا يفى به نطاق العبارة ، لما يقع فيه من الدواهي الطامة ، أو الكرائم العامة ، أو : اذكر يوم نحشر الفريقين ، على طريق الترغيب والترهيب.

وقوله تعالى : لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ : استئناف مبين لما فيه من الأمور الدالة على هوله ، وضمير الواو : إما لجميع العباد المدلول عليهم بذكر الفريقين لانحصارهم فيها ، أو إلى المتقين فقط ، أو إلى المجرمين.

و(مَنِ اتَّخَذَ) : منصوب على الاستثناء ، أو بدل من الواو ، أي : لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم إلا من استعد له بالتحلي بالإيمان والتقوى ، ففيه ترغيب للعباد فى تحصيل الإيمان والتقوى ، المؤدى إلى نيل هذه الرتبة العليا. أولا يملك المتقون الشفاعة إلا شفاعة من اتخذ العهد بالإسلام والعمل الصالح ، أو لا يملك المجرمون أن يشفع لهم إلا من كان منهم مسلما ، فيشفع فى مثله. فمن ، على هذا الثالث ، بدل من الواو فقط. والأول أحسن لعمومه.

قال ابن مسعود رضي اللّه عنه : سمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول : «أما يعجز أحدكم أن يتّخذ كلّ صباح ومساء عهدا عند اللّه ، يقول كلّ صباح ومساء : اللهمّ فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشّهادة ، إنّى أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا ، بأنى أشهد أن لا إله إلّا أنت ، وحدك لا شريك لك ، وأنّ محمّدا عبدك ورسولك ، فلا تكلنى إلى نفسى ، فإنك إن تكلنى إلى نفسى تقرّبنى من الشرّ وتباعدني من الخير ، وإنّى لا أثق إلّا برحمتك ، فاجعل لى عندك عهدا توفّينيه يوم القيامة ، إنّك لا تخلف الميعاد. فإذا قال ذلك طبع عليه طابع ووضع تحت العرش ، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين الذين لهم عند اللّه عهد فيدخلون الجنّة». هـ.

الإشارة : ورود العباد على اللّه يوم القيامة يكون على قدر ورودهم إليه اليوم فى الدنيا ، فبقدر التوجه إليه اليوم تعظم كرامة وروده فى الآخرة ، فمن ورد على اللّه تعالى من باب الطاعة الظاهرة حملته صور الطاعات إلى الآخرة ، ومن ورد من باب الطاعات القلبية حملته الأنوار إلى الفراديس العالية ، ومن ورد من باب الطاعات

السرية – كالفكرة والنظرة فى مقام المشاهدة – حمله الحق إلى الحضرة القدسية ، فيكون فى مقعد صدق عند مليك مقتدر. قال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرحمن العارف فى قوله تعالى : (وَفْداً) : قيل : ركبانا على نجائب طاعتهم ، وهم مختلفون ، فمن راكب على صور الطاعات ، ومن راكب على نجائب الهمم ، ومن راكب على نجائب الأنوار ، ومن محمول يحمله الحق فى عقباه ، كما يحمله اليوم فى دنياه ، وليس محمول الحق كمحمول الخلق. هـ.

وقوله تعالى : (لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ ...) الآية ، اعلم أن العهد الذي تكون به الشفاعة يوم القيامة هو الطاعة وتربية اليقين والمعرفة ، فتقع الشفاعة لأهل الطاعات على قدر طاعتهم وإخلاصهم ، وتقع لأهل اليقين على قدر يقينهم ، وهم أعظم من أهل المقام الأول ، وتقع لأهل المعرفة على قدر عرفانهم ، وهم أعظم من القسمين ، حتى إن منهم من يشفع فى أهل عصره كلهم ، وقد سمعت من شيخنا الفقيه ، شيخ الجماعة سيدى التاودى بن سودة ، أن بعض الأولياء قال عند موته : يا رب شفعنى فى أهل زمانى ، فقال له الحق تعالى – من جهة الهاتف – : لم يبلغ قدرك هذا ، فقال : يا رب إن كان ذلك من جهة عملى واجتهادي فلعمرى إنه لم يبلغ ذلك ، وإن كان من جهة كرمك وجودك فوعزتك وجلالك لهو أعظم من هذا ، فقال له : إنى شفعتك فى أهل عصرك. هـ. بالمعنى. فمن رجع إلى كرم اللّه وجوده ، ودخل من هذا الباب ، وجد الإجابة أقرب إليه من كل شيء. وباللّه التوفيق.

ثم كرر الرد على أهل الشرك والضلال وشنّع عليهم ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٨٨ الى ٩٥]

وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (٨٩) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (٩١) وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (٩٣) لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً (٩٥)

قلت : «هَدًّا» : مصدر مؤكد لمحذوف ، هو حال من الجبال ، أي : تهد هدّا. و«أَنْ دَعَوْا» : على حذف اللام ، أي :

لأن دعوا ، وفيه احتمالات أخر.

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً هذه المقالة صدرت من اليهود والنصارى ، ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله ، لعن اللّه جميعهم ، فسبحان اللّه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ، فحكى جنايتهم إثر جناية عبدة الأصنام ، وعطف القصة على القصة لاشتراكهم فى الضلالة ، قال تعالى فى شأنهم : لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا أي : فعلتم أمرا منكرا شديدا ، لا يقادر قدره ، فهو رد لمقالتهم الباطلة ، وتهويل لأمرها بطريق الالتفات

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٦٥

المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب ، المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح ، وتسجيل عليهم بغاية الوقاحة والجهل.

و(جاء) يستعمل بمعنى فعل ، فيتعدى تعديته ، والإد – بكسر الهمزة وفتحها ، وقرئ بهما فى الشاذ – : العظيم المنكر ، الإدّ : الشدة ، قيل : الأدّ : فى كلام العرب : أعظم الدواهي.

ثم وصفه وبيّن هوله فقال : تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ : يتشققن مرة بعد أخرى ، من عظم ذلك الأمر وشدة هوله ، وهو أبلغ من «ينفطرن» كما قرئ به ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ أي : وتكاد تنشق وتذهب ، وَتَخِرُّ الْجِبالُ أي : تسقط وتنهدم هَدًّا بحيث لا يبقى لها أثر. والمعنى : أن هول تلك الكلمة الشنعاء وعظمها ، بحيث لو تصورت بصورة محسوسة ، لم يطق سمعها تلك الأجرام العظام ، ولتفتتت من شدة قبحها ، أو : إن فظاعتها واستجلاب الغضب والسخط بها بحيث لو لا حلمه تعالى ، لخر العالم وتبددت قوائمه ، غضبا على من تفوه بها. قال محمد بن كعب : كاد أعداء اللّه أن يقيموا علينا الساعة ، يعنى : لأن ما ذكر أوصاف الساعة.

وذلك أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً أي : تكاد تنفطر السموات وتنشق الأرض ، وتنهدم الجبال لأجل أن دعوا ، أي : نسبوا أو سموا للرحمن ولدا ، وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً أي : قالوا اتخذ الرحمن ولدا ، أو دعوا له ولدا ، والحال أنه مما لا يليق به تعالى اتخاذ الولد لاستحالته عليه تعالى. ووضع الرحمن موضع الضمير للإشعار بعلية الحكم لأن كل ما سواه تعالى منعّم عليه برحمته ، أو نعمة من أثر الرحمة ، فكيف يتصور أن يجانس من هو مبدأ النعم ومولى أصولها وفروعها ، حتى يتوهم أن يتخذه ولدا ، وقد صرح به قوله عز قائلا : إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : ما منهم من أحد من الملائكة أو الثقلين إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً مملوكا للّه فى الحال بالانقياد وقهرية العبودية. لَقَدْ أَحْصاهُمْ أي : حصرهم وأحاط بهم ، بحيث لا يخرج أحد من حيطة علمه ، وقبضة قدرته وقهريته ، ما وجد منهم وما سيوجد ، وما يقدر وجوده لو وجد ، كل ذلك فى علمه وقضائه وقدره وتدبيره ، لا خروج لشيء عنه ، وفى ذلك تصوير لقيام ربوبيته على كل شيء ، وأنه عالم بكل شيء ، جملة وتفصيلا ، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً أي : وكل واحد منهم يأتى يوم القيامة فردا من الأموال والأنصار والأتباع ، متفردا بعمله ، فإذا كان شأنه تعالى وشأنهم كذلك فأنى يتوهم احتمال أن يتخذ شيئا منهم ولدا؟!.

وفى الحديث القدسي : «قال اللّه تعالى : كذّبنى عبدى ، ولم يكن له ذلك ، وشتمنى عبدى ولم يكن له ذلك ، أما تكذيبه إياى فأن يقول : من يعيدنا كما بدأنا؟ وأما شتمه إياى فأن يقول : اتخذ اللّه ولدا ، وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لى كفوا أحد» «١». وهو فى البخاري. وفى صيغة اسم

الفاعل فى قوله : آتِيهِ من الدلالة على إتيانهم كذلك البتة ما ليس فى صيغة المضارع لو قيل يأتيه. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري (فى تفسير سورة الإخلاص) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

الإشارة : إذا علمت أيها المؤمن أن الحق جل جلاله يغضب هذا الغضب الكلى على من أشرك مع اللّه ، أو اعتقد فيه ما ليس هو عليه من التنزيه وكمال الكمال ، فينبغى لك أن تخلص مشرب توحيدك من الشرك الجلى والخفي ، علما وعقدا وحالا وذوقا ، حتى لا يبقى فى قلبك محبة لشىء من الأشياء ولا خوف من شىء ، ولا تعلق بشىء ، ولا ركون لشىء ، إلا لمولاك ، وحينئذ يصفى مشرب توحيدك ، وتكون عبدا لله خالصا حرا مما سواه ، ومهما بقي فيك شىء من محبة الهوى نقص توحيدك بقدره ، ولم تصل إليه مادمت تميل إلى شىء سواه. وفى ذلك يقول الششترى رضي اللّه عنه :

إن ترد وصلنا فموتك شرط لا ينال الوصال من فيه فضله

فكن عبدا لله حقيقة ، وانخرط فى سلك قوله : إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً.

فحينئذ تكون حرا مما سواه ، ويملك الوجود بأسره ، يكون عند أمرك ونهيك. وفى ذلك يقول القائل :

دعونى لملكهم فلما أجبتهم قالوا دعوناك للملك لا للملك

وإذا فتحت عين القدرة وعين الحكمة وضعت كل شىء فى محله ، فتتنزه بعين القدرة فى رياض الملكوت وبحار الجبروت ، وتتنزه بعين الحكمة فى بهجة الملك وأسرار الحكمة. فعين القدرة تقول : كل من فى السموات والأرض نور من أنوار الرحمن ، وسر من أسرار ذاته ، وعين الحكمة تقول : كل من فى السموات والأرض عبد مملوك تحت قهرية ذاته ، فاعرف الضدين ، وأنزل كل واحد فى محله ، تكن عارفا باللّه ، فإن أردت أن تعرفه بضد واحد بقيت جاهلا به.

فالحكمة تثبت العبودية صورة صونا لكنز الربوبية ، والقدرة تغيبك عنها بشهود أسرار الربوبية ، وفى الحكم : «سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية ، وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار العبودية».

فالعبودية لازمة من حيث العبد ، والغيبة عنها واجبة من حيث الرب ، فإثبات العبودية ، حكمة ، فرق ، والغيبة عنها فى شهود أنوار الربوبية : جمع ، فالعارف مجموع فى فرقه ، مفروق فى جمعه.

ولما ذكر قبائح الكفرة أتبعه بذكر محاسن المؤمنين ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : آية ٩٦]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا (٩٦)

قلت : لما استحقر الكفرة أحوال المؤمنين حتى قالوا : أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ، أخبر اللّه تعالى المؤمنين وبشرهم أنهم سيعزهم ويلقى مودتهم فى قلوب عباده.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ فى قلوب الناس مودة وعطفا ، حتى يحبهم كل من سمع بهم ، فيحبهم ويحببهم إلى عباده من أهل السموات والأرض ، أي : سيحدث

(٣٦٦/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٦٧

لهم فى القلوب مودة من غير تعرض لأسبابها ، سوى ما لهم من الإيمان والعمل الصالح ، أو وُدًّا فيما بينهم ، فيتحابون ويتواددون ويحبهم اللّه.

قال القشيري : يجعل فى قلوبهم ودّا للّه ، وهو نتيجة أعمالهم الخالصة ، وفى الخبر : «لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى يحبنى وأحبه». والتعرض لعنوان الرحمانية لما أنّ الموعود من آثارها ، وأن مودتهم رحمة بهم وبمن أحبهم. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال لعليّ رضي اللّه عنه : «قل اللّهمّ اجعل لى عندك عهدا ، واجعل لى فى صدور المؤمنين مودّة» فنزلت الآية «١». وفى حديث البخاري وغيره : «إذا أحبّ اللّه عبدا قال لجبريل : إنى أحب فلانا فأحبّه ، فيحبّه جبريل ، ثمّ ينادى فى أهل السّماء إنّ اللّه قد أحبّ فلانا فأحبّوه ، فيحبّه أهل السّماء ، ثمّ يضع له المحبة فى الأرض» «٢».

وقال قتادة : (سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا) قال : أي واللّه ودا فى قلوب أهل الإيمان. وإن هرم بن حيان يقول :

ما أقبل عبد بقلبه على اللّه إلا أقبل اللّه بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم. قلت : ولفظ الحديث : «ما أقبل عبد بقلبه إلى اللّه عز وجل إلا جعل اللّه قلوب المؤمنين تفد إليه بالودّ والرحمة ، وكان اللّه إليه بكل خير أسرع» «٣». نقله فى الترغيب. وفى حديث آخر : «يعطى المؤمن ودّا فى صدور الأبرار ، ومهابة فى صدور الفجار». فتودّد الناس للعبد دليل على قبوله عند مولاه. أنتم شهداء اللّه فى أرضه. وفى بعض الأثر :

«لا يموت العبد الصالح حتى يملأ مسامعه مما يحب ، ولا يموت الفاجر حتى يملأ مسامعه مما

يكره». بالمعنى.

وأتى الحق جل لجلاله بالسين لأن السورة مكية ، وكانوا إذ ذلك ممقوتين عند الكفرة ، فوعدهم ذلك ، ثم أنجزه لهم حين جاء الإسلام ، فعزوا وانتصروا ، وتعشقت إليهم قلوب الخلق من كل جانب ، كما هو مسطر فى تواريخهم. وقيل : الموعود فى القيامة ، حين تعرض حسناتهم على رؤوس الأشهاد كأنها أنوار الشمس الضاحية «٤» ، ولعل إفراد هذا بالوعد من بين مالهم من الكرامات السنية لأن الكفرة سيقع بينهم يومئذ تقاطع وتباغض وتضاد. والله تعالى أعلم.

---

(١) عزاه فى المنثور (٤/ ٥١٢) لابن مردويه والديلمي ، عن البراء.

(٢) أخرجه البخاري فى (بدء الخلق ، باب : ذكر الملائكة) ، ومسلم فى (البر والصلة ، باب إذا أحب الله عبدا) من حديث أبى هريرة.

(٣) أخرجه الطبراني فى الأوسط (٥/ ١٨٦ ح ٥٠٢٥) بزيادة فى أوله ، من حديث أبى الدرداء ، وقال الهيثمي فى المجمع :

(١٠/ ٢٤٧) : رواه الطبراني فى الكبير والأوسط. وفيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب ، وهو كذاب.

(٤) التعبير بالاستقبال بالنسبة إلى الله تحقيق ، كالماضى ، والحاضر ، فليس عند الله زمن كما هو عندنا. والأحسن فى تأويل الآية أن نجعل السين حرف توكيد. والله أعلم.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٦٨

الإشارة : سنّة اللّه تعالى فى أوليائه ، فى حال بدايتهم ، أن يسلط عليهم الخلق ، وينزل عليهم الخمول والذل بين عباده ، حتى يمقتهم أقرب الناس إليهم ، رحمة بهم واعتناء بقلوبهم لئلا تسكن إلى غيره. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه : اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا .. إلخ. فإذا تطهروا من البقايا وكملت فيهم المزايا ، وتمكنوا من معرفة الحق ، أعزهم وألقى مودتهم فى قلوب عباده ، هذا دأبه معهم فى الغالب ، وقد يحكم على بعضهم بالخمول حتى يلقاه على ذلك ، ولا يكون ذلك نقصا فى حقه بل كمالا ، وهم شهداء الملكوت ، لم يأخذوا من أجرهم شيئا. واللّه تعالى أعلم.

ولما ختم السورة الكريمة ، أمر نبيه صلى اللّه عليه وسلم بتبليغها ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٩٧ الى ٩٨]

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (٩٨)

قلت : الفاء لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم ، كأنه قيل – بعد إيحاء السورة الكريمة : بلغ هذا المنزّل عليك ، وبشر به ، وأنذر فإنما يسرناه .. إلخ. قاله أبو السعود.

يقول الحق جل جلاله : فَإِنَّما يَسَّرْناهُ أي : القرآن بِلِسانِكَ بأن أنزلناه على لغتك ، والباء بمعنى «على» وقيل : ضمّن التيسير معنى الإنزال ، أي : يسرنا القرآن وأنزلناه بلغتك لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ أي : السائرين إلى التقوى بامتثال ما فيه من الأمر والنهى ، وَتُنْذِرَ بِهِ أي : تخوف به قَوْماً لُدًّا لا يؤمنون به ، لجاجا وعنادا ، واللّدّ : جمع ألد ، وهو الشديد الخصومة ، اللجوج المعاند.

وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ أي : كثيرا من القرون الماضية أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين ، فهو وعد لرسول الله صلى اللّه عليه وسلم بالنصر على الكفرة ووعيد لهم بالهلاك ، وحث له صلى اللّه عليه وسلم على الإنذار ، أي : دم على إنذارك لهم ، فسيهلكون كما أهلكنا من قبلهم من القرون ، هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أي : هل تشعر بأحد منهم ، وترى له من باقية أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً أي : صوتا خفيا ، هيهات قد انقطع دابرهم وهدأت أصواتهم ، وخربت قصورهم وديارهم ، وكذلك نفعل بغيرهم ، والمعنى : أهلكناهم بالكلية ، واستأصلناهم بحيث لا يرى منهم أحد ، ولا يسمع لهم صوت خفى ولا جلى. وجملة : (هَلْ تُحِسُّ) : استئناف مقرر لمضمون ما قبله ، وأصل الرّكز : الخفاء ، ومنه : ركز الرمح إذا غيب طرفه فى الأرض ، والرّكاز : المال المدفون المخفي. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما أنزل اللّه القرآن وسهله على عباده إلا ليقع به الوعظ والتذكير ، فأمر اللّه رسوله فى حياته بالبشارة والإنذار به ، وبقي الأمر لخلفائه ، فالواجب على العلماء والأولياء أن يتصدوا للوعظ والتذكير ، ولا يكفى عنه تعليم رسوم الشريعة ، فإن الوعظ إنما هو التخويف والتبشير ، كما قال تعالى : لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا.

(٣٦٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٦٩

لكن لا يتصدى للوعظ إلا من له نور يمشى به فى الناس ، فيسبقه نور قلبه إلى القلوب المستمعة ، فيقع كلامهم فى قلوب السامعين. قال فى الحكم : «تسبق أنوار الحكماء أقوالهم ، فحيثما صار التنوير وصل التعبير». هذا النور هو نور المعرفة الذي هى مقام الفناء ، ويشترط فيه أيضا : أن يكون مأذونا له فى الكلام من شيخ كامل ، أو وحي إلهامى حقيقى ، فحينئذ يقع كلامه فى مسامع الخلق. وفى الحكم : «من أذن له فى التعبير حسنت فى مسامع الخلق عبارته ، وجليت إليهم إشارته».

وقال أيضا : «ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار ، إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار». وفى أمثال هؤلاء المتصدين للوعظ والتذكير ورد الخبر القدسي : «إنّ أودّ الأودّاء إليّ من يحببنى إلى عبادى ، ويحبب عبادى إليّ ، ويمشون فى الأرض بالنصيحة» .. جعلنا اللّه من خواصهم بمنّه وكرمه آمين. وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلّم تسليما.

(٣٦٩/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٧٠

(٣٧٠/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٧١

سورة طه

مكية. وهى مائة وخمس وثلاثون آية. ووجه مناسبتها لما قبلها قوله : فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ «١» مع قوله :

ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى

، كأنه يقول : فإنما سهلناه عليك لترتاح به لا لتتعب. ثم افتتحها برموز بينه وبين حبيبه ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طه (١) ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى (٣) تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى (٤)

الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى (٥) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرى (٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى (٧) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى (٨)

قلت : عن ابن عباس أن «طه» من أسماء الله تعالى ، وقيل : معناه : طوبى لمن هدى ، وقيل : يا طاهر يا هادى ، فالطاء تشير إلى طهارته صلى اللّه عليه وسلم وتطهيره من دنس الحس ، والهاء تشير إلى هدايته فى نفسه ، وهدايته غيره إلى حضرة القدس.

وروى عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «لى عشرة أسماء ..» فذكر أن منها «طه ويس» ، وقيل : معناه : طأ الأرض بقدمك لأنه كان يرفع رجلا فى الصلاة ويضع أخرى فى طول تهجده ، فأبدل الهمزة ألفا ، والضمير للأرض ، ورد بأنه لو كان كذلك لكتبت بالألف ، فإنّ الكتابة بصورة الحرف مع التلفظ

بخلافه من خصائص حروف المعجم. وقيل :
معناه : يا رجل. وهو مروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم ، وهو عندهم على اللغة النبطية ، أو السريانية «٢». قيل : من جعل معنى «طه» يا رجل ، لم يقف على طه ، وكذا من جعله اسما للنبى صلى اللّه عليه وسلم لأن النداء تنبيه على ما بعده ، ومن جعلها افتتاحا ، أو على وجه من الوجوه المذكورة فى البقرة ، وقف عليها ، إلا فى قول من جعلها قسما ، فإنه لا يقف عليها لأن قوله : (ما أَنْزَلْنا ...) إلخ جواب قسم.

---

(١) من الآية ٩٧ من سورة مريم.
(٢) انظر تفسير البغوي (٥/ ٢٦٢) ، وزاد المسير (٥/ ٢٦٩).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٧٢
قلت : المتبادر من سبب نزولها ومن قوله : (ما أَنْزَلْنا) : إما القسم أو النداء ، فالقسم على أن ذلك من أسماء الله ، والنداء على كون ذلك بمعنى يا رجل ، أو من أسمائه صلى اللّه عليه وسلم. وأمّا غير ذلك فبعيد ، إلا أن يكون ما بعد ذلك استئنافا بعد الوقف على «طه». قاله فى الحاشية.
و(إِلَّا تَذْكِرَةً) : مفعول لأجله. والاستثناء منقطع ، أي : ما أنزلناه لتتعب به ، لكن أنزلناه للتذكرة والوعظ ، و(تَنْزِيلًا) :
مصدر مؤكد لمضمر مستأنف مقرر لما قبله ، أي : أنزل تنزيلا ، والأصح : أنه بدل من اللفظ بفعله الناصب له ، فلا يجمع بينه وبين المبدل منه ، وفيه معنى التأكيد لما قبله ، أو هو نص فى معناه ، وإنما تلون الكلام بالالتفات ، أو منصوب على المدح والاختصاص ، أو مفعول بيخشى ، أو حال من «الْقُرْآنَ» ، و(الرَّحْمنُ) : رفع على المدح ، وقد عرفت أن المرفوع مدحا ، فى حكم الصفة الجارية على ما قبلها ، وإن لم يكن تابعا له فى الإعراب ، ولذلك ألزموا حذف المبتدأ ليكون فى صورة متعلق من متعلقاته. وقرئ بالجر صفة للموصول ، وما قيل من أن الموصولات لا توصف إلا بالذي وحده فمذهب كوفى ، أو (الرَّحْمنُ) : مبتدأ ، و(عَلَى الْعَرْشِ) : خبره. و«عَلَى» : متعلقة باستوى ، قدمت للفواصل. و(إِنْ تَجْهَرْ) : شرط ، والجواب محذوف دل عليه (فَإِنَّهُ ...) إلخ ، أي : فالله غنى عن جهرك ، فإنه ... إلخ.
يقول الحق جل جلاله تسلية لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ، أو ترويحا له من التعب : يا محمد ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى أي : لتتعب نفسك بالمجاهدة فى العبادة.

روى أنه صلى اللّه عليه وسلم كان يقوم باللّيل حتّى تورّمت قدماه ، فقال له جبريل عليه السّلام : «أبق على نفسك ، فانّ لها عليك حقا». أي : ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسك «١» وحملها على الرياضات الشاقة ، والشدائد الفادحة ، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة. أو : ما أنزلناه لتتعب نفسك فى تبليغه بمكابدة الشدائد فى مقاومة العتاة ومحاورة الطغاة ، وفرط التأسف على كفرهم والتحسر على إيمانهم ، كقوله : لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ «٢» ، بل للتبليغ ، وقد فعلت. وإطلاق الشقاء فى هذا المعنى شائع ، ومنه قولهم : أشقى من رائض مهر ، وقيل : إن أبا جهل والنضر بن الحارث قالا لرسول صلى اللّه عليه وسلم : إنك شقى ، حيث تركت دين آباءك ، وما نزل عليك هذا القرآن إلا لتشقى ، فردّ اللّه ذلك عليهم. والأول أظهر ، والعموم أحسن ، فإنه نفى عنه جميع الشقاء فى الدنيا والآخرة.

إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى أي : ما أنزلناه لتتعب ، لكن أنزلناه تذكرة وموعظة لمن يخشى الله – عز وجل – ليتأثر بالإنذار ، لرقة قلبه ولين عريكته ، أو لمن علم الله أنه يخشى بالتخويف ، وتخصيصها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لأنهم المنتفعون بها.

---

(١) أي : إجهاد نفسك.

(٢) الآية ٣ من سورة الشعراء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٧٣

تَنْزِيلًا أي : أنزل تنزيلا ، أو حال كون القرآن تنزيلا ، أي : منزلا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى ، ونسبة التنزيل إلى الموصول بعد نسبته إلى نون العظمة بقوله : (ما أَنْزَلْنا) لبيان فخامته تعالى بحسب الأفعال والصفات ، إثر بيانها بحسب الذات بطريق الإبهام ، ثم التفسير لزيادة تحقيق وتقرير.

وتخصيص خلقهما بالذكر لتضادهما. وتقديم الأرض لكونه أقرب إلى الحس ، ووصف السموات بالعلى ، وهو جمع «عليا» لتأكيد الفخامة مع ما فيه من مراعاة الفواصل. وكل ذلك إلى قوله : (لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى) ، مسوق لتعظيم المنزل – عز وجل – المستتبع بتعظيم المنزّل عليه ، الداعي إلى تربية المهابة وإدخال الروعة ، المؤدية إلى استنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان ، واستمالتهم إلى الخشية ، المفضية إلى التذكير والإيمان.

ثم قال تعالى : الرَّحْمنُ أي : هو الرحمن ، ووصف تعالى بالرحمانية إثر وصفه بالخالقية للإيذان بأن ربوبيته تعالى ، وقيامه بالأشياء ، من طريق الرحمة والإحسان ، لا بالإيجاب ، وفيه إشارة إلى أن تنزيله

القرآن أيضا من رحمته – تعالى – ، كما ينبئ عنه قوله عز من قائل : الرَّحْمنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ «١». أو : (الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى) : مبتدأ وخبر ، وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذي من شأنه أن يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب للإيذان بأن ذلك أمر بيّن لا خفاء فيه ، غنى عن الإخبار صريحا. والاستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان ، يقال : استوى فلان على سرير الملك مرادا به ملك الملك والتصرف ، وإن لم يقعد على سرير أصلا ، والمراد : تعلق قدرته وقهريته فى جميع الكائنات بالتدبير والتصرف التام.

وسئل أحمد بن حنبل عن الاستواء ، فقال : استواء من غلب وقهر ، لا استواء كما يتوهم البشر. وسئل عنه مالك والشافعي – رضى الله عنهما – فقالا : الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب ، والسؤال عن هذا بدعة وضلالة ، آمنوا بلا تشبيه ، وصدّقوا بلا تمثيل ، وأمسكوا عن الخوض فى هذا كل الإمساك.

وقال الجنيد رضي اللّه عنه : خلق الله العرش فوق سبع سموات ، وجعله قبلة لدعاء المخلوقات ، وقابله بقلب عبده المؤمن ، ليكون محلا للتجليات والتنزلات والمخاطبات. هـ. وقد تقدم الكلام عليها فى الأعراف مستوفيا «٢».

لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلول فيهما ، وَما بَيْنَهُما من الموجودات الكائنة فى الجو دائما ، كالهواء والسحاب ، أو أكثريا كالطير ، أي : له ذلك وحده دون غيره ، لا شركة ولا استقلالا ، كل ما ذكر هو له ملكا وتصرفا ، وإحياء وإماتة ، وإيجادا واعداما ، وَما تَحْتَ الثَّرى :

وما وراء التراب المتصل بالهوى السفلى. وعن محمد بن كعب : أنه ما تحت الأرضين السبع. وعن السدى : أن

---

(١) الآيتان : ١ – ٢ من سورة الرحمن.

(٢) راجع تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف. [.....]

الثرى هو الصخرة التي عليها الأرض السابعة ، وذكره مع دخوله تحت ما فى الأرض لزيادة التقرير. وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ أي : وإن تجهر بذكره تعالى – أو دعائه ، فاعلم أنه تعالى غنى عن جهرك فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى أي : ما أسررته إلى غيرك ، وشيئا أخفى من ذلك ، وهو ما أخطرته ببالك ، من غير أن تتفوه به

أصلا أو : السر : ما أسررته فى نفسك ، وأخفى منه : ما ستسره فى المستقبل. وهو إمّا نهى عن الحركة ، كقوله تعالى :

وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ «١» وإما إرشاد للعباد إلى أن الجهر ليس لإسماعه تعالى بل لغرض آخر من تأنيس النفس بالذكر وتثبيته فيها ، ومنعها من الاشتغال بغيره ، وقطع الوسوسة عنها ، وهضمها بالتضرع والجؤار. هذا والغرض من الآية : بيان إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء ، إثر بيان سعة سلطانه وشمول قدرته بجميع الكائنات.

ثم بيّن الموصوف بتلك الكمالات ، فقال : اللَّهُ أي : ما ذكر من صفات الكمال ، موصوفها الله المعبود بالحق ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أي : لا معبود بحق إلا هو ، ولا مستحق للعبادة إلا هو. وهو تصريح بما تضمنه ما قبله من اختصاص الألوهية به سبحانه ، فإنّ ما أسند إليه تعالى من خلق جميع الموجودات ، ومن الرحمانية والمالكية للكل ، والعلم الشامل ، يقتضى اختصاصه تعالى بالألوهية والربوبية ، وقوله تعالى : لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى بيان لكون ما ذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية أسماءه تعالى وصفاته ، من غير تعدد فى ذاته تعالى فالأسماء والصفات كثيرة ، والمسمى والموصوف واحد.

و(الْحُسْنى) : تأنيث الأحسن ، فعلى ، يوصف به الواحد المؤنث ، والجمع المذكر والمؤنث ، ك مَآرِبُ أُخْرى «٢» ، وآياتِنَا الْكُبْرى «٣». والله تعالى أعلم.

الإشارة : من تأمل القرآن العظيم ، وما جاء به الرسول – عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم – وجده يدل على ما يفضى إلى الراحة دون التعب ، وإلى السعادة العظمى دون الشقاء ، لكن لا يتوصل إلى الراحة إلا بعد التعب ، ولا يفضى العبد إلى السعادة الكبرى إلا بعد الطلب ، فإذا اجتهد العبد فى طلب ربه ، وكله إلى شيخ ينقله من عمل الجوارح إلى عمل القلوب ، فإذا وصل العمل إلى القلب استراحت الجوارح ، وأفضى حينئذ إلى روح وريحان ، وجنة ورضوان ، أعنى جنة العرفان. ولذلك قال الشيخ أبو الحسن : «ليس شيخك من يدلك على تعبك ، إنما شيخك من يريحك من تعبك» ، كما فى لطائف المنن.

وقال شيخنا القطب ابن مشيش : وقد سئل عن قوله صلى اللّه عليه وسلم : «يسّروا ولا تعسّروا» فقال : دلوهم على الله ، ولا تدلوهم على غيره ، فإن من دلّك على الدنيا فقد غشك ، ومن دلّك على العمل فقد أتعبك ، ومن دلّك على الله فقد

---

(١) من الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ١٨ من سورة طه.

(٣) من الآية ٢٣ من سورة طه.

نصحك. هـ. فإذا دلك على الله غيّبك عن وجود نفسك بشهود ربك ، وهى السعادة العظمى ، كما تقدم فى سورة هود. فمن اتخذ شيخا ثم لم ينقله من مقام التعب ، ولم يرحله من مقام إلى مقام ، فاعلم أنه غير صالح للتربية.

وقوله تعالى : إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى ، قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن العارف : قيل : أنزل الله القرآن لتذكير سابق الوصال لأن الأرواح لمّا دخلت الأشباح اكتسبت خشية ووحشة وفرقة عن معادنها ، فأنزل الله القرآن تأنيسا لأن المحب يأنس بكتاب حبيبه وكلامه. وقال جعفر الصادق : أنزل الله القرآن موعظة للخائفين ، ورحمة للمؤمنين ، وأنسا للمحبين. وأيضا : القرآن يذكّر عظمة الله الموجبة خشيته ، فهو مذهب للغفلة. ثم قال : وفى الشهود الحاصل بالتذكير رفع المشقة ، ووجدان الراحة بالطاعة ، لكونه يصير محمولا ، وقد قال : وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي «١» ، أي : لشهودى فيها ، وفى ذلك قرة عين ، وراحة ، وأنس ، وتشابه حال المصلى بحال موسى ، بجامع النجوى ، فلذلك ذكر فى سياقه. واللّه أعلم. هـ.

وقوله تعالى : الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى ، تفسيرها هو الذي قصد ابن عطاء الله فى الحكم بقوله : «يا من استوى برحمانيته على عرشه ، فصار العرش غيبا فى رحمانيته ، كما صارت العوالم غيبا فى عرشه ، محقت الآثار بالآثار ، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار». وأنت خبير بأن الرحمانية وصف لازم للذات ، والصفة لا تفارق الموصوف ، فإذا استوت الرحمانية على العرش وغمرته فقد استوت عليه أسرار الذات وغمرته ، وهى أفلاك الأنوار التي أحاطت بالعرش والآثار ، ومحت كل شىء ، حتى لم يبق إلا الذي ليس كمثله شىء ، وليس معه شىء ، وهو السميع البصير. وما نسبة حس الآثار بالنسبة إلى أفلاك الأسرار التي استوت عليه إلا كالهباء فى الهواء. والله تعالى أعلم وأعظم.

ثم ذكر قصص موسى عليه السّلام ، وتسليته لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ، وعما لقى من التعب فى تبليغ الوحى ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٩ الى ١٦]

وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (٩) إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً (١٠) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى (١٣)

إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَاتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى (١٦)

---

(١) من الآية ١٤ من سورة طه.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٧٦

قلت : قال القشيري : أجرى الله [سنته] «١» فى كتابه أن يذكر قصة موسى فى أكثر المواضع التي يذكر فيها حديث نبينا – عليه الصلاة والسلام – يتبعه بذكر موسى ، تنبيها على علو شأنه ، لأنه كما أن التخصيص بالذكر يدل على شرف المذكور ، فالتكرير فى التفصيل يوجب التفضيل فى الوصف لأن القضية الواحدة إذا أعيدت مرارا كثيرة كانت فى باب البلاغة أتم ، ولا سيما فى كل مرة فائدة زائدة. هـ.

قلت : ولعل وجه تناسقهما فى الذكر قرب المنزلة ، ومشاركة الصفة ، وذلك باعتبار المعالجة وهداية الأمة ، فإن أمة موسى عليه السّلام كانت انتشرت فلم يقع لنبى هداية على يديه لقومه مثله ، إلا لنبينا – عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم – فإن أمته انتشرت وشاعت مسير الشمس والقمر ، وفى حديث البخاري ما يدل على هذا ، حين عرضت عليه الأمم صلى اللّه عليه وسلم مرة ، فرأى أمة موسى عليه السّلام كثيرة ، ثم رأى أمته قد سدت الأفق. فانظر لفظه فيه «٢».

وقال أبو السعود : المناسبة إنما هى تقرير أمر التوحيد الذي إليه انتهى مساق الحديث ، وبيان أنه مستمر فيما بين الأنبياء ، كابرا عن كابر ، وقد خوطب به موسى عليه السّلام ، حيث قيل له : إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ، وبه ختم عليه السلام مقاله ، حيث قال : إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ «٣» ، ثم ردّ مناسبة التسلية بأن مساق النظم الكريم إنما هو لصرفه عليه السلام عن اقتحام المشاق. فانظره.

و(هَلْ) : لفظة استفهام ، والمراد به التشويق لما يخبره به ، أو التنبيه. و(إِذْ رَأى) : ظرف للحديث لأن فيه معنى الفعل ، أو لمضمر مؤخر ، أي : حين رأى كان كيت وكيت ، أو : لاذكر ، أي : اذكر وقت رؤيته .. إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى أي : قصته فى معالجة فرعون ، فإنا سنذكرها لك تسلية وتقريرا لأمر التوحيد ، إِذْ رَأى ناراً تلمع فى الوادي ، وذلك أنه عليه السلام استأذن شعيبا عليه السّلام فى _____

(١) ما بين المعكوفتين زيادة ليست فى الأصول.

(٢) قال ابن عباس رضي اللّه عنه : خرج علينا النبي صلى اللّه عليه وسلم يوما ، فقال : عرضت علىّ الأمم ، فجعل يمر النبي معه الرجلان ، والنبي معه الرهط ، والنبي ليس معه أحد ، ورأيت سوادا كثيرا سد الأفق ، فرجوت أن تكون أمتى. فقيل : هذا موسى وقومه. ثم قيل لى : انظر ، فرأيت سوادا كثيرا سد الأفق ، فقيل لى : انظر هكذا وهكذا ، فرأيت سوادا كثيرا سد الأفق ، فقيل : هؤلاء أمتك ، ومع

هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ...» الحديث أخرجه البخاري فى (الطب ، باب من لم يرق)

(٣) من الآية ٩٨ من سورة طه.

الخروج إلى أمه وأخيه ، فخرج بأهله ، وأخذ على غير الطريق ، مخافة من ملوك الشام ، فلما وافى وادي طوى ، وهو بالجانب الغربي من الطور ، ولد له ولد فى ليلة مظلمة شاتية مثلجة ، وكانت ليلة الجمعة ، وقد ضل عن الطريق ، وتفرقت ماشيته ، ولا ماء عنده ، فقدح النار فلم تور المقدحة.

فبينما هو فى ذلك إِذْ رَأى ناراً على يسار الطريق من جانب الطور ، فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا أي : أقيموا مكانكم. أمرهم عليه السّلام بذلك لئلا يتبعوه ، كما هو المعتاد من النساء. والخطاب للمرأة والخادم والولد ، وقيل : لها وحدها ، والجمع للتعظيم ، إِنِّي آنَسْتُ أي : أبصرت ناراً ، وقيل : الإيناس خاص بإبصار ما يؤنس به. لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أي : بشعلة مقتبسة من معظم النار ، وهو المراد بالجذوة فى سورة القصص «١» ، وبالشهاب القبس ، «٢» أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً هاديا يدلنى إلى الطريق ، فهو مصدر بمعنى الفاعل ، و(أَوْ) فى الموضعين : لمنع الخلو ، لا لمنع الجمع إذ يمكن أن يقتبس من النار ويجد هاديا. ومعنى الاستعلاء فى قوله : عَلَى النَّارِ لأن أهلها يستعلون عليها عند الاصطلاء ، ولما كان الإيتاء بها غير محقق ، صدّر الجملة بكلمة الترجي.

فَلَمَّا أَتاها أي : النار التي آنسها. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : رأى شجرة خضراء ، حفت بها ، من أسفلها إلى أعلاها ، نار بيضاء ، تتقد كأضوء ما يكون ، فوقت متعجبا من شدة ضوئها ، روى أن الشجرة كانت عوسجة ، وقيل :

سمرة «٣» .. بينما هو ينظر ، نُودِيَ فقيل : يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ، أو بأنى أنا ربك ، وتكرير الضمير لتأكيد الدلالة ، وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة. يروى أنه لما نودى يا موسى ، قال عليه السّلام : من المتكلم؟ فقال الله عز وجل : (أَنَا رَبُّكَ) ، فوسوس إليه الخاطر : لعلك تسمع كلام شيطان ، قال : فلما قال : (إِنَّنِي أَنَا) ، عرفت أنه كلام الله عز وجل. قيل : إنه سمعه من جميع الجهات بجميع الأعضاء.

ثم قال له : فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ لأنه أليق بحسن الأدب ، ومنه أخذ الصوفية – رضى الله عنهم – خلع نعالهم بين يدى المشايخ والأكابر ، وقيل : ليباشر الوادي المقدس بقدميه ، ومنه يؤخذ تعظيم المساجد ، بخلعها ولو طاهرة ، وقيل : إن نعليه كانتا من جلد حمار غير مدبوغ. وقيل : النعلين :

الكونين ، أي : فرغ قلبك من الكونين إن أردت دخول حضرتنا. وقوله تعالى : إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ : تعليل لوجوب الخلع ، وبيان لسبب ورود الأمر بذلك.

روى أنه عليه السّلام خلعهما وألقاهما وراء الوادي ، و«طُوىً» : بدل من الوادي ، وهو اسم له. وقرأ منونا لتأوله بالمكان ، وغير المنون لتأوله بالبقعة.

---

(١) فى قوله : لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ، من الآية ٢٩ من سورة القصص.

(٢) فى قوله : سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ، من الآية ٧ من سورة النمل.

(٣) انظر تفسير الطبري (١٦/ ١٤٣) ، والبغوي (٤/ ٢٦٥).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٧٨

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ أي : اصطفيتك للنبوة والرسالة ، وقرأ حمزة : (و إنّا اخترناك) بنون العظمة ، فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى أي : للذى يوحى إليك ، أو لوحينا إليك ، وهو : إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا ، فالجملة بدل من «ما».

فَاعْبُدْنِي أفردنى بالعبادة والخضوع ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، فإن اختصاص الألوهية به سبحانه من موجبات تخصيص العبادة به تعالى. وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي : لتذكرنى فيها لاشتمالها على الأذكار ، وأفردت بالذكر ، مع اندراجها فى الأمر بالعبادة لفضلها على سائر العبادات لما نيطت به من ذكر المعبود ، وشغل القلب واللسان بذكره ، فإنّ الذكر كما ينبغى لا يتحقق إلا فى ضمن العبادة.

أو «لِذِكْرِي» : لإخلاص ذكرى وابتغاء وجهى ، بحيث لا ترائى بها غيرى. وقيل : لذكرى إياها ، وأمرى بها فى الكتب ، أو لأن أذكرك فيها بالمدح والثناء ، وقيل : لأوقات ذكرى ، وهى مواقيت الصلوات ، وقيل : لذكر صلاتى إذا نسيتها ، لما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال : «من نام عن صلاة ، أو نسيها ، فليصلّها إذا ذكرها لأنّ اللّه تعالى يقول : وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي» «١».

قال بعضهم : [أصول العمل ثلاثة] «٢» : أقوال وأفعال وأحوال ، فأفضل الأقوال : لا إله إلا الله ، وأفضل الأفعال :

الصلاة لله أو بالله ، وأفضل الأحوال : الطمأنينة بشهود الله.

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ : كائنة لا محالة ، وهو تعليل لوجوب العبادة وإقامة الصلاة ، وإنما عبّر بالإتيان تحقيقا

لحصولها ، بإبرازها فى معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين. أَكادُ أُخْفِيها أي : لا أظهرها ، بأن أقول :

آتية فقط ، فلا تأتى إلا بغتة ، أو أكاد أظهرها بإيقاعها ، من أخفاه ، إذا أظهره ، فأخفى – على هذا – من الأضداد.

وردّه ابن عطية ، فإن الذي بمعنى الظهور هو : «خفى» الثلاثي ، لا «أخفى». وقال الزمخشري : قد جاء فى بعض اللغات : أخفى بمعنى خفى ، أي : ظهر ، فلا اعتراض.

ونقل الثعلبي عن ابن عباس وأكثر المفسرين أن المعنى : أكاد أخفيها عن نفسى ، فكيف عن غيرى؟ وكذلك هو فى مصحف أبى ، وفى مصحف عبد الله : فكيف يعلمها مخلوق ، وفى بعض القراءات : وكيف أظهرها لكم؟ قال قطرب : فإن قيل : كيف يخفى الله تعالى عن نفسه ، وهو خلق الأشياء؟ قلنا : إن الله تعالى كلم العرب بكلامهم الذي يعرفونه. انظر بقية كلامه.

---

(١) أخرجه بنحوه : البخاري فى (مواقيت الصلاة ، باب من نسى صلاة فليصل إذا ذكرها) ، ومسلم فى (المساجد ، باب قضاء الصلاة الفائتة ، واستحباب تعجيل قضائها) ، من حديث أنس رضي اللّه عنه.

(٢) ما بين المعكوفتين : مشتبه فى المخطوطة الأمّ ، وغير موجود فى غيرها.

وظهور علاماتها لا يزيل إخفاءها. قال ابن عرفة فى تفسيره : وإذا ظهرت عند وقوع الأشراط لم ينسلخ عنها معنى الخفاء المتقدم ، غاية الأمر أنها بذكر الأشراط وسط بين الإخفاء والإظهار ، فتكون مقاربة لكل واحد منهما. هـ.

وقوله تعالى : لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى متعلق بآتية ، أو بأخفيها – على معنى : أظهرها ، لتجزى كل نفس بسعيها ، أي : بعملها خيرا كان أو شرا. فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها أي : عن ذكر الساعة ومراقبتها والاستعداد لها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها حتى تكسل عن التزود لها. والنهى – وإن كان بحسب الظاهر متوجها للكافر عن صد موسى عليه السّلام – لكنه فى الحقيقة نهى له عليه السّلام عن الانصداد عنها ، على أبلغ وجه ، فإنّ النهى عن أسباب الشيء المؤدية إليه نهى عنه بالطريق البرهاني ، كقوله تعالى : لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي «١» ، أي : لا تتبع فى الصد عنها من لا يؤمن بها وَاتَّبَعَ هَواهُ أي : ما تهواه نفسه من اللذات الفانية ، فَتَرْدى : فتهلك فإنّ الإغفال عنها ، وعن تحصيل ما ينجى من أهوالها ، مستتبع

للهلاك لا محالة. وبالله التوفيق.

الإشارة : وهل أتاك أيها العارف حديث موسى ، كيف سار إلى نور الحبيب ، ومناجاة القريب ، إذ رأى نارا فى مرأى العين ، وهو نور تجلّى الحبيب بلا بين ، فقال لأهله ومن تعلق به : امكثوا ، أقيموا فى مقام الطلب ، واصبروا وصابروا ورابطوا على قلوبكم ، فى نيل المطلب ، إنى آنست نارا ، وهو نور وجه الحبيب فى مرائى تجلياته ، وهذا مقام الفناء ، لعلى آتيكم منها بقبس ، تقتبسون منه أنوارا لقلوبكم واسراركم. أو أجد على النار هدى يهدينى إلى مقام البقاء والتمكين ، فلما أتاها ، وتمكن من شهودها ، نودى يا موسى : إنى أنا ربك ، فلا نار ولا أثر ، وإنما وجه الحبيب قد تجلى وظهر ، فى مرأى الأثر ، فاخلع نعليك ، أي : اخرج عن الكونين إن أردت شهود حضرة المكون ، كما قال القائل :

واخلع النعلين ، إن جئت إلى ذلك الحي ففيه قدسنا
وعن الكونين كن منخلعا وأزل ما بيننا من بيننا

إنك بالواد المقدس ، أي : بحر حضرة القدس ومحل الأنس ، قد طويت عنك الأكوان ، وأبصرت نور الشهود والعيان ، وأنا اخترتك لحضرتى ، واصطفيتك لمناجاتى ، فاستمع لما يوحى إليك منى ، فأنا الله لا إله إلا أنا وحدي ، فإذا تمكنت من شهودى ، فانزل لمقام العبودية شكرا ، وأقم الصلاة لذكرى ، إن الساعة آتية لا محالة ، فأكرم مثواك ، وأجل منصبك ، وأرفعك مع المقربين ، فلا يصدنك عن مقام الشهود أهل العناد والجحود ، فتسقط عن مقام القرب والأنس ، وتصير فى جوار أهل حجاب الحس ، ولعل هذا المنزع هو الذي انتحى ابن الفارض ، حيث قال فى كلام له :

---

(١) من الآية ٨٩ من سورة هود.

آنست فى الحىّ نارا ليلا فبشّرت أهلي
قلت : امكثوا ، فلعلّى أجد هداى ، لعلّى
دنوت منها فكانت نار التكلم قبلى
نوديت منها كفاحا : ردّوا ليالى وصلي
حتى إذا ما تدانى ال ميقات فى جمع شملى
صارت جبالىّ دكا من هيبة المتجلّى

ولاح سرّ خفي يدريه من كان مثلي
فالموت فيه حياتى وفى حياتى قتلى
وصرت موسى زمانى مذ صار بعضى كلى

قوله : «صارت جبالى دكا» ، أي : جبال وجوده ، فحصل الزوال من هيبة نور المتجلى ، وهو الكبير المتعال. وهذا إنما يكون بعد موت النفس وقهرها ، فإنها حينئذ تحيا بشهود ربها ، حياة لا موت بعدها. وقوله : «مذ صار بعضى كلى» يعنى : إنما حصلت له المناجاة والقرب الحقيقي حين فنيت دائرة حسه ، فاتصل جزء معناه بكل المعنى المحيط به ، وهو بحر المعاني المفنى للأوانى. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مكالمته مع كليمه عليه السّلام ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١٧ الى ٢٣]

وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى (١٧) قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى (١٨) قالَ أَلْقِها يا مُوسى (١٩) فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى (٢٠) قالَ خُذْها وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى (٢١)
وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى (٢٣)

قلت : (وَ ما) : استفهامية ، مبتدأ ، و(تِلْكَ) : خبر ، أو بالعكس ، فما : خبر ، وتلك : مبتدأ ، وهو أوفق بالجواب.

و(بِيَمِينِكَ) : متعلق بالاستقرار حالا ، أي : وما تلك ، قارة أو مأخوذة بيمينك ، والعامل معنى الإشارة. وقيل : (تِلْكَ) :

موصولة ، أي : وما التي هى بيمينك ، والاستفهام هنا : إيقاظ وتنبيه له عليه السّلام على مما سيبدو له من العجائب ، وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه.

(٣٨٠/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٨١

يقول الحق جل جلاله : وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى ، إنما سأله ليريه عظيم ما يفعل بها من قلبها حية ، فمعنى السؤال : تقريره على أنها عصى ، ليتبين له الفرق بين حالها قبل قلبها وبعده ، وقيل : إنما سأله ليؤنسه وينبسط معه ، فأجابه بقوله : هِيَ عَصايَ ، نسبها لنفسه تحقيقا لوجه كونها بيمينه ، روى أنها كانت عصا آدم عليه السّلام ، فأعطاها له شعيب ، حين قدمه لرعى غنمه ، على ما يأتى فى سورة القصص. وكان فى رأسها شعبتان ، وفى أسفلها سنان ، واسمها نبعة ، فى قول مقاتل «١».

أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها أي : أعتمد عليها إذا مشيت ، وعند الإعياء ، والوقوف على رأس قطيع الغنم ، وَأَهُشُّ أي : أخبط بِها الورق من الشجر ليسقط عَلى غَنَمِي فتأكله. وقرئ بالسين ، وهو زجر الغنم ، تقول العرب : هس هس ، فى زجرها ، وعداه بعلى لتضمنه معنى الإقبال والتوجه. وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى أي : حاجات أخرى من هذا الباب. قال ابن عباس : كان موسى عليه السّلام يحمل عليها زاده وسقاءه ، فجعلت تأتيه وتحرسه ، ويضرب بها الأرض فتخرج ما يأكل يومه ، ويركز بها فيخرج الماء ، فإذا رفعها ذهب ، وكان يرد بها عن غنمه ونعمه الهوام بإذن الله ، وإذا ظهر له عدو حاربت وناضلت عنه ، وإذا أراد الاستسقاء من البئر أدلاها ، فطالت على طول البئر وصارت شعبتاها كالدلو فيستقى بها ، وكان يظهر على شعبتيها كالشمعتين بالليل فيستضيئ بها ، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فتغصّنت غصن تلك الشجرة وأورقت وأثمرت. فهذه المآرب «٢».

وكأنه عليه السّلام فهم أن المقصود من السؤال بيان حقيقتها ، وتفصيل منافعها بطريق الاستقصاء ، فلذلك أطنب فى كلامه ، فلما بدت منها خوارق بديعة علم أنها آية باهرة ومعجزات قاهرة ، وأيضا : الإطناب فى مناجاة الأحباب محمود.

قالَ له تعالى : أَلْقِها يا مُوسى لترى من شأنها ما لم يخطر ببالك ، قيل : إنما أمر بإلقائها قطعا للسكون إليها ، لما كان فيها من المآرب ، وبالغ الحق تعالى فى ذلك بقلبها حية ، حتى خاف منها ، وحين قطعه عنها ، وأخرجها من قلبه ، بالفرار منها ردها إليه بقوله : خُذْها وَلا تَخَفْ فَأَلْقاها على الأرض فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى ، روى أنه عليه السّلام ألقاها فانقلبت حية صفراء ، فى غلظ العصا ، ثم انتفخت وعظمت ، فلذلك شبهت بالجان تارة ، وبالثعبان مرة أخرى ، وعبّر عنها هنا بالاسم العام للحالين ، وقيل : انقلبت من أول الأمر ثعبانا ، وهو أليق بالمقام ، كما يفصح عنه قوله عز وجل : فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ «٣» ، وإنما سميت بالجان فى الجلادة وسرعة المشي ، لا فى صغر الجثة. وقيل : الجان عبارة عن ابتداء حالها ، والثعبان عن انتهائه.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٥/ ٢٦٨). [.....]

(٢) قال الحافظ ابن كثير عن هذه المآرب : الظاهر أنها – أي : العصا – لم تكن كذلك ، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السّلام صيرورتها ثعبانا ، فما كان يفرّ منها هاربا ، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية ، انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٥).

(٣) من الآية ١٠٧ من سورة الأعراف

قالَ تعالى : خُذْها يا موسى ، وَلا تَخَفْ ، قال ابن عباس رضي اللّه عنه : انقلبت ثعبانا ذكرا ، يبتلع كل شيء من الصخر والشجر ، فلما رآه كذلك خاف ونفر ، ولحقه ما يلحق البشر عند مشاهدة الأهوال من الخوف والفزع ، إذ لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية. سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى أي : سنعيدها ، بعد الأخذ ، إلى حالتها الأولى التي كانت عليها عصا ، قيل : بلغ عليه السّلام عند ذلك من الثقة وعدم الخوف إلى حيث كان يدخل يده فى فمها ، ويأخذ بلحييها. فلما أخذها عادت عصا ، وحكمة قلبها وأخذها هنا ليكون معها على ثقة عند مخاصمة فرعون ، وطمأنينة من أمره ، فلا يعتريه شائبة دهش ولا تزلزل. والسيرة : فعلة من السير ، يجوز بها إلى الطريقة والهيئة ، وانتصابها على نزع الخافض.

ثم أراه معجزة أخرى ، فقال : وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ أي : أدخلها تحت عضدك ، فجناح الإنسان : جنباه ، مستعار من جناح الطير ، تَخْرُجْ بَيْضاءَ : جواب الأمر ، أي : إن أدخلتها تخرج بيضاء شعاعية ، مِنْ غَيْرِ سُوءٍ أي : حال كونها كائنة من غير عيب بها كبرص ونحوه. روى أنه عليه السّلام كان آدم اللون ، فأخرج يده من مدرعته بيضاء ، لها شعاع كشعاع الشمس ، تضيء حال كونها آيَةً أُخْرى أي : معجزة أخرى غير العصا ، لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى أي : فعلنا ما فعلنا ، لنريك بعض آياتنا العظمى ، أو : لنريك الكبرى من آياتنا. قال ابن عباس : «كانت يد موسى أكبر آياته». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يقال للفقير : وما تلك بيمينك أيها الفقير؟ فيقول : هى دنياى أعتمد عليها فى معاشى وقيام أمورى ، وأنفق منها على عيالى ، ولى فيها حوائج أخرى من الزينة والتصدق وفعل الخير ، فيقال له : ألقها من يدك أيها الفقير ، واخرج عنها ، أو أخرجها من قلبك إن تيسر ذلك مع الغيبة عنها ، فألقاها وخرج عنها ، فيلقيها ، فإذا هى حية كانت تلدغه وتسعى فى هلاكه وهو لا يشعر. فلما تمكن من اليقين ، وحصل على غاية التمكين ، قيل له : خذها ولا تخف منها ، حيث رفضت الأسباب ، وعرفت مسبب الأسباب ، فاستوى عندك وجودها وعدمها ، ومنعها وإعطاؤها ، سنعيدها سيرتها الأولى ، تأخذ منها مأربك ، وتخدمك ولا تخدمها. يقول الله تعالى : «يا دنياى ، اخدمي من خدمنى ، وأتبعى من خدمك» «١».

وأما قوله تعالى فى حديث آخر مرفوعا : «تمررى على أوليائى ولا تحلو لهم فتفتنهم عنى» «٢» فالمراد بالمرارة : ما يصيبهم من الأهوال والأمراض وتعب الأسفار ، وإيذاء الفجار وغير ذلك. وقد يلحقهم الفقر الظاهر شرفا لهم ، لقوله صلى اللّه عليه وسلم : «الفقر فخرى وبه أفتخر» «٣» ، أو كما قال عليه السّلام إن صح. وقال شيخنا البوزيدى رضي اللّه عنه :

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي فى تاريخه (٨/ ٤٤) عن ابن مسعود مرفوعا. وقال الشوكانى فى الفوائد (ص/ ٢٣٨) : «وفى إسناده الحسن بن داود والحديث موضوع». والحديث فى الإتحاف السنية

(٢٥٧) للديلمى مختصرا.

(٢) أخرجه البيهقي فى الشعب (ح ٩٨٠٠) بنحوه ومطولا عن قتادة بن النعمان ، وقال البيهقي : لم نكتبه إلا بهذا الإسناد ، وفيه مجاهيل. والحديث فى الاتحافات (٢٥٨) للديلمى.

(٣) قال القاري فى الأسرار المرفوعة (ص ٢٥٥ ، ح ٣٢٠) «قال الحافظ ابن حجر : «موضوع لا أصل له».

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٨٣

الحديث الأول : فى الصالحين المتوجهين من أهل الظاهر ، والثاني – يعنى تمرى .. إلخ – فى الأولياء العارفين من أهل الباطن. هـ. ويقال له أيضا – إن تجرد وألقى الدنيا من يده وقلبه : اضم يد فكرتك إلى قلبك ، تخرج بيضاء نورانية صافية ، لا تخليط فيها ولا نقص ، هى آية أخرى ، بعد آية التجريد والصبر على مشاقه.

وقال فى اللباب : اليد : يد الفكر ، والجيب : جيب الفهم ، وخروجها بيضاء بالعرفان. هـ. قال الورتجبي : أرى اللّه موسى من يده أكبر آية ، وذلك أنه ألبس أنوار يد قدرته يد موسى ، فكان يد موسى يد قدرة اللّه ، من حيث التخلق والاتصاف ، كما فى حديث : «كنت له سمعا وبصرا ولسانا ويدا». هـ. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر ابتداء رسالة موسى عليه السّلام ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٢٤ الى ٣٥]

اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (٢٤) قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)

وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (٢٩) هارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣)

وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً (٣٥)

قلت : (هارُونَ) : مفعول أول ، و(وَزِيراً) : مفعول ثان ، قدّم اعتناء بشأن الوزارة ، و(لِي) : صلة ، لا جعل ، أو متعلق بمحذوف حال من (وَزِيراً) لأنه صفة له فى الأصل. و(مِنْ أَهْلِي) : إما صفة وزيرا ، أو صلة لا جعل ، وقيل : إن (لِي وَزِيراً) : مفعولا اجعل ، و(هارُونَ) : عطف بيان لوزير. و(أَخِي) فى الوجهين : بدل من هارون ، أو عطف بيان آخر.

يقول الحق جل جلاله ، لنبيه موسى عليه السّلام : اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ بما رأيته من الآيات الكبرى.

وادعه إلى عبادتى وحدي ، وحذره من نقمتى ، إِنَّهُ طَغى أي : جاوز الحد فى التكبر والعتو والتجبر ، حتى تجاسر على دعوى الربوبية. قالَ موسى عليه السّلام مستعينا بربه عز وجل : رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي أي : وسعه حتى لا يضيق بحمل أعباء الرسالة ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي أي : سهّله حتى لا يصعب علىّ شيء أقصده. والجملة استئنافية بيانية ، كأن سائلا قال : فماذا قال عليه السّلام ، حين أمر بهذا الأمر الخطير والخطب العسير؟ فقيل : قال رب اشرح لى صدرى ... إلخ.

كأنه ، لما أمر بهذا الخطاب الجليل ، تضرع إلى ربه الجليل ، وأظهر عجزه وضعفه ، وسأل ربه تعالى أن يوسع صدره ، ويفسح قلبه ، ويجعله عليما بشؤون الناس وأحوالهم ، حليما صفوحا عنهم ، ليلتقى ما عسى أن يرد عليه من

(٣٨٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٨٤

الشدائد والمكاره ، بجميل الصبر وحسن الثبات ، فيلقاها بصدر فسيح ، وجأش رابط ، وأن يسهل عليه مع ذلك أمره ، الذي هو أجلّ الأمور وأعظمها ، وأصعب الخطوب وأهولها ، بتيسير الأسباب ورفع الموانع. وفى زيادة كلمة (لي) ، مع انتظام الكلام بدونها ، تأكيد لطلب الشرح والتيسير بإبهام المشروح والميسّر أولا ، ثم تفسيرهما ثانيا ، وفى تقديمهما وتكريرهما : إظهار مزيد اعتناء بشأن كل من المطلوبين ، وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما.

ثم قال : وَاحْلُلْ أي : امشط وافسح عُقْدَةً مِنْ لِسانِي ، روى أنه كان فى لسانه رتة من أثر جمرة أدخلها فاه فى صغره. وذلك أنه كان فى حجر فرعون ذات يوم ، فلطمه ونتف لحيته ، فقال فرعون لآسية امرأته : هذا عدو لى ، فقالت آسية : على رسلك ، إنه صبى لا يفرق بين الجمر والياقوت ، ثم جاءت بطستين فى أحدهما الجمر ، وفى الآخر الياقوت ، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار ، حتى رفع جمرة ووضعها على لسانه ، فبقيت له رتة فى لسانه ، واختلف فى زوال العقدة بكمالها فمن قال به تمسك بقوله تعالى : قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى ، ومن لم يقل به احتج بقول : هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً «١» ، وقوله تعالى : وَلا يَكادُ يُبِينُ «٢» وأجاب عن الأول : بأنه لم يسأل حلّ عقدة لسانه بالكلية ، بل حلّ عقدة تمنع الإفهام ، فخفف بعضها لدعائه ، لا جميعها ، ولذلك نكّرها ووصفها بقوله : مِنْ لِسانِي أي : عقدة كائنة من عقد لسانى ، يَفْقَهُوا قَوْلِي أي :

إن تحلل عقدة لسانى يفقهوا قولى.

وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً أي : معينا ومقويا مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي ليعيننى على تحمل ما كلفتنى به من أعباء التبليغ. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي أي : قّ به ظهرى ، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي واجعله شريكا لى فى أمر الرسالة ، حتى

نتعاون على أدائها كما ينبغى ، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ، هو غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة ، من قوله : (وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً ...) إلخ ، ولا شك أن الاجتماع على العبادة والذكر سبب فى دوامهما وتكثيرهما. وفى الحديث : «يد الله مع الجماعة» «٣» ، ولذلك ورد الترغيب فى الاجتماع على الذكر : والجمع فى الصلاة ليقوى الضعيف بالقوى ، والكسلان بالنشيط ، وقيل : المراد بكثرة التسبيح والذكر ما يكون منها فى تضاعيف أداء الرسالة ودعوة المردة العتاة ، لأنه هو الذي يختلف فى حالتى التعدد والانفراد ، فإن كلّا منهما يصدر منه ، بتأييد الآخر ، من إظهار الحق ، ما لا يصدر منه حال الانفراد. والأول أظهر.

وكَثِيراً : وصف لمصدر أو زمن محذوف ، أي : ننزهك عما لا يليق بجلالك وجمالك ، تنزيها كثيرا ، أو زمنا كثيرا ، ومن جملة ذلك : ما يدعيه فرعون الطاغية ، وتقبله منه الفئة الباغية من ادعاء الشرك فى الألوهية.

---

(١) من الآية ٣٤ من سورة القصص.

(٢) من الآية ٥٢ من سورة الزخرف.

(٣) أخرجه الترمذي فى (الفتن ، باب ما جاء فى لزوم الجماعة) ، من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه ، وقال الترمذي : حديث حسن.

وَنَذْكُرَكَ بأن نصفك بما يليق بك من صفات الكمال ، ذكرا كَثِيراً ، إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً أي : عالما بأحوالنا ، وبأن ما دعوناك به مما يصلحنا ويقوينا على ما كلفتنا من أداء الرسالة ، و(بِنا) : متعلق ببصيرا.

والله تعالى أعلم.

الإشارة : فإذا انخلعت أيها الفقير عن الكونين ، وألقيت عصاك بوادي البين ، فاذهب إلى فرعون نفسك ووجود حسك ، إنه طغى عليك ، حيث حجبك عن شهود ربك ، فلا حجاب بينك وبين ربك ، إلا حجاب نفسك ، ووقوفك مع شهود حسك ، فهو أكبر الفراعين فى حقك ، فاهدم وجوده ، وأغرق فى بحر الحقيقة شهوده ، وذلك بالغيبة عنه فى شهود مولاه ، فإذا تعسر الأمر عليك فاستعن بمولاك ، وقل : اللهم اشرح لى صدرى ، ووسعه لمعرفتك ، ويسر لى أمرى فى السير إلى حضرة قدسك ، واحلل عقدة الكون من قلبى ولسانى ، حتى لا أعقد إلا على محبتك ، ولا أتكلم إلا بذكرك وشكرك ،

كما قال الشاعر :

فإن تكلمت لم أنطق بغيركم وإن صمتّ فأنتم عقد إضمارى.

واجعل لى وزيرا من أهلى ، وهو شيخى ، أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، حتى يتوجه بكلية همته إلى سرى ، كى ننزهك تنزيها كثيرا ، بحيث لا نرى معك غيرك ، ونذكرك كثيرا ، بحيث لا نفتر عن ذكرك بالقلب أو الروح أو السر ، إنك كنت بنا بصيرا. قال الورتجبي : قوله تعالى : (اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ ..) إلخ ، لما علم موسى مراد الحق منه بمكابدة الأعداء ، والرجوع من المشاهدة إلى المجاهدة ، سأل من الحق شرح الصدر ، وإطلاق اللسان ، وتيسير الأمر ، ليطيق احتمال صحبة الأضداد ومكابدتهم. ثم قال : فطلب قوة الإلهية وتمكينا قادريا بقوله : (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي) ، عرف مكان مباشرة العبودية أنها حق الله ، وحق الله فى العبودية مقام امتحان ، وفى الامتحان حجاب عن مشاهدة الأصل ، فخاف من ذلك ، وسأل شرح الصدر ، أي : إذا كنت فى غين الشريعة عن مشاهدة غيب الحقيقة ، اشرح صدرى بنور وقائع المكاشفة ، حتى لا أكون محجوبا بها عنك. ألا ترى إلى سيد الأنبياء والأولياء صلوات الله عليه ، كيف أخبر عن ذلك الغين ، وشكى من صحبة الأضداد فى أداء الرسالة ، بقوله : «إنه ليغان على قلبى فاستغفر الله فى اليوم سبعين مرة» هـ. وفيه مقال «١» ، إذ هو غين أنوار لا غين أغيار ، فتأمله. والله تعالى أعلم.

ثم أجاب الحق جل جلاله سؤاله ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٣٦ الى ٤١]

قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى (٤٠)

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)

---

(١) بل فيه مقالات ، فالشريعة يستحيل أن تكون غينا ، والله تعالى يقول فيها ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها ويقول :

وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ... ويقول : وكذلك جعلناه نورا فشريعته روح ونور.

قلت : (مَرَّةً) : منصوب على الظرفية الزمانية ، وأصله : فعلة ، من المرور ، اسم للمرور الواحد ، ثم شاع فى كل فرد واحد من أفراد أمثاله ، ويقرب منها الكرة والرجعة. و(إِذْ) : ظرف لمننا ، و(أَنِ اقْذِفِيهِ) : مفسرة ، أو مصدرية ، و(يَأْخُذْهُ) : جواب «أن اقذفيه». و(لِتُصْنَعَ) : متعلق بألقيت ، عطف على علة مضمرة ، أي : ليتعطف عليك ولتربى على حفظى ورعايتى. و(إِذْ تَمْشِي) : ظرف (لِتُصْنَعَ) على أن المراد وقت مشيها إلى بيت فرعون ، وما يترتب عليه من القول والرجع إلى أمه.

يقول الحق جل جلاله : قالَ اللّه تعالى لموسى عليه السّلام : قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ أي : أعطيت مسؤولك ، وبلغنا لك مأمولك فى كل ما طلبت منا. والإيتاء ، هنا ، عبارة عن تعلق الإرادة بوقوع تلك المطالب وحصولها ، وإن كان وقوع بعضها مستقبلا ، ولذلك قال : سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ «١» ، وإعادة النداء فى قوله : يا مُوسى تشريفا له بتوجيه الخطاب بعد تشريفه بإجابة المطلب.

ثم ذكّره بنعمة أخرى قد سلفت ، فقال : وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى قبل أن يكون منك لنا طلب ، فكيف لا نجيبك بعد الطلب؟ وتلك المنة : إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ حين تحيرت فى أمرك ، وخافت عليك من عدوك ، فأوحينا إليها وحي منام أو إلهام أو بملك كريم – عليهما السلام – فقلنا لها : أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ أي : ضعيه فيه ، وأغلقى عليه حتى لا يصل الماء إليه ، فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ أي : ألقيه فى البحر بتابوته ، فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ أي : فسيرميه البحر بالساحل ، ولمّا كان إلقاء البحر له بالساحل أمرا واجب الوقوع لتعلق الإرادة الربانية به ، جعل البحر كأنه مأمور بإلقائه ، ذو تمييز ، مطيع ، فإن يلقه يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وهو فرعون. ولا تخافي عليه إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ «٢».

وتكرير عداوته والتصريح بها للإشعار بأن عداوته له ، مع تحققها ، لا تضره ، بل تؤدى إلى محبته ، لأن الأمر بما فيه الهلاك من القذف فى البحر ، ووقوعه فى يد العدو ، مشعر بأن هناك ألطافا خفية ، ومننا كامنة مندرجة تحت قهر صورى.

---

(١) من الآية ٣٥ من سورة القصص.

(٢) كما جاء فى الآية ٧ من سورة القصص.

وليس المراد بالساحل نفس الشاطئ ، بل ما يقابل الوسط ، وهو ما يلى الساحل من البحر ، حيث يجرى ماؤه إلى نهر فرعون ، لما روى أنها جعلت فى التابوت قطنا محلوجا ، ووضعته فيه ، ثم قيّرته

«١» وألقته فى اليم. وقيل : كان التابوت من البردي ، صنعته أمه. وقال مقاتل : صنعه لها رجل مؤمن اسمه «حزقيل» ، ثم طلته بالقار – أي : الزفت – وألقته فى اليم ، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير ، فدفعه الماء إليه ، فأتى به إلى بركة فى البستان ، وكان فرعون جالسا ثمّ مع آسية بنت مزاحم ، فأمر به فأخرج ، فإذا فيه صبى أصبح الناس وجها ، فأحبه فرعون حبا شديدا لا يكاد يتمالك الصبر عنه ، وذلك قوله تعالى : وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ، قال ابن عباس : «أحبه وحبّبه إلى خلقه». وقال قتادة : «ملاحة كانت فى عينى موسى ، ما رآه أحد إلّا عشقه» ، أي : وألقيت عليك محبة عظيمة كائنة منى ، قد زرعت فى القلوب ، بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك ، ولذلك أحبك عدو الله وأهله ، وذلك ليتعطف عليك.

وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي أي : ولتربّى بالحنو والشفقة ، وتغذى بمرأى منى ، مصحوبا برعايتى وحفظى ، فى أحسن تربية ونشأة. وكان ابتداء ذلك : إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ تتبع تابوتك ، فلما أخرجت التمسوا لك المراضع ، فَتَقُولُ لفرعون وآسية ، حين رأتهما يطلبان له مرضعة يقبل ثديها ، وكان لا يقبل ثديا. وصيغة المضارع فى الفعلين لحكاية الحال الماضية ، والأصل : إذ مشت فقالت : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ؟ يضمه إلى نفسه ويربيه ، وذلك إنما يكون بقبول ثديها. روى أنه فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاما فى النيل لا يرتضى ثدى امرأة ، واضطروا إلى تتبع النساء ، فخرجت أخته مريم لتتعرف خبره ، فجاءت متنكرة ، فقالت ما قالت ، وقالوا :

نعم ، فجاءت بأمه فقبل ثديها.

قال تعالى : فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ وفاء بعهدنا ، كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها بلقائك ، وَلا تَحْزَنَ أي : ولا يطرأ عليها حزن بفراقك بعد ذلك ، وَقَتَلْتَ بعد ذلك نَفْساً ، وهى نفس القبطي الذي استغاثه الإسرائيلى عليه. قال كعب : كان إذ ذاك ابن ثنتى عشرة سنة ، فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ أي : غم قتله ، خوفا من عقاب الله تعالى بالمغفرة ، ومن اقتصاص فرعون ، بوحينا إليك بالمهاجرة ، وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً أي : ابتليناك ابتلاء عظيما ، وخلصناك مرة بعد أخرى ، حتى صلحت للنبوة والرسالة ، وهو تحمل ما ناله فى سفره من الهجرة عن الوطن ، ومفارقة الأحباب ، والمشي راجلا ، وفقد الزاد ، بعد ما خلصه من الذبح ، ثم من البحر ، ثم من القصاص بالقتل.

وسئل عنها ابن عباس ، فقال : خلّصناك من محنة بعد محنة ، ولد فى عام كان يقتل فيه الغلمان ، فهذه فتنة ، وألقته

---

(١) أي : دهنته بالقار.

أمه فى البحر ، وهمّ فرعون بقتله ، وقتل قبطيا ، وأجّر نفسه عشر سنين ، وضل الطريق ، وتفرقت غنمه فى ليلة مظلمة ، فكل واحدة من هذه فتنة. هـ. لكن الذي يقتضيه النظم الكريم أن لا تعد إجارته نفسه وما بعدها من الفتون لأن المراد : ما وقع له قبل وصوله إلى مدين ، بدليل قوله تعالى : فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ، إذ لا ريب أن الإجارة وما بعدها كانت بعد وصوله إلى مدين ، أي : لبثت عشر سنين فى أهل مدين.

وقال وهب : لبث عند شعيب ثمانيا وعشرين سنة ، عشرا منها فى مهر امرأته صفراء بنت شعيب ، وثمانى عشرة أقام عنده حتى ولد له. وأشار باللبث فى مدين ، دون الوصول إليها ، إلى ما أصابه فى تضاعيفها ، من فنون الشدائد والمكاره ، التي كل واحدة منها فتنة. و«مَدْيَنَ» : بلدة شعيب عليه السّلام ، على ثمانى يمراحل من مصر ، ولم تبلغها مملكة فرعون ، خوفا على نفسه من هيبة النبوة أن يصيبه ما أصاب من خالفه.

ثُمَّ جِئْتَ إلى المكان الذي آنست فيه النار ، ورأيت فيه الخوارق ، وخصصت فيه بالرسالة ، عَلى قَدَرٍ قدرته لك فى الأزل ، ووقت عينته لك ، لأكلمك وأرسلك فيه إلى فرعون ، فما جئت إلا على ذلك القدر ، غير متقدم ولا متأخر ، وقيل : على مقدار من الزمان ، يوحى فيه إلى الأنبياء ، وهو رأس أربعين سنة. وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي أي : اختصصتك بالرسالة والمحبة والمناجاة ، وهو تذكير لقوله : وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ، وتمهيد لإرساله عليه السّلام إلى فرعون مؤيّدا بأخيه ، حسبما طلب ، بعد تذكيره المنن السالفة ، زيادة فى وثوقه عليه السّلام بحصول نظائرهم اللاحقة ، والعدول عن نون العظمة الواقعة فى قوله تعالى : وَفَتَنَّاكَ إلى تاء المتكلم لمناسبتها للنفس فإنها أدخل فى تحقيق الاصطناع والاستخلاص. والله تعالى أعلم.

الإشارة : قال قد أوتيت سؤلك أيها الفقير ، حيث وصلناك إلى من يأخذ بيدك ، ويرشدك إلى ربك ويربيك. ولقد منا عليك مرة أخرى ، حيث أنشأناك بين أبوين مسلمين ، فقذفناك فى تابوت الإسلام ، ثم فى نهر الإيمان ، ثم رميناك فى بحر العرفان ، وألقينا عليك محبة منا ، فأحببناك وأحببتنا ، وألقينا محبتك فى قلوب عبادنا ، فتربيت فى حفظنا ورعايتنا ، فلما فارقت الأوطان وهجرت الإخوان ، فى طلب تحقيق العرفان ، رددناك إليهم بعد التمكين ، لتنهضهم إلى الله ، فتقرّ أعينهم بطاعة رب العالمين ، وقتلت نفسا كانت تحجبك عن ربك ، فنجيناك من غم الحجاب ، وأخرجناك من سجن الأكوان ، إلى فضاء الشهود والعيان ، وفتناك بمجاهدة نفسك فتونا عظاما ، فتنة الفقر ، ثم فتنة الذل ، ثم فتنة هجر الأوطان ، حتى تخلصت من حبس الأكوان ، وجئت إلينا على قدر قدرناه لك ، ووقت عيناه لفتحك ، فاصطنعتك لنفسى ، واجتبيتك لحضرتى بسابق عنايتى ، من غير حول منك ولا قوة ، فعنايتنا فيك سابقة ، فأين كنت حين واجهتك عنايتنا ، وقابلتك رعايتنا؟ لم يكن فى أزلنا إخلاص أعمال ، ولا وجود أحوال ، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال ووجود النوال ، كما فى الحكم. وأنشدوا :

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٨٩

فلا عمل منّى إليك اكتسبته سوى محض فضل لا بشيء يعلّل

وقال آخر :

قد كنت أحسب أنّ وصلك يشترى بنفائس الأموال والأرباح

وظننت جهلا أنّ حبّك هيّن تفنى عليه كرائم الأرواح

حتّى رأيتك تجتبى وتخصّ من تختاره بلطائف الإمناح

فعلمت أنّك لا تنال بحيلة فلويت رأسى تحت طىّ جناح

وجعلت فى عشّ الغرام إقامتى أبدا وفيه توطنى ورواح

ثم أرسلهما الحق تعالى إلى فرعون ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٤٢ الى ٤٨]

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (٤٤) قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى (٤٥) قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى (٤٦)

فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)

يقول الحق جل جلاله لسيدنا موسى عليه السّلام : اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ أي : ليذهب معك أخوك بِآياتِي : بمعجزاتى التي أريتكها ، من اليد والعصا ، فإنهما وإن كانتا اثنتين ، لكن فى كل واحدة منهما آيات ، فإنّ فى انقلاب العصا حيوانا : آية ، وكونها ثعبانا عظيما : آية ، وسرعة حركته ، مع عظم جرمه : آية ، وكذلك اليد فإنّ بياضها فى نفسه آية ، وشعاعها آية ، ثم رجوعها إلى حالتها الأولى آية. والباء للمصاحبة ، أي : اذهبا مصحوبين بمعجزاتنا ، مستمسكين بها ، وَلا تَنِيا : لا تفترا ولا تقصرا فِي ذِكْرِي عند تبليغ رسالتى ، ولا يشغلكما معاناة التبليغ عن ذكرى ، بما يليق بحالكما من ذكر لسان أو تفكر أو شهود ، فلا تغيبا عن مشاهدتى باشتغالكما بأمرى ، حتى لا تكونا فاترين فى عينى.

اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى : تجبر وعلا. ولم يكن هارون حاضرا وقت هذا الوحى ، وإنما جمعهما تغليبا.

روى أنه أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى – عليهما السلام ، وقيل : سمع بإقباله فتلقاه.

فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لأنّ تليين القول مما يكسر ثورة عناد العتاة ، ويلين عريكة الطغاة. قال ابن عباس : أي : لا تعنفا فى قولكما. وقيل : القول اللين : هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى .. إلخ ، ويعارضه قوله بعد : فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ وقيل : كنّياه ، وكان له ثلاثة كنى : أبو العباس ، وأبو الوليد ، وأبو مرة. وقيل : عداه على قبول الإيمان شبابا لا يهرم ، وملكا لا ينزع منه إلا بالموت ، وتبقى عليه لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى الموت ، . وقيل : اللطافة فى القول فإنه رباك وأحسن تربيتك ، وله عليك حق الأبوة ، لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ بما بلغتماه من ذكر ، ويرغب فيما رغبتماه فيه ، أَوْ يَخْشى عقابى.

ومحل الجملة : النصب على الحال من ضمير التثنية ، أي : فقولا له قولا لينا ، راجيين تذكرته ، أي : باشرا وعظه مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر علمه ولا يخيب سعيه. وفائدة هذا الإبهام : الحثّ على المبالغة فى وعظه. هذا جواب سيبويه عن الإشكال ، وهو أنه تعالى علم أنه لا يؤمن ، وقال : لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ، فصرف الرجاء إلى موسى وهارون ، أي : اذهبا على رجائكما. وقال الوراق : قد تذكّر حين ألجمه الغرق. وقال الزجاج : خاطبهم بما يعقلون.

قلت : كونه تعالى علم أنه لا يؤمن هو من أسرار القدر الذي لا يكشف فى هذه الدار ، وهو من أسرار الحقيقة ، وإنما بعثت الرسل بإظهار الشرائع ، فخاطبهم الحق تعالى بما يناسب التبليغ فى عالم الحكمة ، والله تعالى أعلم. وجدوى إرسالهما إليه ، مع العلم بإحالته ، إلزام الحجة وقطع المعذرة.

قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أي : يعجل علينا بالعقوبة ، ولا يصبر إلى تمام الدعوة وإظهار المعجزة. وهو من «فرط» إذا تقدم ، ومنه : الفارط ، للوليد الذي مات صغيرا. وقرئ بضم الياء ، من «أفرط» إذا حمله على العجلة ، أي : نخاف أن يحمله حامل من الاستكبار والخوف على الملك أو غيرهما ، على المعاجلة والعقاب ، أَوْ أَنْ يَطْغى يزداد طغيانا ، كأن يقول فى شأنك مالا ينبغى ، لكمال جرأته وقساوته ، وإظهار «أَنْ» لإظهار كمال الاعتناء بالأمر ، والإشعار بتحقيق الخوف من كل منهما ، وهذا القول يحتمل أن يكون قاله موسى ودخل هارون بالتبع ، إيذانا بأصالة موسى عليه السّلام فى كل قول وفعل ، وتبعية هارون عليه السّلام ، أو يكون هارون قال ذلك بعد تلاقيهما ، فحكى الله قولهما عند نزول الآية ، كما فى قوله تعالى : يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ «١» ، فإن هذا الخطاب قد حكى لنا بصيغة الجمع ، مع أن كلا من المخاطبين لم يخاطب إلا بطريق الانفراد لاستحالة جمعهم فى الوجود ، فكيف باجتماعهم فى الخطاب؟.

---

(١) من الآية ٥١ من سورة «المؤمنون».

قالَ تعالى لهما : لا تَخافا ، وهو استئناف بيانى ، كأن قائلا قال : فماذا قال لهما ربهما عند تضرعهما إليه؟ فقيل : قال : لا تخافا ما توهمتما من الأمرين ، إِنَّنِي مَعَكُما بحفظي ورعايتى ونصرى ومعونتى ، أَسْمَعُ وَأَرى ما يجرى بينكما وبينه من قول وفعل ، فأفعل فى كل حال ما يليق بها من دفع ضر وشر ، وجلب نفع وخير.

فَأْتِياهُ ، أمر بإتيانه ، الذي هو عبارة عن الوصول إليه ، بعد ما أمر بالذهاب إليه ، فلا تكرار ، فَقُولا له : إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ إليك ، أمر بذلك من أول الأمر ، ليعرف الطاغية شأنهما ، ويبنى جوابه على ذلك ، فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ أي : أطلقهم من الأسر والقهر ، وأخرجهم من تحت يدك العادية. وليس المراد إرسالهم معه إلى الشام ، بدليل قوله : وَلا تُعَذِّبْهُمْ بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب ، فإنهم كانوا تحت مملكة القبط ، يستخدمونهم فى الأعمال الصعبة ، من الحفر ونقل الأحجار ، وضرب اللبن والطين ، وبناء المدائن ، وغير ذلك من الأعمال الشاقة ، ويقتلون ذكور أولادهم عاما دون عام ، فكانت رسالة موسى إلى فرعون بالإيمان بالله وحده ، وتسريح بنى إسرائيل. روى أنه لمّا رغبه فى الإيمان بذكر ما أعد الله لأهله من الخلود فى الجنة والملك الدائم ، أعجبه ، فقال : حتى أستشير هامان ، وكان غائبا ، فقدم ، فأخبره ، فقال هامان : قد كنت أرى لك عقلا ، بينما أنت رب تصير مربوبا ، وبينما أنت تعبد تصير تعبد غيرك ، فغلبه على رأيه.

فقال له موسى : قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، قال فرعون : وما هى؟ فأدخل يده فى جيب قميصه ثم أخرجها بيضاء ، لها شعاع كشعاع الشمس ، فعجب منها ، ولم يره العصا إلا بعد ذلك ، يوم الزينة. قاله الثعلبي. قلت : والذي يظهر من سورة الشعراء «١» – بل هو صريح فيها – أنه أراه العصا واليد. وإنما أفردت فى اللفظ ، هنا لأن المراد اثبات الحجة بصحة الرسالة ، لا تعدد الآية ، وكذلك قوله تعالى : قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ «٢» ، أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ «٣» ، وأما قوله تعالى : فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ «٤» فالظاهر أن المراد بها آية من الآيات.

ثم قال له : وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى أي : وسلام الله وملائكته والمؤمنين المقتضى سلامة الدارين ، على من اتبع الهدى ، بتصديق آيات اللّه تعالى الهادية إلى الحق ، دون من اتبع الغى والهوى ، وفيه من الترغيب ،

---

(١) فى قوله تعالى : قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ. قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ. الشعراء : ٣٠ – ٣٣. [.....]

(٢) من الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

(٣) من الآية ٣٠ من سورة الشعراء.
(٤) من الآية ١٠٦ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٩٢
فى اتباعها على ألطف وجه ، مالا يخفى. إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا من جهة ربنا ، أَنَّ الْعَذابَ الدنيوي والأخروى عَلى مَنْ كَذَّبَ بآيات اللّه وَتَوَلَّى أي : أعرض عن قبولها ، وفيه من التلطف فى الوعيد حيث لم يصرح بحلول العذاب به مالا مزيد عليه. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : ينبغى لأهل العلم ولأهل الوعظ والتذكير أن يتعاونوا على نشر العلم ووعظ العباد ، ويتوجهوا إليهم فى أقطار البلاد ، فإن ذلك فرض كفاية على أهل العلم ، ولا يشغلهم نشر العلم عن ذكر اللّه ، ولا تذكير العباد عن شهود الله ، كما قال الله تعالى : وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي أي : ولا تغفلا عن شهودى وقت إرشاد عبادى ، فإن توجهوا إلى الجبابرة والفراعنة فليلينوا لهم المقال ، وليدعوهم إلى أسهل الخلال ، فإن ذلك أدعى إلى الامتثال ، خلافا لمن قال هذه ملة موسوية ، وأما الملة المحمدية فقال تعالى فيها : وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ «١» فإنّ بيان الحق لا ينافى أن يكون بملاطفة وإحسان ، فإن خاف الواعظ من صولة المتجبر فإن الله معه ، يحفظه ويرعاه ، ويسمعه ويراه ، فإن لم يسمع لقوله ولم يتعظ لوعظه ، فقد بلغ ما عليه ، وليقل بلسان الحال أو المقال : (و السلام على من اتبع الهدى). وبالله التوفيق.
ثم ذكر جواب فرعون ، فقال :
[سورة طه (٢٠) : الآيات ٤٩ الى ٥٥]
قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى (٤٩) قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى (٥٠) قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى (٥١) قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (٥٤) مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى (٥٥)
قلت : (خَلْقَهُ) : يحتمل أن يكون اسما بمعنى المخلوق ، فيكون مفعولا أولا ، و(كُلَّ شَيْ ءٍ) : مفعولا ثانيا ، أو يكون مصدرا بمعنى الخلقة ، فيكون مفعولا ثانيا ، أي : أعطى كل شىء خلقته وصورته التي هو عليها.
يقول الحق جل جلاله : قالَ فرعون فى جواب موسى ، لما أتاه مع أخيه وبلغا الرسالة ، وقالا له ما

أمرهما به ربهما ، وإنما حذفه للإيجاز ، وللإشعار بأنهما لما أمرا بذلك سارعا إلى الامتثال من غير تلعثم ، أو بأن

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.

ذلك من الظهور بحيث لا حاجة إلى التصريح به ، فقال لهما فرعون : فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى ؟ لم يضف الرب إلى نفسه لغاية عتوه وطغيانه ، بل أضافه إليهما ، وفى الشعراء : وَما رَبُّ الْعالَمِينَ «١» ، والجمع بينهما تعدد الدعوة ، ففى كل مرة حكى لنا ما قال. وتخصيص النداء بموسى ، مع توجيه الخطاب إليهما لأنه الأصل فى الرسالة ، وهارون وزيره.

قالَ موسى عليه السّلام مجيبا له : رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ أي : ربنا هو الذي أعطى كل شىء خلقه ، أي : مخلوقاته مما يحتاجون إليه ويرتفقون به فى قوام أبدانهم ومعايشهم ، أو اعطى كل شىء خلقته وصورته التي يختص بها ، ولم يجعل خلق الإنسان فى خلق البهائم ، ولا خلق البهائم فى خلق الإنسان. ولكن خلق كل شىء فقدره تقديرا. أو أعطى كل شىء فعله وتصرفه ، فاليد للبطش ، والرجل للمشى ، واللسان للنطق ، والعين للنظر ، والأذن للسمع ، أو أعطى كل شىء شكله من جنسه ، للإنسان زوجة ، وللبعير ناقة ، وللفرس رمكة ، وللحمار أتانا. ثُمَّ هَدى إلى طريق الانتفاع والارتقاء ، بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله ، فألهمه الرضاع والأكل والشرب والجماع ، وطلب الرعي وتوقى المهالك ، وكيف يأتى الذكر الأنثى.

ولمّا كان الخلق – الذي هو عبارة عن تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام – مقدما على الهداية ، التي هى عبارة عن إيداع القوى المحركة والمدركة فى تلك الأجسام ، عطف بثم المفيدة للتراخى. ولقد ساق عليه السّلام جوابه على نمط رائق ، وأسلوب لائق حيث بيّن أنه تعالى عالم قادر بالذات ، خالق لجميع الكائنات ، منعم عليهم بجميع النعم السابغات ، هاد لهم إلى طرق المرتفقات.

قالَ فرعون : فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى أي : ما حالها بعد الموت ، وما فعل الله بها؟ فقال له موسى : هذا غيب لا يعلمه إلا الله ، وهو معنى قوله : عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي ، أو ما حال القرون الماضية والأمم الخالية ، وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة؟ فأجابه عليه السّلام بأن العلم بأحوالهم مفصلة مما لا ملامسة له بمنصب الرسالة ، وإنما علمها عند الله عز وجل. وكأنّ عدو الله ، لما خاف أن يبهت ، ويفتضح ، ويظهر للناس حجة موسى عليه السّلام ، أراد أن يصرفه عليه السّلام إلى مالا يعنى ، من ذكر

الحكايات التي لا مسيس لها بمنصب الرسالة فلذلك أعرض عنه ، وقالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي ، وهذا أحسن من الأول لأنه لو كان سؤاله عن أحوالها بعد الموت لأمكن أن يقول له :
من اتبع الهدى منهم فقد سلم وتنعم ، ومن تولى فقد عذب وتألّم ، حسبما نطق به قوله تعالى :
وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى . وقيل : فما بالها لم تبعث كما يزعم موسى ، أو : ما بالها لم تكن على دينك ، أو : ما بالها كذبت ولم يصبها عذاب ، وكلها بعيدة.

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الشعراء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٩٤
قلت : والذي يظهر أن الطاغية فهم قوله تعالى : ثُمَّ هَدى أي : إلى الإيمان ، فاعترض بقوله : فما بال القرون الأولى لم تؤمن حتى هلكت؟ فأجابه موسى عليه السّلام بقوله : عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي ، فهو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى. وقوله : فِي كِتابٍ أي : اللوح المحفوظ ، فقد أثبتت فيه بتفاصيلها ، ويجوز أن يكون ذلك عبارة عن تمكنه وتقريره فى علم الله – عز وجل – تمكن من استحفظ الشيء ، وقيده بالكتابة ، كما يلوح به قوله تعالى : لا يَضِلُّ رَبِّي أي : لا يخطئ ابتداء ، وَلا يَنْسى فيتذكر. وفيه تنبيه على أن كتابته فى اللوح المحفوظ ليس لحاجته إليه فى العلم به ابتداء أو بقاءا. وإظهار (رَبِّي) فى موضع الإضمار ، للتلذذ بذكره ، وللإشعار بعلّية الحكم فإن الربوبية مما تقتضى عدم الضلال والنسيان.
ولقد أجاب عليه السّلام عن السؤال بجواب عبقرى بديع ، حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها ، مع أنه لم يخرج عما كان بصدده من بيان شئونه تعالى ، ووصف الحق تعالى بأوصاف لا يمكن عدو الله أن يتصف بشيء منها ، لا حقيقة ولا مجازا ، ولو قال له : هو الخالق الرازق ، وشبه ذلك ، لأمكن أن يغالط ويدعى ذلك لنفسه.
ثم تخلص إليه حيث قال ، بطريق الحكاية عن الله عز وجل ، أو من كلامه عليه السّلام : الذى جعل لكم الأرض مهادا «١» أي : كالمهد تتمهدونها بالسكن والقرار ، أي : جعل كل موضع منها مهدا لكل واحد منكم. وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا أي : طرقا تتوصلون بها من قطر إلى قطر ، لتقضوا منها مآربكم ، وتنتفعوا بمرافقها ومنافعها ، ووسطها بين الجبال والأودية لتعرف أمارات سبلها. وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً هو المطر ، فَأَخْرَجْنا بِهِ ، يحتمل أن يكون من كلام الله ، وما قبله من كلام موسى ، أو كله من كلام الله تعالى ، حكاه موسى عليه السّلام ، وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على

كمال القدرة والحكمة ، والإيذان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مطاع عظيم الشأن ، أي : فأخرجنا بذلك الماء أَزْواجاً : أصنافا ، سميت أزواجا لازدواجها ، واقتران بعضها ببعض ، كائنة مِنْ نَباتٍ شَتَّى : متفرقة ، جمع شتيت : أي : متفرق ، وهو ، فى الأصل ، مصدر ، يستوى فيه الواحد والجمع ، يعنى : أنها مختلفة فى الشكل واللون والطعم والرائحة والنفع ، وبعضها صالح للناس على اختلاف صلاحها لهم ، وبعضها للبهائم.

ومن تمام نعمته تعالى أن أرزاق عباده ، لمّا كان تحصيلها بعمل الأنعام ، جعل علفها مما يفضل عن حاجتهم ، ولا يليق بكونه طعاما لهم ، وهو معنى قوله : كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ ، والجملة : حال ، على إرادة القول ، أي : أخرجنا منها أصناف النبات ، قائلين : كلوا وارعوا أنعامكم ، آذنين فى ذلك لكم.

---

(١) قرأ عاصم وحمزه والكسائي : (مهدا). وقرأ باقى السبعة : «مهادا» : انظر الإتحاف (٢/ ٢٤٧).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٩٥

إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور ، من شئونه تعالى ، وأفعاله وأنعامه ، لَآياتٍ جليلة واضحة الدلالة على عظيم شأنه تعالى ، فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وعلى صحة نبوة موسى وهارون – عليهما السلام ، لِأُولِي النُّهى أي : العقول الصافية ، جمع «نهية» ، سمى بها العقل ، لنهيه عن اتباع الباطل ، وارتكاب القبيح ، أي : لذوى العقول الناهية عن الأباطيل ، التي من جملتها ما يدعيه الطاغية وما يقبله منه الفئة الباغية.

وتخصيص كونها آيات لهم ، مع أنها آية للعالمين لأنهم المنتفعون بها.

مِنْها خَلَقْناكُمْ أي : من الأرض الممهدة لكم ، خلقناكم بخلق أبيكم آدم عليه السّلام ، وأنتم فى ضمنه ، إذ لم تكن فطرته مقصورة على نفسه عليه السّلام ، بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس ، انطواء إجماليا ، فكان خلقه عليه السّلام منها خلقا لكل منها ، وقيل : خلقت أبدانكم من النطفة المتولدة من الأغذية المتولدة من الأرض. وقال عطاء : إن الملك الموكل بالرحم ينطلق ، فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه العبد ، فيذره على النطفة ، فتخلق من التراب ومن النطفة. هـ.

وَفِيها نُعِيدُكُمْ بالإماتة وتفريق الأجزاء ، والكلام على الأشباح دون الأرواح ، فإنها ، بعد السؤال ، تصعد إلى السماء ، كما يأتى عند قوله تعالى : فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ... «١» الآية. ولم يقل : وإليها نعيدكم إشارة إلى استقرار العبد فيها ، وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى بتأليف أجزائكم المتفتتة ، المختلطة بالتراب ، على الهيئة السابقة ، ورد الأرواح إليها. وكون هذا الإخراج تارة أخرى : باعتبار أن خلقهم من الأرض إخراج لهم منها ، وإن لم يكن على التارة الثانية. والتارة فى الأصل : اسم للتور ، وهو الجريان

، فالتارة واحدة منه ، ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتحدة ، كما مر فى المرة. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ، مما سبق لهم فى أزله ، ثم هدى إلى الأسباب الموصلة إليه ، فمنهم من كان حظه فى الأزل قوت الأشباح ، هداه إلى أسبابها ، وهم أهل مقام البعد ، ومنهم من كان حظه قوت القلوب ، فهداه إلى أسبابها من المجاهدة فى الطاعات وأنواع القربات ، وهم أنواع : فمنهم من شغلهم بتدريس العلوم وتدقيق الفهوم ، وتحرير المسائل وتمهيد النوازل ، وهداهم إلى أسباب ذلك ، وهم حملة الشريعة ، إن صحت نيتهم وثبت إخلاصهم. ومنهم من شغلهم بتوالي الطاعات وتعمير الأوقات ، وهداهم إلى أسبابها ، وقواهم على مشاقها ، وهم العباد والزهاد. ومنهم من شغلهم بإطعام الطعام والرفق بالأنام ، وتعمير الزوايا وقبول الهدايا ، وهداهم إلى أسباب عمارتها والقيام بها ، وهم الصالحون. ومنهم : من كان حظه قوت الأرواح ، وهم المريدون السائرون ، أهل الرياضة والتصفية ، والتخلية والتحلية ، والتهذيب والتدريب ، وهداهم إلى أسبابها ، ووصلهم

---

(١) الآية ٨٨ من سورة الواقعة.

إلى شيخ كامل يبينها ويسلّكها ، وهم فى ذلك مقامات متفاوتة ، على حسب صدقهم وجدهم ، ومنهم من كان حظه قوت الأسرار ، وهم العارفون الكبار ، السابقون المقربون ، أهل الفناء والبقاء ، أهل الرسوخ والتمكين ، فهداهم إلى ما أمّلوا ، ووصلهم إلى ما طلبوا. نفعنا الله بهم ، وخرطنا فى سلكهم. آمين.

وقوله : فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى ... الآية ، فيه زجر للمريد عن الاشتغال بالحكايات الماضية ، لأن فى ذلك شغلا عن الله ، إلا ما كان فيه زيادة إلى الله ، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم.

وقوله تعالى :

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً أي : جعل أرض النفوس مهادا للقيام برسم العبودية ، وسلك فيها سبلا توصل إلى مشاهدة الربوبية ، لمن سلكها بالرياضة والمجاهدة ، وأنزل من سماء الملكوت ماء الواردات الإلهية ، تحيا به الأرواح ، فتخرج أصنافا من العلوم والحكم شتى ، كلوا برعى القلوب فى نوار تجلياتها ، وارعوا لقوت أشباحكم من ثمار حسياتها ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى. (مِنْها خَلَقْناكُمْ) : من أرض نفوسكم أخرجناكم ، بشهود عظمة الربوبية ، وفيها نعيدكم للقيام برسم العبودية ، ومنها نخرجكم

لتكونوا لله ، لا لشيء دونه. أو منها خلقناكم ، أي :
أخرجناكم من شهود ظلمتها إلى نور خالقها ، بالفناء عنها ، وفيها نعيدكم بالرجوع إلى الأثر فى مقام البقاء ، (و منها نخرجكم تارة أخرى) بعقد الحرية فى مقام البقاء ، فتكونوا عبيدا شكّرا. وبالله التوفيق.
ثم إن فرعون لم تنفعه هذه الموعظة ، ولا ما رأى من الآيات الباهرة ، حتى طلب المعارضة ، كما أبان ذلك الحق سبحانه بقوله :
[سورة طه (٢٠) : الآيات ٥٦ الى ٥٩]
وَلَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَأَبى (٥٦) قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً (٥٨) قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)
قلت : (مَوْعِداً) : مصدر ، مفعول أول ل (فَاجْعَلْ). و(مَكاناً) : مفعول بفعل محذوف ، أي : تعدنا مكانا سوى ، لا بموعد لأنه وصف ، ويجوز نصبه على إسقاط الخافض ، و(يَوْمُ الزِّينَةِ) : على حذف مضاف ، أي : مكان يوم الزينة ، و(أَنْ يُحْشَرَ) : عطف على يوم ، أو الزينة.
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَرَيْناهُ أي : فرعون ، آياتِنا ، حين قال له : فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ «١» ، وعبّر بالجمع ، مع

---

(١) الآيات : ٣١ – ٣٣ من سورة الشعراء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٩٧
كونهما اثنتين ، باعتبار ما فى تضاعيفهما من الخوارق ، التي كل واحدة منها آية. وقد رأى فرعون من هاتين الآيتين أمورا دواهى ، فإنه روى أنه عليه السّلام ، لما ألقى العصا ، انقلبت ثعبانا أشعر ، فاغرافاه ، بين لحييه ثمانون ذراعا ، وضع لحيه الأسفل على الأرض ، والأعلى على سور القصر ، ثم توجه نحو فرعون ، فهرب وأحدث ، وانهزم الناس مزدحمين ، فمات منهم خمسة وعشرون ألفا من قومه ، فصاح فرعون : يا موسى أنشدك الذي أرسلك إلا أخذته ، فأخذه ، فعاد عصا. وروى أنها ، لما انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ، ثم انحطت مقبلة نحو فرعون ، وجعلت تقول : يا موسى مرنى بما شئت ، ويقول فرعون : أنشدك .. إلخ. ونزع يده من جيبه ، فإذا هى بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن العادة.
ففى تضاعيف كلّ من الآيتين آيات جمة ، لكنها لما كانت غير مذكورة بالصراحة ، أكدت بقوله تعالى : كُلَّها ، كأنه قيل : أريناه آياتنا بجميع مستتبعاتها وتفاصيلها ، قصدا إلى بيان أنه لم يبق له فى ذلك

عذر.

وقيل : أريناه آياتنا التسع ، وهو بعيد لأنها إنما ظهرت على يده عليه السّلام بعد ما غلبت السحرة على مهل ، فى نحو من عشرين سنة ، والكلام هنا قبل المعارضة ، اللهم إلا أن يكون الحق تعالى أخبرنا أنه أراه الآيات التسع كلها ، فأبى عن الإيمان ، ثم رجع إلى إتمام القصة.

وأبعد منه : من عدّ فى الآيات ما جعل لإهلاكهم ، لا لإرشادهم إلى الإيمان من فلق البحر ، وما ظهر بعد مهلكه من الآيات الظاهرة لبنى إسرائيل من نتق الجبل والحجر ، وغير ذلك ، وكذلك من عدّ منها الآيات الظاهرة على يد الأنبياء – عليهم السلام – حيث حكاها موسى عليه السّلام لفرعون ، بناء على أن حكايته إياها له فى حكم إظهارها بين يديه لاستحالة الكذب عليه ، فإنّ حكايته إياها لفرعون مما لم يجر ذكره هنا ، فكل هذا بعيد من سياق النظم الكريم.

قال تعالى : فَكَذَّبَ فرعون موسى ، وَأَبى الإيمان والطاعة ، مع ما شاهد على يده من الشواهد الناطقة بصدقه. جحودا وعنادا لعتوه واستكباره ، وقيل : كذّب بالآيات جميعا ، وأبى أن يقبل شيئا منها.

قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى ، هذا استئناف مبين لكيفية تكذيبه وإبائه. والمجيء إما على حقيقته ، أو بمعنى الإقبال على الأمر والتصدي له ، أي : أجئتنا من مكانك الذي كنت فيه ترعى الغنم لتخرجنا من أرضنا؟ أو : أقبلت إلينا لتخرجنا من مصر بما أظهرت لنا من السحر ، فإن ذلك مما لا يصدر عن عاقل لكونه من باب محاولة المحال ، وإنما قاله تحريضا لقومه على مقت موسى والبعد عنه ، بإظهار أن مراده عليه السّلام إخراج القبط من وطنهم ، وحيازة أموالهم ، وإهلاكهم بالكلية ، حتى لا يميل أحد إليه ، (و الله غالب على أمره). وسمى ما أظهره عليه السّلام من المعجزة الباهرة سحرا ، ثم ادعى أنه يعارضه ، حيث قال : فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ أي : وإذا كان الأمر كذلك ، فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك ، فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً أي :

وعدا لا نُخْلِفُهُ أي : لا نخلف ذلك الوعد ، ولا نجاوزه نَحْنُ وَلا أَنْتَ ، بل نجتمع فيه وقت ذلك الموعد ،

(٣٩٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٩٨

وإنما فوض اللعين أمر الوعد إلى موسى عليه السّلام للاحتراز عن نسبته إلى ضعف القلب ودخول الرعب إليه ، وإظهار الجلادة ، بإظهار أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة ، طال الأمر أو قصر ، كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه السّلام ، وتوسيط كلمة «النفي» بينهما للإيذان بمسارعته إلى عدم الاختلاف.

وقوله تعالى : مَكاناً سُوىً أي : يكون ذلك الوعد – أي : وعد الاجتماع – فى مكان مستو ، تستوى مسافته بيننا وبينك ، عدلا ، لا ظلم على أحد فى الإتيان إليه ، منا ومنك ، وفيه لغتان : ضم السين وكسرها.

قالَ لهم موسى عليه السّلام : مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ أي : مكان الزينة لأن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه فى ذلك اليوم ، وهو يوم عيد لهم ، فى كل عام يتزينون ويجتمعون فيه ، وقيل : يوم النيروز ، . وقيل : يوم عاشوراء ، وقيل : يوم سوق لهم. وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى أي : موعدكم يوم الزينة ، وحشر الناس ضحى ، أو يوم حشر الناس فى وقت الضحى ، يجتمعون نهارا جهارا ، أراد عليه السّلام أن يكون أبلغ فى إظهار الحجة وإدحاض الباطل ، بكونه على رؤوس الأشهاد. والله تعالى أعلم.

الإشارة : من سبق له البعد عن الرحمن ، لا ينفع فيه خوارق معجزات ، ولا قاطع برهان ودليل ، أبعده التكبر والطغيان ، ودفع الحق بالباطل. نعوذ بالله من موارد الخذلان.

ثم ذكر جمعهم ، وما كان من شأنهم ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٦٠ الى ٦٩]

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى (٦٠) قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى (٦١) فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوى (٦٢) قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى (٦٤)

قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى (٦٥) قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (٦٧) قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (٦٨) وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى (٦٩)

قلت : (إِنْ هذانِ لَساحِرانِ) : من خفّف (إِنْ) : جعلها نافية ، أو مخففة ، واللام فارقة. ومن ثقّلها وقرأها :

(هذانِ) بالألف ، فقيل : على لغة بلحارث بن كعب وخثعم وكنانة ، فإنهم يلزمون الألف رفعا ونصبا وجرا ، ويعربونها تقديرا ، وقيل : اسمها : ضمير الشأن ، أي : إنه الأمر والشأن هاذان لهما ساحران. وقيل : «إن» بمعنى «نعم» ، لا تعمل ، وما بعدها : جملة من مبتدأ وخبر. وقالت عائشة – رضي اللّه

عنها – : إنه خطأ من الكتاب ، مثل قوله :

وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ «١» ، وَالصَّابِئُونَ «٢» ، فى المائدة ، ويرده تواتر القراءة.

يقول الحق جل جلاله : فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ أي : انصرف عن المجلس ، ورجع إلى وطنه ، فَجَمَعَ كَيْدَهُ أي : حيله وسحرته ليكيد به موسى عليه السّلام ، ثُمَّ أَتى الموعد ، ومعه ما جمعه من كيده وسحرته ، وسيأتى عددهم.

قالَ لَهُمْ مُوسى ، حيث اجتمعوا من طريق النصيحة : وَيْلَكُمْ أي : ألزمكم الله الويل ، إن افتريتم على الله الكذب ، لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً بإشراك أحد معه ، كما تعتقدون فى فرعون ، أو بأن تحيلوا الباطل حقا ، فَيُسْحِتَكُمْ أي : يستأصلكم ، بسببه ، بِعَذابٍ لا يقادر قدره ، وقرئ رباعيا وثلاثيا ، يقال : سحت وأسحت.

فالثلاثى : لغة أهل الحجاز ، والرباعي : لغة بنى تميم ونجد. وَقَدْ خابَ وخسر مَنِ افْتَرى على الله ، كائنا من كان ، بأى وجه كان ، فيدخل الافتراء المنهي عنه دخولا أوليا ، أو : قد خاب فرعون المفترى على الله ، فلا تكونوا مثله فى الخيبة.

فَتَنازَعُوا أي : السحرة ، حين سمعوا كلامه عليه السّلام ، أَمْرَهُمْ أي : فى أمرهم الذي أريد منهم من مغالبته عليه السّلام ، وتشاوروا وتناظروا بَيْنَهُمْ فى كيفية المعارضة ، وتشاجروا ، ورددوا القول فى ذلك ، وَأَسَرُّوا النَّجْوى أي : من موسى عليه السّلام لئلا يقف عليه فيدافعه ، ونجواهم على هذا هو قوله : قالُوا إِنْ هذانِ أي :

موسى وهارون ، لَساحِرانِ عظيمان يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ مصر ، بالاستيلاء عليها بِسِحْرِهِما الذي أظهره قبل ، وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى أي : بمذهبكم ، الذي هو أفضل المذاهب وأمثلها ، بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما.

قال ابن عطية : والأظهر ، فى الطريقة هنا ، أنه السيرة والمملكة. والمثلى : تأنيث الأمثل ، أي : الفاضلة الحسنة. هـ. وقيل : الطريقة هنا : اسم لوجوه القوم وأشرافهم ، لأنهم قدوة لغيرهم ، والمعنى : يريدان أن يصرفا وجوه الناس وأشرافهم إليهما ، ويبطلان ما أنتم عليه. وقال قتادة : (طريقتهم المثلى يومئذ : بنو إسرائيل ، كانوا أكثر القوم

---

(١) من الآية ١٦٢ من سورة النساء.

(٢) من الآية ٦٩ من سورة المائدة. وللألوسى – رحمه اللّه – كلام طيب فى هذه القضية ، راجعه فى تفسيره (١٦/ ٢٢٤).

عددا وأموالا ، فقال فرعون : إنما يريدان أن يذهبا به لأنفسهما). ولا شك أن حمل الإخراج على إخراج بنى إسرائيل من بينهم ، مع بقاء قوم فرعون على حالهم آمنين فى ديارهم : بعيد ، مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله.

وقوله تعالى : فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ : تصريح بالمطلوب ، أي : إذا كان الأمر كما ذكر ، من كونهما ساحرين يريدان إخراجكم من بلادكم ، فأجمعوا كيدكم ، أي : اجعلوه مجمعا عليه ، بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم ، وارموه عن قوس واحدة. وقرأ أبو عمرو : (فاجمعوا) ، من الجمع ، أي : فاجمعوا أدوات سحركم ورتبوها كما ينبغى ، ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا أي : مصطفين ، أمروا بذلك لأنه أهيب فى صدور الرائين ، وأدخل فى استجلاب الرهبة من المشاهدين. قيل : كانوا سبعين ألفا ، مع كل واحد منهم حبل وعصا ، وأقبلوا عليه إقبالة واحدة ، وقيل : كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان من القبط ، والباقي من بنى إسرائيل ، وقيل : تسعمائة ثلاثمائة من الفرس ، وثلاثمائة من الروم ، وثلاثمائة من الإسكندرية ، وقيل : خمسة عشر ألفا. والله تعالى أعلم. ولعل الموعد كان مكانا متسعا ، خاطبهم موسى عليه السّلام بما ذكر فى قطر من أقطاره ، وتنازعوا أمرهم فى قطر آخر ، ثم أمروا أن يأتوا وسطه على الوجه المذكور.

ثم قالوا فى آخر نجواهم : وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى فاز بالمطلوب من غلب ، يريدون بما وعدهم فرعون من الأجر والتقريب ، أو بالرئاسة والجاه والذكر الحسن فى الناس. وقيل : كان نجواهم أن قالوا – حين سمعوا مقاله موسى عليه السّلام : ما هذا بقول ساحر ، وقيل : كان ذلك أن قالوا : إن غلبنا موسى اتبعناه ، وقيل : قالوا فيها : إن كان ساحرا غلبناه ، وإن كان من السماء فله أمر. فيكون إسرارهم حينئذ من فرعون ، ويحمل قولهم : إِنْ هذانِ لَساحِرانِ ... إلخ ، على أنهم اختلفوا فيما بينهم على الأقاويل المذكورة ، ثم أعرضوا عن ذلك بعد التنازع والتناظر ، واستقرت آراؤهم على المغالبة والمعارضة. والله تعالى أعلم بما كان.

ثم طلبوا المعارضة ، فقالوا : يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ ما تلقيه أولا ، وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى ما نلقيه. خيروه عليه السّلام فيما ذكر مراعاة للأدب ، لما رأوا عليه من مخايل الخير ، وإظهارا للجلادة ، قالَ بَلْ أَلْقُوا أنتم أولا ، مقابلة لأدبهم بأحسن منه ، فبتّ القول بإلقائهم أولا ، وإظهارا لعدم المبالاة بسحرهم ، ومساعدة لما أوهموا من الميل إلى البدء ، وليستفرغوا أقصى جهدهم وسعيهم ، ثم يظهر الله سبحانه سلطانه ، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، كما تعود من ربه.

فألقوا ما عندهم ، فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى أي : ففوجىء موسى ، وتخيل سعى حبالهم وعصيهم من سحرهم ، وذلك أنهم كانوا لطخوها بالزئبق ، فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت ، فخيل إليه أنها تتحرك. قلت : هكذا ذكر كثير من المفسرين. والذي يظهر أن تحريكها إنما كان

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٠١

من تخييل السحر الذي يقلب الأعيان فى مرأى العين ، كما يفعله أهل الشعوذة ، وهو علم معروف من علوم السحر ، ويدل على ذلك ما ورد أنها انقلبت حيات تمشى على بطونها ، تقصد موسى عليه السّلام ، فكيف يفعل الزئبق هذا؟ قال ابن جزى : استدل بعضهم بهذه الآية أن السحر تخييل لا حقيقة له. هـ.

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً أي : خوفا ، مُوسى أي : أضمر فى نفسه بعض خوف ، من جهة الطبع البشرى المجبول على النفرة من الحيات ، والاحتراز من ضررها. وقال مقاتل : إنما خاف موسى ، إذ صنع القوم مثل صنيعه ، بأن يشكّوا فيه ، فلا يتبعوه ، ويشك فيه من تابعه. قُلْنا لا تَخَفْ ما توهمت ، إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى الغالب عليهم ، والجملة : تعليل لنهيه عن الخوف ، وتقرير لغلبته ، على أبلغ وجه ، كما يعرب عنه الاستئناف ، وحرف التحقيق ، وتأكيد الضمير ، وتعريف الخبر ، ولفظ العلو.

ثم قال له : وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ أي : عصاك ، وإنما أبهمت تفخيما لشأنها ، وإيذانا بأنها ليست من جنس العصا المعهودة ، بل خارجة عن حدود أفراد الجنس ، مبهمة الكنه ، مستتبعة لآثار غريبة ، وأما حمل الإبهام على التحقير ، بمعنى : لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم ، وألق العويد الذي فى يدك ، فإنه بقدرة الله تعالى يتلقفها مع وحدته وكثرتها ، وصغره وكبرها ، فيأباه ظهور حالها ، وما وقع منها فيما مر من تعظيم شأنها.

وقوله تعالى : تَلْقَفْ ما صَنَعُوا : جواب الأمر ، من لقفه ، إذا ابتلعه والتقمه بسرعة ، أي : تبتلع ، وتلتقم بسرعة ، ما صنعوا من الحبال والعصى ، التي تخيل إليك ، والجملة الأمرية معطوفة على النهى عن الخوف ، موجبة لبيان كيفية غلبته عليه السّلام وعلوه ، وإدحاض الخوف عنه ، فإن ابتلاع عصاه لأباطيلهم ، التي منها أوجس فى نفسه ما أوجس ، مما يقلع مادته بالكلية. وهذا ، كما ترى ، صريح فى أن خوفه عليه السّلام لم يكن – كما قال مقاتل – من خوف شك الناس وعدم اتباعه له عليه السّلام ، وإلا لعلله بما يزيله من الوعد بالنصر الذي يوجب اتباعه.

فتأمله. قاله أبو السعود. وفيه نظر بأن قوله : تَلْقَفْ ما صَنَعُوا صريح فى عدم الالتباس إذ لا ينبغى التباس مع ابتلاع عصاه لعصيهم ، فتأمله. إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ أي : إن الذي صنعوه كيد ساحر وحيله. وقرأ أهل الكوفة : (سحر) بكسر السين ، فالإضافة للبيان ، كما فى «علم فقه» ، أو : كيد ذى سحر ، أو يسمى الساحر سحرا مبالغة. والجملة تعليل لقوله : (تَلْقَفْ) أي : تبتلعه لأنه كيد ساحر ، وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى أي : حيث وجد ، وأين أقبل ، وهو من تمام التعليل. والله تعالى أعلم.

الإشارة : يقال للفقير ، المتوجه إلى الله تعالى ، من قبل الحق : إمّا أن تلقى الدنيا من يدك ، وإمّا أن

نكون أول من ألقاها عنك ، أي : إما أن تتركها اختيارا ، أو تزول عنك اضطرارا لأن عادته تعالى ، مع المتوجه الصادق ، أن يدفع عنه كل ما يشغله من أمور الدنيا. فيقول – إن كان صادق القلب – : بل ألقها ، ولا حاجة لى بها ، فألقاها الحق تعالى ،

(٤٠١/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٠٢

وأخرجها من يده ، عناية به ، فإذا أشغالها وعلائقها كانت تسعى فى هلاكه وخراب قلبه وتضييع عمره ، فأوجس فى نفسه خيفة من العيلة ولحوق الفاقة ، قلنا : لا تخف ، حيث توجهت إلى مولاك ، فإن الله يرزق بغير حساب وبلا أسباب ، وألق ما فى يمين قلبك من اليقين ، تلقف ما صنعوا ، أي : ما صنعت بك خواطر السوء والشيطان ، لأنه يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء ، وإنما صنعوا ذلك تخويفا وتمويها ، لا حقيقة له ، كما يفعل الساحر ، (و لا يفلح الساحر حيث أتى).

ثم ذكر إسلام السحرة ، وما كان من شأنهم ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٧٠ الى ٧١]

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى (٧٠) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى (٧١)

قلت : (فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) ، قال المحلى : أي : عليها ، وهو مذهب كوفى ، وأما مذهب البصريين فيقولون : ليست «فِي» بمعنى «على» ، ولكن شبه المصلوب ، لتمكنه فى الجذع ، بالحالّ فى الشيء ، وهو من الاستعارة التعبيرية.

و(مِنْ خِلافٍ) : فى موضع الحال ، أي : مختلفات.

يقول الحق جل جلاله : فلما ألقى موسى عصاه انقلبت حية عظيمة ، فابتلعت تلك الحبال والعصى ، فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر ، وإنما هى آية من آيات الله. روى أن رئيسهم قال : كنا نغلب أعين الناس ، وكانت الآلات تبقى علينا ، فلو كان هذا سحرا ، فأين ما ألقينا من الآلات؟ فاستدلوا بما رأوا على صحة رسالة موسى. فألقاهم ما شاهدوه على وجوههم ، فتابوا وآمنوا ، وأتوا بما هو غاية الخضوع ، قيل : لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ، والثواب والعقاب. وعن عكرمة : لما خروا سجدا ، أراهم الله تعالى ، فى سجودهم ، منازلهم فى الجنة. ولا ينافيه قولهم : إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا ، لأن كون تلك المنازل منازلهم هو السبب فى صدور هذا القول منهم.

قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى ، قدّموا هارون إما لكبر سنه ، أو للمبالغة فى الاحتراز عن التوهم الباطل

من جهة فرعون ، حيث كان ربّى موسى عليه السّلام فى صغره ، فلو قدّموا موسى لربما توهم اللعين وقومه ، من أول الأمر ، أن مرادهم فرعون ، فأزاحوا تلك الخطرة من أول مرة. قالَ آمَنْتُمْ لَهُ أي : لموسى ، واللام لتضمن الفعل معنى الانقياد والخضوع ، أي : أذعنتم له قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ أي : من غير أن آذن لكم ، إِنَّهُ أي :

موسى لَكَبِيرُكُمُ أي : أستاذكم وأعلمكم فى فنكم ، الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ، فتواطأتم على ما فعلتم. وهذه منه شبهة واهية أين كان موسى عليه السّلام ، وأين كان السحرة ، حتى علمهم؟ ولكن صدر منه هذا خوفا على الناس أن يتبعوا موسى عليه السّلام ، ويقتدوا بالسحرة ، فأوهم عليهم ، مع ما سبق فى علم الله من ضلالتهم.

(٤٠٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٠٣

ثم أقبل على السحرة بالوعيد ، فقال : فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ أي : فو الله لأقطعن أيديكم وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ أي : اليد اليمنى والرجل اليسرى. وتعيين تلك الحال للإيذان بتحقيق هذا الأمر وإيقاعه لا محالة ، فتعيين تلك الحالة المعهودة من باب السياسة ، أو لأنها معهودة لمن خرج عن حكم طاعته.

وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ أي : عليها ، وإتيان كلمة «فِي» للدلالة على إبقائهم عليها زمنا مديدا ، تشبيها فى استمرارهم عليها باستقرار الظرف فى المظروف المشتمل عليه ، وقيل : هو أول من صلب.

وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا ، يريد نفسه أو موسى عليه السّلام ، حيث خافوا من عصاه فأسلموا ، فهم اللعين أن إيمانهم لم يكن للمعجزة ، إنما كان خوفا ، حيث رأوا عصاه ابتلعت حبالهم وعصيهم ، أو يريد (أَيُّنا) أي : أنا أو رب موسى وهارون ، الذي آمنتم به ، أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى أي : أدوم. قالوا : لم يثبت فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به ، ولم يثبت فى الأخبار ، لكن روى عن ابن عباس ، وغيره ، أنه أنفذه. وروى أن امرأة فرعون كانت تسأل : من غلب؟ فيقال لها : موسى ، فقالت : آمنت برب موسى وهارون ، فأرسل إليها فرعون يهددها ، وقال : انظروا أعظم صخرة ، فإن استقرت على قولها فألقوها عليها ، فلما ألقوها رفعت بصرها إلى السماء فأريت بيتها فى الجنة ، فمضت على قولها ، وانتزعت روحها منها ، وألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه. قاله الثعلبي. والله تعالى أعلم.

الإشارة : من سبقت له العناية ، لا تضره الجناية. هؤلاء السحرة جاءوا يحادون الله ورسوله ، فأضحوا أولياء الله. روى أن موسى عليه السّلام لما قال لهم : أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ ، سمع هاتفا يقول : ألقوا يا أولياء الله ، فتحير موسى عليه السّلام ، وأوجس فى نفسه خيفة ، وقال : كيف أعارض أولياء الله ، فلما ألقى عصاه ظهرت ولايتهم. فكم من لصوص خرج منهم الخصوص. ففى أمثال هؤلاء تقوية لرجاء أهل

الجناية ، إذا طلبوا من الله سرّ العناية ، وإدراك مقام الولاية ، ولذلك ابتدأ القشيري فى رسالته بذكر من تقدم له جنايات من الأولياء ، كالفضيل ، وابن أدهم ، وأضرابهم – رضى الله عن جميعهم – .

ثم ذكر ثبوت السحرة على الإيمان ، وعدم مبالاتهم بتهديد فرعون ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٧٢ الى ٧٦]

قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)

(٤٠٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٠٤

قلت : (هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا) : نصب على إسقاط الخافض ، اتساعا ، لا نصب على الظرفية لأن الظرف المختص لا ينتصب على الظرفية ، على المشهور ، و(الَّذِي فَطَرَنا) : عطف على (ما جاءَنا) ، أو قسم حذف جوابه ، أي : وحق الذي فطرنا لا نؤثرك .. إلخ.

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن السحرة ، لمّا خوفهم فرعون : قالُوا غير مكترثين بوعيده : لَنْ نُؤْثِرَكَ أي : لن نختارك ، باتباعك عَلى ما جاءَنا من الله تعالى على يد موسى عليه السّلام مِنَ الْبَيِّناتِ أي : المعجزات الظاهرة لأن ما ظهر من العصا كان مشتملا على معجزات جمة ، كما تقدم. وَالَّذِي فَطَرَنا : خلقنا وخلق سائر المخلوقات ، أي : لن نختارك على ما ظهر لنا من دلائل صحة نبوة موسى ، ولا على الذي خلقنا ، حتى نتبعك ونترك الحق ، وكان ما شاهدوه آية حسية ، وهذه آية عقلية. وإيراده بعنوان فاطريته تعالى للإشعار بعلّية الحكم ، فإن خالقيته تعالى لهم ولفرعون – وهو من جملة مخلوقاته – مما يوجب عدم إيثارهم له عليه سبحانه ، أو : وحق الذي فطرنا لا نؤثرك على ما جاءنا ، فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ أي : فاصنع ما أنت صانعه ، أو : فاحكم ما أنت حاكمه. وهو جواب لقوله : (فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ ..) إلخ. إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا أي : إنما تصنع ما تهواه ، أو تحكم ما تراه فى هذه الحياة الدنيا الفانية ، ولا رغبة لنا فى البقاء فيها ، رغبة فى سكنى الدار الدائمة ، بسبب موتنا على الإيمان. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا التي اقترفنا ، من الكفر والمعاصي ، ولا يؤاخذنا بها فى الآخرة ، فلا نغتر بتلك الحياة الفانية ، حتى نتأثر بما أوعدتنا به من القطع والصلب ، وَيغفر لنا أيضا ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ الذي عملناه فى معارضة موسى عليه السّلام ، بإكراهك وحشرك لنا من المدائن القاصية ، وخصوه بالذكر ، مع اندراجه فى خطاياهم إظهارا لغاية نفرتهم عنه ، ورغبة فى مغفرته ، وفى ذكره

الإكراه : نوع اعتذار لاستجلاب المغفرة ، وقيل : أرادوا الإكراه على تعلم السحر ، لما روى أن رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط ، والباقي من بنى إسرائيل ، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر ، وقيل : إنه أكرههم على المعارضة ، حيث روى أنهم قالوا لفرعون : أرنا موسى نائما ، ففعل ، فوجدوه تحرسه عصاه ، فقالوا : ما هذا بسحر ، فإن الساحر إذا نام بطل سحره ، فأبى إلا أن يعارضوه. لكن يأباه تصديهم للمعارضة بالرغبة والنشاط ، كما يعرب عنه قولهم :

إِنَّ لَنا لَأَجْراً .. «١» إلخ ، وقولهم : بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ «٢» ، إلا أن يقال : لما رأوا جدّه طمعوا وطلبوا الأجر. وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى أي : وثواب الله خير من إيثار الدنيا الفانية ، وأبقى فى الدار الباقية ، أو : والله فى ذاته خير ، وجزاؤه أبقى ، نعيما كان أو عذابا.

---

(١) من الآية ١١٣ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٤٤ من سورة الشعراء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٠٥

ثم عللوا خيريته وبقاءه فقالوا : إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً بأن يموت على الكفر والمعاصي ، فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها فيستريح وينتهى عذابه ، وهذا تحقيق لقوله : (وَ أَبْقى) ، وَلا يَحْيى حياة ينتفع بها ، وضمير (إِنَّهُ) : للشأن ، وفيه تنبيه على فخامة مضمون الجملة لأن مناط وضع الضمير موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره ، مع ما فيه من زيادة التقرير ، فإن الضمير لا يفهم منه أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر ، فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه ، فيتمكن ، عند وروده ، فضل تمكن ، كأنه قيل الشأن الخطير هذا.

وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً به تعالى ، وما جاء من عنده من المعجزات ، التي من جملتها ما شهدناه ، حال كونه قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ أي : الأعمال الصالحات ، وهى كل ما استقام شرعا وخلص عقدا ، فَأُولئِكَ أي : من يأت مؤمنا .. إلخ. وجمع الإشارة باعتبار معنى «من» ، كما أن الإفراد فى الفعلين السابقين باعتبار لفظها ، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم ، أي : فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات ، لَهُمُ بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحات الدَّرَجاتُ الْعُلى أي : المنازل الرفيعة ، وليس فيه ما يدل على عدم اعتبار الإيمان المجرد عن العمل فى استتباع الثواب ، لأن ما نيط بالإيمان المقرون بالأعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى ، لا بالثواب مطلقا.

ثم فسر تلك الدرجات ، فقال : جَنَّاتُ عَدْنٍ أي : إقامة على الخلود ، حال كونها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى ، الإشارة إلى ما أنتج لهم من الفوز بالدرجات العلى. والبعد فى الإشارة للتفخيم ، أي : ما تقدم من الفوز بالدرجات العلى هو جزاء من تطهر من دنس الكفر والمعاصي ، بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة ، وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى. وتقدم ذكر حال المجرم ، للمسارعة إلى بيان أشدية عذابه ودوامه ، ردا على ما ادعاه فرعون بقوله : أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى ، هذا وقد قيل : إن قوله : إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ .... إلخ ، ابتداء كلام من الله عز وجل. والله تعالى أعلم. الإشارة : فى الآية تحريض للفقراء أهل النسبة وأرباب الأحوال ، على الثبوت فى طريق السلوك ، وعدم الرجوع عنها ، حين يكثر عليهم الإنكار والتهديد ، والتخويف بأنواع العذاب ، فلا يكترثون بذلك ولا يتضعضعون ، وليقولوا كما قال سحرة فرعون : (لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ...) الآية. وقد جرى هذا على كثير من الصوفية ، أوذوا على النسبة ، فمنهم من قتل ، ومنهم من طوف ، ومنهم من أجلى عن وطنه ، إلى غير ذلك مما جرى عليهم ، ومع ذلك لم يرجعوا عما هم عليه ، حتى وصلوا إلى حضرته تعالى وذاقوا. وما رجع من رجع إلا من الطريق ، وأما من وصل فلا يرجع أبدا ، ولو قطع إربا إربا. والله ولي المتقين.

(٤٠٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٠٦

ثم ذكر خروج بنى إسرائيل إلى الشام وغرق فرعون ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٧٧ الى ٧٩]

وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى (٧٩)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي بعد ما لبث يدعو فرعون إلى الله تعالى ويريه الآيات المفصلات ، بعد غلبة السحرة ، نحوا من عشرين سنة ، كما فصّل ذلك فى الأعراف ، فلما أيس من إيمانهم أوحى الله بالخروج عنهم ، أي : والله لقد أوحينا إلى موسى أن أسر ، أو بأن أسر بعبادي الذين أرسلتك لإنقاذهم من يد فرعون ، أي : سر بهم من مصر ليلا إلى بحر القلزم. والتصدير بالقسم لإبراز كمال العناية بمضمونها ، والتعبير عنهم بعبادي لإظهار الرحمة والاعتناء بهم ، والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون ، حيث استعبدهم ، وهم عباده عز وجل ، وفعل بهم من فنون العذاب ما فعل. فَاضْرِبْ لَهُمْ أي : اجعل لهم ، أو اتخذ لهم طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً أي : يابسا لا ماء فيه ، لا تَخافُ دَرَكاً أي : حال كونك آمنا من أن يدرككم العدو ، وَلا تَخْشى الغرق. وقرأ حمزة : «لا تخف» بالجزم ، جوابا للأمر ، فيكون (و لا تخشى) : إما استئناف ، أي : وأنت لا تخشى ، أو عطف عليه ،

والألف للإطلاق ، أو يقدر الجزم ، كقوله :

ألم يأتيك والأنباء تنمى «١» ... إلخ.

وتقديم نفى خوف الدرك ، للمسارعة إلى إزاحة ما كانوا عليه من الخوف ، حيث قالوا : إِنَّا لَمُدْرَكُونَ «٢».

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ أي : تبعهم ومعه جنوده حتى لحقهم ، يقال : اتبعتهم ، أي : تبعتهم ، إذا كانوا سبقوك ولحقتهم ، ويؤيده قراءة : (فاتّبعهم) بالشد. وقيل : الباء زائدة ، والمعنى : فأتبعهم فرعون جنوده ، أي : ساقهم خلفهم ، وأيا ما كان ، فالفاء فصيحة معربة عن مضمر قد طوى ذكره ، ثقة بظهوره ، وإيذانا بكمال مسارعة موسى إلى الامتثال ، أي : ففعل ما أمر به من الإسراء بهم ، وضرب الطريق فى البحر وسلكوه ، فأتبعهم بجنوده برا وبحرا.

روى أن موسى عليه السّلام خرج بهم أول الليل ، وكانوا ستمائة وسبعين ألفا ، فأخبر فرعون بذلك ، فأتبعهم بعساكره ، وكانت مقدمته سبعمائة ألف ، فقص أثرهم فلحقهم ، بحيث تراءى الجمعان ، فلما أبصروا رهج «٣» الخيل ، قالوا : إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ، قالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ «٤». فلما قربوا ، قالوا : يا موسى أين نمضى ، البحر أمامنا ، وخيل فرعون خلفنا ، فعند ذلك ضرب موسى عصاه البحر فانفلق على ثنتى عشرة فرقة ،

---

(١) هذا صدر بيت عجزه : بما لاقت لبون بنى زياد. وهو لقيس بن زهير العبسي .. انظر تفسير القرطبي.

(٢) الآية ٦١ من سورة الشعراء. [.....]

(٣) الرّهج : الغبار.

(٤) الآيتان ٦١ – ٦٢ من سورة الشعراء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٠٧

كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ «١» أي : كالجبل العظيم من الماء ، وكانوا يمرون به ، وكلهم بنو أعمام ، لا يرى بعضهم بعضا ، فقالوا : قد غرق إخواننا ، فأوحى الله إلى أطواد الماء : أن اشتبكى ، وصارت شبابك ، يرى بعضهم بعضا ، ويسمع بعضهم كلام بعض ، فلما أتى فرعون الساحل ، وجد البحر منفلقا ، فقال : سحر موسى البحر ، فقالوا :

إن كنت ربا فادخل كما دخل ، فجاء جبريل على رمكة وديق ، أي : تحب الفحل ، وكان فرعون على

حصان ، فاقتحم جبريل بالرمكة الماء ، فلم يتمالك حصان فرعون ، فاقتحم البحر على إثره ، ودخل القبط كلهم ، فلما لجّجوا ، أوحى الله تعالى إلى البحر أن أغرقهم ، فعلاهم البحر وأغرقهم.

فعبر موسى عليه السّلام بمن معه من الأسباط سالمين ، وأما فرعون وجنوده فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ أي :

علاهم منه وغمرهم من الأمر الهائل ، الذي لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه. قال القشيري : فغرقوا بجملتهم ، وآمن فرعون لما ظهر له البأس ، فلم ينفعه إقراره ، وكان ينفعه لو لم يكن إصراره ، وقد أدركته الشقاوة التي سبقت له من التقدير. هـ. وقال الكواشي : (و غشيهم) من الغضب والغرق ، وغير ذلك ، مالا يعلم حقيقته إلا الله تعالى. هـ. فإبهام الصلة للتهويل والتفخيم ، وقيل : (غشيهم من اليم) ما سمعت قصته فى غير هذه السورة ، وليس بشيء فإن مدار الإبهام على التهويل والتفخيم ، بحيث يخرج عن حدود الفهم والوصف ، لا سماع قصته فقط.

وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ أي : أتلفهم وسلك بهم مسلكا أدى بهم إلى الخيبة والخسران ، حيث ماتوا على الكفر ، وأوصلهم إلى العذاب الهائل الدنيوي ، المتصل بالعذاب الدائم الأخرى ، وَما هَدى أي : ما أرشدهم قط إلى طريق توصلهم إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية. وهو تقرير لإضلاله وتأكيد له ، وفيه نوع تهكم به فى قوله : وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ «٢» ، فإن نفى الهداية عن شخص مشعر بكونه ممن يتصور منه الهداية فى الجملة ، وذلك إنما يتصور فى حقه بطريق التهكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة : انظر عاقبة من شدّ يده على دينه ، وصبر على شدائد زمانه ، كيف خرقت له العوائد ، وجاءه العز والنصر فأنساه تلك الشدائد ، وأهلك الله من كان يؤذيه من الأعداء ، وسلك به سبيل النجاة والهدى ، وهذه عادة الله مع أوليائه ، يشدد عليهم أولا بضروب البلايا والمحن ، ثم يعقبهم العز والنصر وضروب المنن ، ولذلك ذكّر الله بنى إسرائيل بما أنعم عليهم بعد البحر ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٨٠ الى ٨٢]

يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى (٨٢)

---

(١) من الآية ٦٣ من سورة الشعراء.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة غافر.

يقول الحق جل جلاله لبنى إسرائيل ، بعد ما أنجاهم من الغرق ، وأفاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية : يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ فرعون وقومه ، حيث كانوا يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ «١» ، وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ أي : واعدناكم بواسطة نبيكم ، إتيان جانب الطور ، الجانب الأيمن منه للمناجاة وإنزال التوراة. وهل هو الطور الذي أبصر فيه النار ووقعت فيه الرسالة ، أو غيره؟ خلاف. ونسبة المواعدة إليهم مع كونه لموسى عليه السّلام خاصة ، أو له وللسبعين المختارين ، نظر إلى ملابستها إياهم ، وسراية منفعتها إليهم ، وإعطاء لمقام الامتنان حقه. كما فى قوله تعالى :

وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ «٢» حيث نسب الخلق والتصوير للمخاطبين ، مع أن المخلوق كذلك هو آدم عليه السّلام.

ثم قال تعالى : وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ حين تهتم ، الْمَنَّ وَالسَّلْوى أي : الترنجبين والطير السّمانى ، حيث كان ينزل عليهم المنّ وهم فى التيه ، مثل الثلج ، من الفجر إلى الطلوع ، لكل إنسان صالح ، ويبعث الجنوب عليهم السّمانى ، فيذبح الرجل منه ما يكفيه. وقلنا لهم : كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ أي : من لذائذه ، أو حلاله. وفى البدء بنعمة الإنجاء ثم بالنعمة الدينية ثم بالنعمة الدنيوية من حسن الترتيب ما لا يخفى. وَلا تَطْغَوْا فِيهِ أي :

فيما رزقناكم بالإخلال بشكره ، والتعدي لما حدّ لكم فيه ، كالترفه والبطر والمنع من المستحق. وقال القشيري :

مجاوزة الحلال إلى الحرام ، أو بالزيادة على الكفاف وما لا بدّ منه ، فأزاد على سدّ الرمق ، أو بالأكل على الغفلة والنسيان. هـ. وقيل : لا تدخروا ، فادّخروا فتعودوا ، وقيل : لا تنفقوه فى المعصية ، فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي بفعل شىء من ذلك ، أي : ينزل ويجب ، من حلّ الدين إذا وجب. وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى أي : تردّى وهلك ، أو وقع فى المهاوى.

وَإِنِّي لَغَفَّارٌ أي : كثير الغفران لِمَنْ تابَ عن الشرك والمعاصي ، التي من جملتها الطغيان فيما ذكر ، وَآمَنَ بما يجب الإيمان به ، وَعَمِلَ صالِحاً أي : عملا صالحا مستقيما عند الشرع ، وفيه ترغيب وحث لمن وقع فى زلّة أو طغيان على التوبة والإيمان ، ثُمَّ اهْتَدى أي : استقام على الهدى ودام عليها حتى مات.

وفيه إشارة إلى أن من لم يستمر عليها بمعزل عن الغفران. قال الكواشي : (ثُمَّ اهْتَدى) أي : علم أن ذلك بتوفيق من الله تعالى. هـ.

الإشارة : إذا ذهبت عن العبد أيام المحن ، وجاءت له أيام المنن ، فينبغى له أن يتذكر ما سلف له من المحن ، وينظر ما هو فيه الآن من المنن ، ليزداد شكرا وتواضعا ، فتزداد نعمه ، وتتواتر عليه الخيرات. وأما إن نسى أيام

(١) من الآية ٤٩ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ١١ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٠٩
المحن ، ولم يشكر ما هو فيه من المنن ، فحقيق أن تزول عنه ، ويرجع إلى ما كان عليه. وتذكّر حديث الأبرص والأقرع والأعمى ، حسبما فى الصحيح «١». فإن الأبرص والأقرع ، حين شفاهما الله وأغناهما ، أنكرا ما كانا عليه ، فرجعا إلى ما كانا عليه ، والأعمى حين أقر بما كان عليه ، وشكر الحال الذي حال إليه ، دامت نعمته وكثر خيره.
فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود. فيقال لأهل النعم ، إن قاموا بشكرها : كلوا من طيبات ما رزقناكم ، ولا تطغوا فيه ، بأن تصرفوه فى غير محله ، أو تمنعوه عن مستحقه ، فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ... الآية.
وقوله تعالى : وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ .. إلخ ، قال القشيري : وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ من الزّلّة وَآمَنَ فلم ير أعماله من نفسه ، بل جميع الحوادث من الحقّ ، وَعَمِلَ صالِحاً فلم يخلّ بالفرائض ، ثُمَّ اهْتَدى للسّنة والجماعة.
وقال أيضا : ثم اهتدى بنا إلينا. هـ.
قال الورتجبي : التائب : المنقطع إلى الله ، والمؤمن : العارف بالله ، والعمل الصالح : تركه ما دون الله ، فإذا كان كذلك ، فاهتدى بالله إلى الله ، ويكون مغمورا برحمة الله ، ومعصوما بعصمة الله. هـ.
ثم ذكر فتنة بنى إسرائيل بالعجل ، بعد ذهاب موسى إلى المناجاة ، فقال :
[سورة طه (٢٠) : الآيات ٨٣ الى ٨٨]
وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى (٨٣) قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى (٨٤) قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧)
فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ (٨٨)
يقول الحق جل جلاله لموسى عليه السّلام ، لما ذهب إلى الطور ، لموافاة الميقات ، للعهد الذي عهد إليه ، واختار سبعين من بنى إسرائيل ، يحضرون معه لأخذ التوراة بأمره تعالى ، فلما دنا من الجبل

حمله الشوق ، فاستعجل إلى الجبل ، وترك قومه أسفله ، فقال له الحق جل جلاله : وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى أي : ما حملك على

---

(١) أخرج حديث الثلاثة البخارىّ فى (أحاديث الأنبياء ، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع بنى إسرائيل) ، ومسلم فى (الزهد ، ح ٢٩٦٤) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

العجلة ، وأىّ شىء أعجلك منفردا عن قومك ، وقد أمرتك باستصحابهم ، ولعل فى إفرادك عنهم عدم اعتناء بهم؟

فأجاب عليه السّلام بقوله : هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي أي : هم هؤلاء قريبا منى ، فهم معى ، وإنما سبقتهم بخطإ يسيرة ، ظننت أنها لا تخلّ بالمعية ، ولا تقدح فى الاستصحاب ، فإن ذلك مما لا يعتد به فيما بين الرفقة.

قال الكواشي : ولما كان سؤال الرب تعالى لموسى يقتضى شيئين : أحدهما : إنكار العجلة ، والثاني : السؤال عن السبب والحامل عليها ، كان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة فى نفس ما أنكر عليه ، فاعتل أن قال :

إن ما وجد منى تقدم يسير ، لا يعتد بمثله فى العادة لقربه ، كما يتقدم الوفد رئيسهم ومتقدمهم ، ثم عقبه بجواب السؤال فقال : عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى لتزادد عنى رضا لمسارعتى إلى الامتثال لأمرك ، واعتنائى بالوفاء بعهدك لأنه ظن أن إسراعه إليه أبلغ فى رضاه. وفى هذا دليل على جواز الاجتهاد للأنبياء – عليهم السّلام – والمعنى : لتعلم أنى أحبك ولا قرار لى مع غيرك. هـ.

وقال القشيري : (هم أولاء على أثرى) ما خلّفتهم لتضييعى إياهم ، ولكن عجلت إليك ربّ لترضى. قال :

يا موسى ، رضائى فى أن تكون معهم ، ولا تتقدمهم ولا تسبقهم ، وكونك مع الضعفاء ، الذين استصحبتهم فى حصول رضاى ، أبلغ من تقدّمك عليهم. هـ.

قالَ له تعالى : فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ أي : ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم.

روى أنهم أقاموا على ما وصاهم به موسى عليه السّلام عشرين ليلة ، بعد ذهابه ، فحسبوها مع أيامها أربعين ، وقالوا : قد أكملنا العدة ، وليس من موسى عين ولا أثر ، وكان وعدهم أن يغيب عنهم أربعين يوما ، واستخلف هارون على من بقي منهم ، وكانوا ستمائة ألف ، فافتتنوا بعبادة العجل كلهم ، ما نجا

منهم إلا اثنا عشر ألفا. وهذا معنى قوله تعالى :

وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ، حيث كان هو السبب فى فتنتهم ، فقال لهم : إنما أخلف موسى عليه السّلام ميعادكم لما معكم من حلى القوم ، فهو حرام عليكم ، فكان من أمر العجل ما يأتى تفسيره إن شاء الله. فإخباره تعالى بهذه الفتنة عند قدومه عليه السّلام ، قبل وقوعها ، إما باعتبار تحققها فى علمه تعالى ، وإما باعتبار التعبير عن المتوقع بالواقع ، كما فى قوله تعالى : وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ «١» ، أو لأن السامري كان قد عزم على إيقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه السّلام ، وتصدى لها بترتيب مبادئها ، فكانت الفتنة واقعة عند الإخبار بها.

والسامري منسوب إلى قبيلة من بنى إسرائيل ، يقال لها : سامرة ، وقيل : كان رجلا من كرمان. وقال ابن عباس :

كان من قرية يعبدون البقر ، فدخل فى بنى إسرائيل وأظهر الإسلام ، وفى قلبه ما فيه من حب عبادة البقر ، فابتلى الله به بنى إسرائيل ، واسمه : موسى بن ظفر.

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة الأعراف.

فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ بعد ما استوفى الأربعين وأخذ التوراة ، لا عقب الإخبار بالفتنة ، كما يتوهم من قوله تعالى : غَضْبانَ أَسِفاً ، فإن كون الرجوع بعد الأربعين أمر مقرر مشهور ، يرفع كون الرجوع عقب الفتنة. والأسف : أشد الغضب ، وقيل : أسفا : حزينا جزعا على ضلال قومه. قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً بأن يعطيكم التوراة فيها ما فيها من النور والهدى ، أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أي : مدة مفارقتى إياكم.

والهمزة للإنكار ، والمعطوف محذوف ، أي : أوعدكم ذلك فطال زمان الإنجاز ، فأخطأتم بسببه ، أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ شديد كائن مِنْ رَبِّكُمْ أي : من مالك أمركم ، فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي أي : وعدي إياكم بالثبات على ما أمرتكم به إلى أن أرجع من الميقات ، أو وعدكم إياى بأن تثبتوا على ما أمرتكم به ، على إضافة المصدر إلى فاعله أو مفعوله ، والفاء ، لترتيب ما بعدها ، كأنه قيل : أنسيتم الوعد بطول العهد فأخلفتمونى خطأ أَمْ أَرَدْتُمْ حلول الغضب عليكم فأخلفتموه عمدا.؟

قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ أي : وعدنا إياك بالثبات على ما أمرتنا به ، بِمَلْكِنا أي : بسلطاننا وقدرتنا ، ونحن نملك أمرنا. وفيه لغتان : فتح الميم وكسرها. يعنون : لو خلينا وأمورنا ، ولم يسوّل لنا السامرىّ

ما سوله ، ما أخلفنا ، ولكن غلبنا على أمرنا ، واستغوانا السامري مع مساعدة الأحوال.
وقال القشيري : أي : لم نكن فى ابتداء حالنا قاصدين إلى ما حصل منّا ، ولا عالمين بما آلت إليه عاقبة أمرنا ، وإنّ الذي حملنا عليه حليّ القبط ، صاغ السامريّ منه العجل ، فآل الأمر إلى ما بلغ من الشر ، وكذلك الحرام لا يخلو شؤمه من الفتنة والشر. هـ.
وقوله تعالى : وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ ، استدراك عما سبق ، واعتذار ببيان منشأ الخطأ ، أي : حملنا أحمالا من حلى القبط ، التي استعرناها منهم ، حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس. وقيل : كانوا استعاروها لعيد كان لهم ، ثم لم يردوها إليهم ، مخافة أن يقفوا على أمرهم. وقيل : لما رمى البحر أجساد القبط ، وكان غالب ثيابهم الذهب والفضة ، التقطها بنو إسرائيل ، فهى زينة القوم التي صيغ منها العجل ، ولعل تسميتها أوزارا لأنها تبعات وآثام ، حيث لم تحل الغنائم لهم.
فَقَذَفْناها أي : فى النار رجاء الخلاص من عقوبتها ، أو قذفناها إلى السامري وألقاها فى النار ، فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ما كان معه منها كما ألقيناه ، أو ألقى ما كان معه من تراب حافر فرس جبريل ، كان قد صرّه فى عمامته ، وكان ألقى إليه الشيطان : أنه ما خالط شيئا إلا حيى ، فألقاه فى فمه فصار يخور.
روى : أنه قال لهم : إنما تأخر موسى عنكم ، لما معكم من الأوزار ، فالرأى أن نحفر حفرة ويسجر فيها نار ، ونقذف فيها كل ما معنا ، ففعلوا ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ من ذلك الحلي المذاب عِجْلًا أي : صورة عجل

(٤١١/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤١٢
جَسَداً أي : جثة ذات لحم ودم ، أو جسدا من ذهب لا روح فيه ، لَهُ خُوارٌ أي : صوت عجل ، فَقالُوا أي : السامري ومن افتتن به : هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ أي : غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور.
فقوله تعالى : (فَأَخْرَجَ لَهُمْ ...) إلخ .. هو من كلام الله تعالى ، حكاية لنتيجة فتنة السامري ، قولا وفعلا ، قصدا إلى زيادة تقريرها ، وتمهيدا للإنكار عليهم ، وليس من كلام المعتذرين ، وإلا لقال : فأخرج لنا .. والله تعالى أعلم.
الإشارة : ينبغى لرئيس القوم ، إذا كان فى سفر ، أن يكون وسطهم ، أو سائقا لهم ، ولا يتقدمهم أو يستعجل لأمر عنهم ، فإن التأنى كله من الله ، والعجلة كلها من الشيطان ، والخير كله فى الاجتماع مع الضعفاء والمساكين ، حتى يكون كأحدهم ، فإن فارقهم ، لأمر مهم ، فليستخلف عليهم من يثق به فى دينه ، وليكن اعتماده فى ذلك على ربه ، ونظره كله إلى رعايته وحفظه. قال الكواشي : عن ابن عطاء : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السّلام : أتدري من أين أتيت؟ – يعنى فى فتنة قومه – قال : لا يا رب

، قال : حين قلت لهارون : اخلفني فى قومى ، أين كنت أنا حين اعتمدت على هارون؟. هـ.
فكل فتنة أو ضلال يصيب الفقراء ، فإنما ذلك من عدم الاجتماع مع أهل الفن ، أو قلة الاستماع لهم ، فإن أصابتهم فتنة الأسباب ، والركون إلى شيء من الدنيا فى غيبة الشيخ ، فليرجع إليهم غضبان أسفا ، وليقل لهم : ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ، وهو الفتح الكبير لو صبرتم على السير والتجريد ، أفطال عليكم العهد ، فقد كانت الرجال تمكث فى خدمة الأشياخ العشرين والثلاثين سنة ، أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ، بالإبعاد وإسدال الحجاب ، حيث خالفتم عهود أشياخكم ، فإن اعتذروا فليقبل عذرهم ، وإن ركنوا إلى عبادة شيء من عجل الدنيا فليخرجه من أيديهم ، وليقل : وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا ، لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا. وباللّه التوفيق.
ثم ذكر الإنكار على عبدة العجل ، فقال :
[سورة طه (٢٠) : الآيات ٨٩ الى ٩٤]
أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً (٨٩) وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى (٩١) قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)

(٤١٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤١٣
قلت : (أَلَّا يَرْجِعُ) : «أن» محففة ، لأنّ الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين ، ومن قرأ بالنصب جعل الرؤية بصرية.
يقول الحق جل جلاله ، منكرا على عبدة العجل ومقبحا لرأيهم : أَفَلا يَرَوْنَ أي : أفلا يتفكر هؤلاء الضالون المضلون فيعلمون أن الأمر والشأن : أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ العجل كلاما ، ولا يرد عليها جوابا ، وإنما هو جماد لا روح فيه؟ فكيف يتوهمونه أنه إله؟ وتعليق الإبصار بما ذكر مع كونه عدميا للتنبيه على كمال ظهوره ، المستدعى لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم. وَهو أيضا لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً أي : أفلا يرون أيضا أن العجل لا يقدر أن يدفع عنهم ضرا ، أو يجلب لهم نفعا؟ أو لا يقدر على أن يضرهم إن لم يعبدوه ، أو ينفعهم إن عبدوه.
وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ أي : والله لقد نصحهم هارون ونبههم على الحق ، من قبل رجوع موسى عليه السّلام إليهم ، وقال لهم : يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ أي : وقعتم فى الفتنة بالعجل أو ضللتم به ،

والمعنى : إنما فعل بكم الفتنة ، لا الإرشاد إلى الحق ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ وحده ، لا العجل ، أرشدهم إلى الحق بعد أن زجرهم عن الباطل. والتعرض لعنوان الرحمانية للاعتناء باستمالتهم إلى الحق المفضى إلى الرحمة الشاملة ، أي : إن ربكم الذي يستحق أن يعبد هو الرحمن لا غير. فَاتَّبِعُونِي على الثبات على الدين ، وَأَطِيعُوا أَمْرِي من ترك عبادة ما علمتم شأنه.

قالُوا فى جواب هارون عليه السّلام : لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ أي : لن نزال على عبادة العجل مقيمين حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى ، جعلوا رجوعه عليه السّلام غاية لعكوفهم على عبادة العجل ، لكن لا على طريق الوعد بتركها عند رجوعه ، بل بطريق التعلل والتسويف ، وقد دسّوا تحت ذلك أنه عليه السّلام لا يرجع بشيء مبين لإبطالها ، تعويلا على مقالة السامري.

روى أنهم ، لما قالوا ذلك ، اعتزلهم هارون عليه السّلام فى اثنى عشر ألفا ممن لم يعبد العجل ، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة «١» ، وكانوا يرقصون حول العجل ، قال للسبعين الذين كانوا معه : هذا صوت الفتنة ، فلما وصل إليهم قال لهم ما قال من قوله : (أَ لَمْ يَعِدْكُمْ ....) إلخ. وسمع منهم ما قالوا من قولهم : (ما أَخْلَفْنا ...) إلخ. فلما رأى هارون أخذ شعره بيمينه ، ولحيته بشماله ، غضبا ، قالَ يا هارُونُ ، وإنما جرده من الواو لأنه استئناف بيانى ، كأنه قيل : ماذا قال موسى لهارون حين سمع جوابهم له؟ وهل رضى بسكوته بعد ما شهد منهم ما شهد؟ فقيل :

قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا بعبادة العجل ، وبلغوا من المكابرة إلى أن شافهوك بتلك المقالة الشنعاء ، أَلَّا تَتَّبِعَنِ أي : أن تتبعنى. على أن «لا» مزيدة ، أي : أىّ شيء منعك ، حين رأيت ضلالتهم ، من أن

---

(١) فى الأصول : والجبلة.

تتبعنى فيما أمرتك ، وتعمل بوصيتي فتقاتلهم بمن معك؟. قال ابن عطية : والتحقيق : أن «لا» غير مزيدة ، ويقدر فعل ، أي : ما منعك مجانبتهم وسوّل لك ألا تتبعن. هـ. قلت : وفيه نظر لأن مجانبة هارون عليه السّلام للقوم كانت حاصلة ، وإنما أنكر عليه عدم مقاتلتهم ، أو عدم لحوقه ليخبره ، فتأمله. وقيل : المعنى : ما حملك على ألا تتبعن ، فإن المنع من الشيء مستلزم للحمل على مقابله ، وقيل : ما منعك أن تلحقنى وتخبرني بضلالهم ، فتكون مفارقتك زجرا لهم ، وهذا أظهر.

أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه ، فإن قوله : (اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي) متضمن للأمر بهما

حتما ، فإن الخلافة لا تتحقق إلا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلف لو كان حاضرا ، والهمزة للإنكار ، والفاء للعطف ، أي : أخالفتني فعصيت أمرى.

لَ يَا بْنَ أُمَ

،

خص الأم بالذكر استعطافا لحقها ، وترقيقا لقلبه ، لا لما قيل من أنه كان أخاه لأمه ، فإن الجمهور على أنهما شقيقان. قال له : تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي

أي : بشعر رأسى. وقد كان عليه السّلام أخذ بهما كما تقدم ، من شدة غيظه وفرط غضبه لله ، وكان حديدا متصلبا فى كل شىء ، فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل ، حتى فعل ما فعل. ثم اعتذر له أخوه بقوله : نِّي خَشِيتُ

إن قاتلت بعضهم ببعض وتفرقوا ، نْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ

برأيك ، مع كونهم أبناء رجل واحد ، كما ينبئ عنه ذكرهم بذلك العنوان دون القوم ونحوه. وأراد عليه السّلام بالتفريق ما يستتبعه القتال من التفريق : الذي لا يرى بعده اجتماع ، فخشيت أن تقول :

فرقت بينهم ، لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي

أي : قوله : (اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ ..) إلخ ، يعنى : إنى رأيت أن الأصلح هو فى حفظ الدماء والمداراة معهم ، إلى أن ترجع إليهم ، فلذلك استأنيتك لتكون أنت المتدارك للأمر بما رأيت ، لا سيما وقد كانوا فى غاية القوة ، ونحن على القلة والضعف ، كما يعرب عنه قوله : إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي «١». والله تعالى أعلم.

الإشارة : كل من اعتمد على غير الله ، أو مال بمحبته إلى ما سوى الله ، فهو فى حقه عجل بنى إسرائيل ، فيقال له : كيف تركن إليه وهو لا يملك لك ضرا ولا نفعا ، وإنما فتنت به عن السير إلى ربك ، وانطمست به حضرة قدسك ، فربك الرحمن الكريم المنان ، فاتبع ما أمرك به من الطاعات ، وكن عبدا له فى جميع الحالات ، تكن خالصا لله ، حرا مما سواه. وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ١٥٠ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤١٥

ثم وجّه العتاب إلى السامري ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٩٥ الى ٩٨]

قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ (٩٥) قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً (٩٧) إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (٩٨)

يقول الحق جل جلاله : قالَ موسى عليه السّلام فى توبيخ السامري : فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ أي : ما شأنك ، وما مطلوبك فيما فعلت من فتنة القوم؟ خاطبه بذلك ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه ، وليفعل به وبما صنع من العقاب ما يكون نكالا للمفتونين به ، ولمن خلفهم من الأمم من بعده ، قالَ السامري فى جوابه :

بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ أي : علمت مالم يعلمه القوم ، وفطنت لما لم يفطنوا به ، أو رأيت مالم يروه ، وهذا أنسب ، وقد كان رأى جبريل عليه السّلام ، جاء راكبا فرسا ، وكان كلما رفع الفرس يده أو رجله عن الطريق اليبس ، اخضر ما تحت قدمه بالنبات ، فعرف أن له شأنا ، فأخذ من موطئه شيئا من التراب. وذلك قوله تعالى : فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ أي : أثر فرس الرسول ، وهو جبريل ، الذي أرسل إليك ليذهب بك إلى الطور.

وقال فى اللباب : كان السامري من المقربين لموسى عليه السّلام ، فرأى جبريل راكبا على فرس ، وقد دخل البحر فانفلق ، فأخذ من أثره ، ولم ير ذلك إلا من كان مع موسى. هـ. وقال قتادة : كان السامري عظيما فى بنى إسرائيل ، من قبيلة يقال لها : سامرة ، ولكن عدو الله نافق ، بعد ما قطع البحر مع بنى إسرائيل ، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة ، وهم يعكفون على أصنام لهم ، وكانوا يعبدون البقر ، قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ «١». فاغتنمها السامري فاتخذ العجل. هـ.

وقال الكواشي : وإنما عرف السامرىّ جبريل من بين سائر الناس لأن أمه ولدته فى السنة التي يقتل فيها الغلمان ، فوضعته فى كهف حذرا عليه ، فبعث الله تعالى جبريل ليربيه لما قضى على يديه من الفتنة. هـ.

وضعّفه ابن عطية. قلت : ولعل تضعيفه من جهة النقل ، وأما القدرة فهى صالحة ليقضى الله أمرا كان مفعولا.

---

(١) من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف.

ثم قال : فأخذت تلك القبضة فَنَبَذْتُها فى فم تلك الصورة المذابة من الحلي ، فصارت تخور ، وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي أي : زينت. والإشارة : نعت لمصدر محذوف ، أي : سوّلت لى نفسى تسويلا كائنا مثل ذلك التسويل البديع.

وحاصل جوابه : أن ما فعله إنما صدر منه بمحض اتباع هوى النفس الأمارة وإغوائها ، لا لشيء آخر من البرهان العقلي أو الإلهام الإلهى ، فعند ذلك قالَ له موسى عليه السّلام : فَاذْهَبْ أي : اخرج من بين الناس ، فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أي : فى مدة حياتك ، أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ والمعنى : أن لك فى مدة حياتك أن تفارقهم مفارقة كلية ، لا بحسب الاختيار ، بل بحسب الاضطرار الملجئ إليه ، وذلك أنه تعالى رماه بداء عقام «١» ، لا يكاد يمسّه أحد ، أو يمسّ أحدا ، إلا حمّ من ساعته حمى شديدة ، فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح بأقصى طوقه : لا مساس. وقيل : إن موسى عليه السّلام نفاه من قومه ، وأمر بنى إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه. قال الحسن : (جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ولا يماسوه. جعل ذلك له ولمن كان منه إلى يوم القيامة).

فكأن الله تعالى شدّد عليه المحنة ، وجعل ذلك عقوبة له فى الدنيا. ويقال : ابتلى بالوسواس ، وأصل الوسواس من ذلك الوقت. وقال قتادة : بقاياه اليوم يقولون ذلك : لا مساس. ويقال : إن موسى همّ بقتل السامري ، فقال الله تعالى له : لا تقتله فإنه سخى. ولعل الحكمة فى عقابه بهذه العقوبة : أن مخالطته للناس نشأت من هذه الفتنة ، فعوقب بالطرد والبعد عنهم.

ثم قال له الله : وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً أي : فى الآخرة ، لَنْ تُخْلَفَهُ أي : لن يخلفك الله ذلك الوعد ، بل ينجزه لك البتة ، بعد ما عاقبك فى الدنيا. أو لن تجاوزه ولن تخطئه ، بل لا بد لك من ملاقاته. وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ العجل ، الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً مقيما على عبادته ، لَنُحَرِّقَنَّهُ أي : والله لنحرقنه بالنار ، وقيل بالمبرد ، مبالغة فى الحرق ، ويعضده قراءة : «لَنُحَرِّقَنَّهُ» ، ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ أي : لنذرينه بالريح فِي الْيَمِّ فى البحر ، رمادا ، أو مبرودا كأنه هباء ، نَسْفاً بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر ، وقد فعل عليه السّلام ذلك كله حينئذ ، كما يشهد بذلك الأمر بالنظر ، وإنما لم يصرح به تنبيها على كمال ظهوره ، واستحالة الخلف فى وعده المؤكد باليمين.

ثم نبّه على الحق فقال : إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ أي : إنما معبودكم المستحق للعبادة هو الله. والجملة : استئنافية مسوقة لتحقيق الحق ، إثر إبطال الباطل ، بتلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكل ، ثم وصفه بقوله : الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وحده ، من غير أن يشاركه فى الألوهية شيء من الأشياء ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أي : وسع علمه كل ما من شأنه أن يعلم. وجملة : (وَسِعَ) : بدل من الصلة ، أي : إنما إلهكم : الذي وسع كل شيء علما لا غيره كائنا

---

(١) العقام : الداء الذي لا يبرأ منه.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤١٧

ما كان ، فيدخل فيه العجل دخولا أولياء. وهذا ختم كلام موسى عليه السّلام ، بتقرير أمر التوحيد ، كما كان افتتاح الوحى إليه به بقوله : إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا. والله تعالى أعلم.

الإشارة : انظر أثر حافر فرس جبريل : كيف حييت به الأشباح ، فكيف لا تحيا بتقبيل أثر وطء العارفين بالله ، أو بتقبيل أقدامهم ، بل كان من خضع لهم وقبّل أقدامهم حييت روحه ، وشعشعت أنواره ، وتحقق عرفانه ، كما هو معلوم لأن الخضوع لأولياء الله إنما هو خضوع لله لأنهم يدلون على الله ، ويبعدون عن كل ما سواه. وانظر السامري حين خضع لغير الله بمجرد هواه كيف طرد وأبعد ، حتى صار مثلا فى الناس. فقالت الصوفية : ينبغى للفقير أن يفر من أبناء جنسه ، ويكون كالسامرى ، إذا رأى أحدا قال : لا مساس ، وأنشدوا :

وخف أبناء جنسك ، واخش منهم كما تخشى الضراغم والسّنبتا

وخالطهم ، وزايلهم حذارا وكن كالسامرى إذا لمست

والسنبتاء : كل حيوان جرىء ، وقيل : اسم للنمر ويقال ، لمن ركن إلى شىء دون الله تعالى من علم ، أو عمل ، أو حال ، أو مقام ، أو فنى فى مخلوق : (و انظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا). وفى بعض الأثر : يقول الله : «يا عبدى ، لا تركن لشىء دونى ، فإن ركنت إلى علم جهّلناك فيه ، وإن ركنت إلى عمل رددناه عليك ، وإن ركنت إلى حال وقفناك معه ، وإن ركنت إلى معرفة نكرناها عليك. فأى حيلة لك أيها العبد ، فكن لنا عبدا أكن لك ربا». أو كما قال. وإليه الإشارة بقوله : (إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ ...) الآية.

ثم ذكّر نبيه صلى اللّه عليه وسلم بنعمة اطلاعه على هذه القصص البديعة ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٩٩ الى ١١٠]

كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً (١٠٠) خالِدِينَ فِيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (١٠٢) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً (١٠٣)

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً (١٠٤) وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً (١٠٥) فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً (١٠٦) لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً (١٠٨)

يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (١١٠)

قلت : محل الكاف : نصب على أنه نعت لمصدر محذوف ، أي : نقص عليك قصا مثل ذلك القص المارّ. وما فى الإشارة من معنى البعد للإيذان بعلو درجته – عليه الصلاة والسلام – وبعد منزلته فى الفضل. و(مِنْ أَنْباءِ) :

فى محل النصب ، إما على أنه مفعول (نَقُصُّ) باعتبار معناه ، أي : نقص عليك بعض أنباء ، وإما على أنه متعلق بمحذوف صفة للمفعول ، أي : نقص عليك خبرا كائنا من أخبار ما قد سبق.

يقول الحق جل جلاله : كَذلِكَ أي : مثل ذلك القصص البديع الذي سمعته نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ أي : من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية ليكون تبصرة لك ، وزيادة فى علمك ، وتذكيرا لغيرك ، وعبرة لمن يقف عليه ممن يأتى بعدك. والله تعالى أعلم.

(٤١٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤١٨

الإشارة : حكايات الصالحين وسير العارفين جند من جنود القلب ، فيها تنشيط لمن يريد اللحوق بهم ، وتشويق لمقاماتهم ، وتسلية لمن يصاب فى ذات الله بمثل ما أصابهم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد من أعرض عن القرآن المشتمل على هذه الأنباء الحسان ، فقال :

وَقَدْ آتَيْناكَ ...

قلت : (مَنْ أَعْرَضَ) : شرطية أو موصولة ، وعلى كلّ فهى صفة لذكرا ، و(خالِدِينَ) : حال من فاعل (يَحْمِلُ) ، أو الجمع ، باعتبار معنى «من» ، و(حِمْلًا) : تمييز ، تفسير لضمير (ساءَ) ، والمخصوص محذوف ، أي : ساء حملا وزرهم ، و(يَوْمَ يُنْفَخُ) : بدل من (يَوْمَ الْقِيامَةِ) ، أو منصوب باذكر. و(يَتَخافَتُونَ) : استئناف مبين لحالهم يومئذ ، أو حال أخرى من (الْمُجْرِمِينَ). و(قاعاً) : حال من ضمير (فَيَذَرُها) ، أو مفعول ثان ليذر. و(صَفْصَفاً) : حال ثانية ، أو بدل من المفعول الثاني ، وجملة : (لا تَرى) : استئناف مبين لما سبق من القاع الصفصف ، أو حال أخرى ، و(يَوْمَئِذٍ) : ظرف ليتبعون ، أو بدل من (يَوْمَ الْقِيامَةِ).

يقول الحق جل جلاله : وَقَدْ آتَيْناكَ يا محمد مِنْ لَدُنَّا خصوص عنديتنا ذِكْراً عظيما وقرآنا كريما ، جامعا لكل كمال ، مخبرا بعجائب القصص والأمثال. مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ أي : عن ذلك الذكر العظيم الشأن ، المستتبع لسعادة الدارين ، بأن لم يؤمن به ، فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً أي : عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائر ذنونه. وتسميتها وزرا لتشبيهها فى ثقلها على المعاقب ، وصعوبة احتمالها ، بالحمل الذي يثقل الحامل وينقض ظهره ، وقيل : يجسّم ، ويجعل على ظهره فى طريق الحشر ، والأول أنسب لقوله :

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤١٩

خالِدِينَ فِيهِ أي : فى ذلك الوزر ، وهو العذاب ، أو فى ذلك الحمل الثقيل لاستمراره فيه بعد دخول النار ، وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا أي : بئس حملهم هذا يوم القيامة ، وإعادة يوم القيامة لزيادة التهويل.

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ أي : ذلك اليوم هو يوم ينفخ فى الصور ، أو : اذكر يوم ينفخ فى الصور نفخة البعث ، وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ أي : المشركين يَوْمَئِذٍ أي : يوم ينفخ فى الصور ، وأعاده ، تهويلا ، حال كونهم زُرْقاً أي : زرق العيون. وإنما جعلوا كذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب ، وكانت تتشاءم بزرقة العين ، كما قال الشاعر :

لقد زرقت عيناك يا ابن مكعبر ألا كلّ ضبّيّ من اللؤم أزرق.

وقيل زرقا ، أي : عميا لأن حدقة العين تزرق من شدة العمى. وقيل : عطاشا لأن سواد العين يتغير من شدة العطش ويزرق.

يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ أي : يخفضون أصواتهم ويخفونها لما علا صدورهم من الرعب والهول. يقول فى تلك المخافتة بعضهم لبعض : إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً أي : ما لبثتم فى الدنيا إلا عشر ليال استقصارا لمدة لبثهم فيها ، لزوالها ، أو لتأسفهم عليها ، لما شهدوا الشدائد والأهوال ، أو فى القبر ، وهو الأنسب بحالهم ، فإنهم ، حيث يشاهدون البعث الذي كانوا ينكرونه فى الدنيا ويعدونه من قبيل المحال لا يتمالكون من أن يقولوا ذلك اعترافا به ، وتحقيقا لسرعة وقوعه ، كأنهم قالوا : قد بعثتم وما لبثتم فى القبر إلا مدة يسيرة. وقيل : ما بين النفختين ، وهو أربعون سنة.

روى أنه يرفع العذاب عن الكفار فى تلك المدة ، فيستقصرون تلك المدة إذا عاينوا أهوال يوم القيامة ، لأنهم فى طول مدتهم فى عذاب القبر لا يعقلون.

قال تعالى : نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ ، وهو مدة لبثهم ، أو نحن عالمون اليوم بما يقولون فى ذلك الوقت قبل وقوعه ، إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً أي : أعدلهم رأيا وأوفاهم عقلا : إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً ، ونسبة هذا القول إلى أمثلهم : استرجاع منه تعالى ، لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق ، بل لكونه أدل على شدة الهول.

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ أي : عن مآل أمرها ، وقد سأل عنها رجل من ثقيف ، وقيل : مشركو مكة ، على طريق الاستهزاء ، فَقُلْ لهم : يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً أي : يجعلها كالرمل ، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها ، أو يقلعها ويطرحها فى البحار كالهباء المنثور ، فَيَذَرُها أي : يترك ما كان تحتها من الأرض قاعاً

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٢٠

صَفْصَفاً أي : أرضا مستوية لأن الجبال إذا سويت ، وجعل سطحها مساويا لسائر أجزاء الأرض ، فقد جعل الكل سطحا واحدا. فالضمير فى (فَيَذَرُها) إما للجبال ، باعتبار أجزائها السافلة ، الباقية بعد النسف ، وهى مقارها ومراكزها ، وإما للأرض ، المدلول عليها بقرينة الحال لأنها الباقية بعد نسف الجبال.

والقاع والقيعة : ما استوى من الأرض وصلب ، وقيل : السهل ، وقيل : ما لا نبات فيه. والصفصف : الأرض المستوية الملساء ، فإن أجزاءها صف واحد من كل جهة ، لا تَرى فِيها أي : فى الأرض الذي نسفت جبالها عِوَجاً أي : اعوجاجا وانخفاضا ، وَلا أَمْتاً نتوءا وارتفاعا. قال ابن عباس : العوج : الأودية ، والأمت :

الروابي. وقال مجاهد : العوج : الانخفاض ، والأمت : الارتفاع والمعنى : أنك ، إن تأملت بالمقاييس الهندسية ، وجدتها مستوية الجهات. والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية.

يَوْمَئِذٍ أي : يوم إذ نسفت الجبال ، يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ أي : يتبع الناس داعى الله تعالى إلى المحشر ، وهو إسرافيل عليه السّلام ، يدعو الناس بعد النفخة الثانية ، قائما على صخرة بيت المقدس : أيها الناس هلموا إلى ربكم ، بعد أن يدعوهم إلى الخروج من قبورهم ، قائلا : أيتها العظام النخرة ، والأوصال المتمزقة ، واللحوم المتفرقة قوموا إلى العرض والحساب ، فيقبلون من كل جانب منتشرين ، كأنهم جراد منتشر ، لا يدرون أين يذهبون ، فينادى حينئذ من الصخرة للجمع للحساب. هذا ما تدل عليه الأحاديث والأخبار.

وقوله تعالى : لا عِوَجَ لَهُ أي : لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه ، فلا يزيغ عنه ، بل كلهم يقصدون صوته ، من مشارق الأرض ومغاربها وجوانبها. والتقدير : لا عوج للصوت عن أحد ، بل يصل إليه أينما كان ، ويتوجه إليه حيث كان ، وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ أي : خضعت وسكنت لهيبته فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً أي : صوتا خفيا. والهمس : صوت وطء الأقدام فى نقلها إلى المحشر ، أي : انقطعت أصوات اللسان ، فلا تسمع إلا همس الأقدام فى مشيها إلى المحشر ، من شدة الهيبة والخوف.

يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ أي : يوم إذ يقع ما ذكر من الأمور الهائلة لا تنفع شفاعة أحد ، إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ فى الشفاعة ، كالأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء ، وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا أي : ورضى قوله فى المشفوع له بحيث يقبل شفاعته. وقيل : (وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا) فى الدنيا ، وهو : لا إله إلا الله ، مخلصا من قلبه .. أو : إلا من أذن له الرحمن أن يشفع فيه ، ورضى لأجله قولا من الشافع. وهذا أليق بمقام التهويل. وأما من عداه فلا تنفع ، وإن وقعت لقوله تعالى : فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ «١».

(١) الآية ٤٨ من سورة المدثر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٢١

يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أي : ما تقدمهم من الأحوال ، أو من أمر الدنيا ، وَما خَلْفَهُمْ : وما بعدهم مما يستقبلونه ، أو من أمر الآخرة ، وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً أي : لا تحيط علومهم بذاته المقدسة ، بحيث يدركون كنه الربوبية ، أو : لا تحيط علومهم بمعلوماته تعالى. قال القشيري : الكناية «١» فى قوله : (بِهِ) ، يحتمل أن تعود إلى (ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ) ، ويحتمل أن تعود إلى الحقّ – سبحانه – وهو طريقة السّلف ، يقولون : يعلم الحق ولا يحيط به العلم ، كما قالوا : إنه يرى ولا يدرك. هـ.

الإشارة : وقد آتيناك من لدنّا ذكرا ، أي : قرآنا يجمع القلوب على الله ، ويدل على مشاهدة الله. من أعرض عنه – أي : عن الله – ولم يتوجه إليه بكليته ، فإنه يحمل وزرا ، يثقله عن الترقي إلى مقام العارفين ، فيبقى مخلدا فى حضيض الغافلين ، وذلك فى يوم يجمع اللّه فيه الأولين والآخرين ، فيكرم المتقين ، ويهين المجرمين ، حيث يزول عنهم ما كانوا فيه من الدعة والسعة ، كأنهم ما لبثوا فيه غير ساعة.

ويسألونك ، أيها العارف ، عن جبال العقل ، حين تطلع على نور قمره شمس العرفان ، فقل ينسفها ربى نسفا ، فيذر أرض النفس ، حين استولت عليها أسرار المعاني ، قاعا صفصفا ، لاتصالها بفضاء المعاني ، حين ذهبت أغيار الأوانى ، لا ترى فيها انخفاضا ولا ارتفاعا. وإنما ترى وجودا متصلا ، وبحرا طامسا ، ليس فيه بعد ولا قرب ، ولا علو ولا سفل ، وفى ذلك يقول الشاعر :

من أبصر الخلق كالسراب فقد ترقى عن الحجاب

إلى وجود تراه رتقا بلا ابتعاد ولا اقتراب

ولم يشاهد به سواه هناك يهدى إلى الصواب

فلا خطاب به إليه ولا مشير إلى الخطاب

والمراد بالخلق : جميع الكائنات ، فلا خطاب من العبد إلى ربه ، لمحو العبد من شدة القرب ، ولم تبق له إشارة ولا عبارة. وفى الحكم : «ما العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته ، بل العارف من لا إشارة له لفنائه فى وجوده ، وانطوائه فى شهوده». وقالوا : من عرف الله كلّ لسانه ، وإليه الإشارة بقوله : وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً. وهذا بعد اتباع الداعي إلى الله وصحبته ، من غير عوج عنه ، ولا خروج عن رأيه ، حتى يقول له : ها أنت وربك. فحيئذ تحصل الهيبة

والتعظيم ، فلا يقدر أحد أن يرفع صوته ، وهو فى حضرة الملك الكريم ، وهذا شأن الصوفية ، كلامهم كله تخافت وتسارر لغلبة الهيبة عليهم.

---

(١) أي : الضمير. [.....]

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٢٢

قوله تعالى : يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ أي : فى دخول الحضرة ، (إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ) فى التربية والترقية ، (وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا) ، وهو ذكر الله ، يأمر به من أراد شفاعته فيه ، حتى تستولى عليه أنوار الذكر ، فيدخل مع الأحباب ، ويجلس على بساط الاقتراب ، فحيئذ يحصل له العلم بالله ، على نعت الذوق والوجدان ، وشهود العيان ، لا على نعت الدليل والبرهان.

وقوله تعالى : وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً إشارة إلى عدم الإحاطة بكنه الربوبية لمن دخل الحضرة ، فلو حصل لهم الإحاطة بالكنه لم يبق ترقّ ، وكيف؟ وهم يترقون فى أسرار الذات وأنوار الصفات دائما سرمدا ، فى هذه الدار وفى تلك الدار! ، ففى كل ساعة يتجدد لهم من لذيذ المشاهدات وأنوار المكاشفات ، ما تعجز عنه العقول ، وتكلّ عنه طروس النقول. نعم يحصل لهم العلم الضروري بالذات العلية ، ويشاهدون ما تجلى من أسرارها وأنوارها ، وتسرح فكرتهم فى بحر الأولية والآخرية ، والظاهرية والباطنية ، والعظمة الفوقية وما تحت الثرى ، ويخوضون فى بحار الأحدية ، ويتفكرون فى قاموس كنه الربوبية ، فلا خوف ولا ملل ، من غير إحاطة ، كما تقدم. والله تعالى أعلم.

فإذا رجعوا إلى مشاهدة الرسوم خضعت وجوههم للحى القيوم ، كما قال تعالى :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١١١ الى ١١٢]

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً (١١٢)

قلت : (وَ قَدْ خابَ ..) إلخ : استئناف ، تعليل ما لأجله عنت وجوههم ، أو اعتراض ، كأنه قيل : خابوا وخسروا ، أو حال من الوجوه ، و(مَنْ) : عبارة عنها ، مغنية عن ضميرها ، أي : خضعت الوجوه ، والحال أنها خابت حين حملت ظلما. وقيل : (الْوُجُوهُ) على العموم ، فالمعنى حينئذ : وقد خاب من حمل منهم ظلما ، ومن قرأ : «فلا يخف» : فعلى النهى ، وهو جواب ، ومن قرأ بالرفع : فعلى الخبر ، أي : فهو لا يخاف.

يقول الحق جل جلاله : وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ أي : ذلت وخضعت خضوع العناة ، أي :

الأسارى فى يد الملك القهار ، ومنه قيل للأسير : «عان» ، أي : خاضع ذليل ، وفى ذلك يقول أمية بن أبى الصلت :

مليك على عرش السّماء مهيمن لعزّته تعنو الوجوه وتسجد

ولعلها وجوه المجرمين ، كقوله تعالى : سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا «١» ، ويؤيده وصله بقوله : وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً أي : وعنت الوجوه لأنها قد خابت وخسرت حين حملت ظلما.

---

(١) من الآية ٢٧ من سورة الملك.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٢٣

قال ابن عباس رضي اللّه عنه : (خسر من أشرك بالله ولم يتب) ، فإنما تذل وجوه من أشرك بالله ، وأما أهل التوحيد فأشار إليهم بقوله : (وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ ...) إلخ ، فهو قسيم لقوله : (وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً) ، لا لقوله :

(وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ).

وإذا حملنا (عَنَتِ) على مطلق الخضوع أو السجود كان عاما لأن الخلائق كلها تخضع لله فى ذلك الوقت. ثم فصلهم : فمن حمل ظلما فقد خاب وخسر ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ أي : بعضها ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فالإيمان شرط فى صحة الطاعات وقبول الحسنات ، فَلا يَخافُ ظُلْماً أي : منع ثواب قد استحقه بموجب الوعد ، أو زيادة عقاب على موجب سيئاته ، وَلا هَضْماً أي : كسرا ونقصا من ثواب حسناته ، وأصل الهضم :

النقص والكسر يقال : هضمت لك من حقك ، أي : حططت ، وهضمت الطعام : حططته إلى أسفل المعدة ، وامرأة هضيمة الكشح : أي : ضامرة البطن ، فالحق تعالى إنما تعرض لنفى الظلم والهضم عن عامل الصالحات لأن نفى ذلك إنما يكون مع العمل ، ففيه يتوهم الهضم والنقص ، وأما بدونه فلا .. نعم ، الإيمان المجرد نافع على مذهب أهل السنة ، لكن صاحبه على خطر فى نفوذ الوعيد ، ولو غفر له ، فإنه ناقص عن درجة عامل الصالحات ، كما علم شرعا. والله تعالى أعلم.

الإشارة : إذا سرحت الفكرة وجالت فى أقطار الملكوت وأسرار الجبروت ، وتحققت بعدم الإحاطة ، رجعت إلى عش العبودية ، وخضعت للحى القيوم ، وقد خاب وخسر من لم يبلغ إلى هذا المقام ، حين حمل ظلما بالميل إلى الشيء من السّوى ، بغلبة الطبع والهوى ، وأما من نهض إلى مولاه ، واشتغل بالأعمال التي تقربه إلى حضرته ، فلا يخاف ظلما ولا هضما فإن الله يرفع العبد على قدر همته ،

وينعمه على قدر طاعته. وبهذا جاء الوحى والتنزيل ، كما قال تعالى :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١١٣ الى ١١٤]

وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّاوَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (١١٣) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (١١٤)

قلت : (وَ كَذلِكَ) : عطف على قوله : (كَذلِكَ نَقُصُّ) ، و«ذلك» : إشارة إلى إنزال ما سبق من الآيات المتضمنة للوعيد ، المنبئة عما سيقع من أهوال يوم القيامة.

(٤٢٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٢٤

يقول الحق جل جلاله : وَكَذلِكَ أي : ومثل ذلك الإنزال المتقدم ، أَنْزَلْناهُ أي : القرآن كله ، وإضماره ، من غير سبقية ذكره للإيذان بنباهة شأنه ، وكونه مركوزا فى العقول ، حاضرا فى الأذهان ، حال كونه : قُرْآناً عَرَبِيًّا ليفهمه العرب ، ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز ، الدال على كونه خارجا عن طوق البشر ، نازلا من عند خلّاق القوى والقدر. وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ أي : كررنا فيه بعض الوعيد ، أو من جنس الوعيد ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أي : كى يتقوا الكفر والمعاصي بالفعل ، أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً اتعاظا واعتبارا يؤديهم إلى الاتقاء ، فَتَعالَى اللَّهُ أي : تعاظم شأنه عما يصفه الكفرة ، وتهاون العصاة ، الذين لم يحدث فيهم القرآن زجرا ولا وعظا ، أي : ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأفعاله ، الْمَلِكُ لها ، النافذ أمره ونهيه ، الحقيق بأن يرجى وعده ، ويخشى وعيده ، الْحَقُّ فى ألوهيته لذاته ، أو الثابت الذي لا يمكن عدمه ، أزلا وأبدا.

وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ أي : وإذا كنا أنزلنا عليك قرآنا عربيا ، وصرفنا فيه من الوعيد ، فأمهل عند نزوله ، حتى يقرأه عليك الملك ، ولا تعجل به قبل أن يتم وحيه ، ويفرغ من قراءته عليك.

كان صلى اللّه عليه وسلم ، إذا ألقى جبريل عليه الوحى ، يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة ، لكمال اعتنائه بالتلقى والحفظ ، فنهى عن ذلك لأنه ربما يشغله التلفظ بكلمة عن سماع ما بعدها ، ولأنّ المراد من الألفاظ فهم المعاني المتضمنة للعلوم التي لا حصر لها ، ولذلك أمره باستفاضة العلم واستزادته منه فقال : وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً أي : وقل فى نفسك ، أو بلسانك : رب زدنى علما ، والمراد : سل الله عز وجل زيادة العلم به وبأحكامه إذ لا نهاية لعلمه كما لا نهاية لذاته ، فإنه الموصل إلى مطلبك دون الاستعجال. والله تعالى أعلم.

الإشارة : وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا ، يعرب عن كمال ظهور ذاته وأنوار صفاته ، وصرفنا فيه من الوعيد

، لمن تخلف عن شهوده ، بعد كمال ظهوره ، لعلهم يتقون ما يحجبهم عن رؤيته ، أو يحدث لهم ذكرا ، أي : شوقا يزعجهم إلى النهوض إلى حضرته ، والوصول إليه ، فتعالى الله الملك الحق أن يتصل بشيء ، أو يتصل به شيء «١» ، وإنما الوصول إليه : العلم بإحاطته ووحدة ذاته.

ولا تعجل ، أيها العارف ، بالقرآن الذي ينزل على قلبك من وحي الإلهام ، من قبل أن يقضى إليك وحيه ، فإنّ الواردات الإلهية تأتى مجملة ، وبعد الوعى يكون البيان ، (فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ)

، ولكن استزد من ربك العلوم اللدنية والكشوفات الإلهية ، أي : لا يكن همك استعجال الواردات أو بقاءها ، وليكن همك استزادة العلوم ومعرفة واهبها ، فإن العلوم وسائل لمعرفة المعلوم ، والوصول للحى القيوم. وبالله التوفيق.

---

(١) رحم الله الشيخ ابن عجيبة ، وأثابه على هذه الكلمة العظيمة. ولنا أن نفهم منها نفى الحلول والاتحاد ، الذي هو مذهب أهل الزيغ والإلحاد.

ثم بيّن تصريف الوعيد على ارتكاب العصيان وبيان منشئه ، وهو عداوة الشيطان فقال : (وَ لَقَدْ ..) إلخ .. أو تقول :

لما نهاه عن العجلة لأجل خوف النسيان ، قال له : قد نسى أبوك آدم ، فالنسيان من طبع الإنسان ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١١٥ الى ١٢١]

وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (١١٥) وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى (١١٦) فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى (١١٩)

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى (١٢٠) فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى (١٢١)

قلت : يقال : عهد إليه الملك ، وأوعد إليه ، وتقدم إليه : إذا أمره ووصاه.

يقول الحق جل جلاله : وَاللهِ لَقَدْ عَهِدْنا وتقدمنا إِلى آدَمَ من غرور الشيطان وعداوته ، ووصيناه ألا يغتر به ، فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ، فلا تغتر بنصحه ، فَنَسِيَ ذلك العهد ولم يحتفل به ،

حتى غفل عنه ، واغتر بإظهار نصحه ، حتى أكل من الشجرة ، متأولا أن النهى للتنزيه ، أو عن عين الشجرة ، لا عن جنسها ، فأكل من غيرها ، وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً أي : ثبات قدم ، وحزما فى الأمور ، إذ لو كان كذلك لما غرّه الشيطان بوسوسته ، وقد كان ذلك منه عليه السّلام فى بدء أمره ، قبل أن يجرب الأمور ويتولى حارها وقارها ، ويذوق شرّيها وأريها «١». وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «لو وزنت أحلام بنى آدم – أي : عقولهم – بحلم آدم ، لرجح حلمه» «٢».

وقيل : (وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) على الذنب ، فإنه أخطأ ، أو تأول ، ولم يتعمد ، وأما قوله : (وَ عَصى ...) فلعلو شأنه وقربه عد عصيانا فى حقه ، «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

ثم شرع فى بيان المعهود ، وكيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه ، فقال : وَإِذْ قُلْنا أي : واذكر وقت قولنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، وتعليق الذكر بالوقت ، مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة فى إيجاب ذكرها ، فإن الوقت مشتمل على تفاصيل الأمور الواقعة فيه ، فالأمر بذكره أمر بذكر تفاصيل ما وقع فيه

---

(١) الشّرى : الحنظل ، والأرى : العسل.

(٢) أخرجه ابن جرير فى التفسير (١٦/ ٢٢١) ، وسعيد بن منصور ، وابن عساكر ، وابن المنذر ، كما عزاه لهم السيوطي فى الدر المنثور (٤/ ٥٥٣) عن أبى أمامة الباهلي ، موقوفا.

بالطريق البرهاني ، أي : اذكر ما وقع فى ذلك الوقت منا ومنه ، حتى يتبين لك نسيانه وفقدان عزمه ، فقد أمرنا الملائكة بالسجود فَسَجَدُوا كلهم إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى السجود واستكبر ، أو فعل الإباء وأظهره.

فَقُلْنا عقب ذلك ، اعتناء بنصحه ، وهو العهد الذي عهدناه إليه : يا آدَمُ إِنَّ هذا الذي رأيته فعل ما فعل عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ حيث لم يرض بالسجود لك ، فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ أي : لا يكونن سببا لإخراجكما من الجنة ، والمراد : نهيهما عن الاغترار به ، فَتَشْقى : جواب النهى ، أي : فتتعب بما ينالكما من شدائد الدنيا ، من الجوع والعطش ، والفقر والضر ، وتعب الأبدان فى تحصيل المعاش واللباس ، فيكون عيشك من كد يمينك. قال ابن جبير : (أهبط إلى آدم ثور أحمر ، فكان يحرث عليه ، ويمسح العرق عن جبينه ، فهو شقاؤه). ولم يقل : فتشقيا لأنه غلّب الذّكر لأن تعبه أكثر ، مع مراعاة الفواصل.

قال تعالى له : إِنَّ لَكَ يا آدم أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى من فقد اللباس ، وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا :

لا تعطش فِيها ، وَلا تَضْحى تبرز للشمس فيؤذيك حرها ، إذ ليس فى الجنة شمس ولا زمهرير. والعدول عن التصريح له بما فى الجنة من فنون النعم من المآكل والمشارب ، والتمتع بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية – مع أن فيها من الترغيب فى البقاء فيها ما لا يخفى – إلى ما ذكر من نفى نقائضها ، التي هى الجوع والعطش والعرى والضحو لتنفير تلك الأمور المنكرة ليبالغ فى التحامى عن السبب المؤدى إليها ، على أن الترغيب قد حصل له بما أباح له من التمتع بجميع ما فيها ، سوى ما استثنى من الشجرة ، حسبما نطق به قوله تعالى : يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما «١» ، وقد طوى ذكرها هنا اكتفاء بما فى موضع آخر ، واقتصر هناك على ما ذكر من الترغيب المتضمن للترهيب ، ونفى الجوع وما بعده عن أهل الجنة لأنهم لا يعوزون طعاما ولا شرابا ولا كنّا ، بل كلما تمتعوا بشيء مما ذكر ، أتبعهم بأمثاله أو أفضل منه ، من غير أن ينتهوا إلى حد الضرورة.

قال تعالى : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ أي : أنهى إليه وسوسته ، أو أسرها إليه ، قالَ فيها : يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ؟ أي : شجرة من أكل منها خلد ، ولم يمت أصلا ، سواء كان على حاله ، أو بأن يكون ملكا ، وَأدلك على مُلْكٍ لا يَبْلى أي : لا يفنى ولا يزول ، ولا يختلّ بوجه من الوجوه ، فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما قال ابن عباس رضي اللّه عنه : عريا عن النور الذي كان الله تعالى ألبسهما ، حتى بدت فروجهما.

وَطَفِقا يَخْصِفانِ يرقعان عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وقد تقدم فى الأعراف «٢».

---

(١) من الآية ٣٥ من سورة البقرة.

(٢) راجع تفسير الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

الإشارة : ولقد عهدنا إلى آدم ألا ينسانا ، وألا يغيب عن شهودنا بمتعة جنتنا ، فنسى شهودنا ، ومال إلى زخارف جنتنا ، فأنزلناه إلى أرض العبودية ، حتى يتطهر من البقايا ، وتكمل فيه المزايا ، فحينئذ نسكنه فى جوارنا ، ونكشف له عن حضرة جمالنا ، على سبيل الخلود فى دارنا.

قال جعفر الصادق : عهدنا إلى آدم ألا ينسانا ، فنسى واشتغل بالجنة ، فابتلى بارتكاب النهى ، وذلك أنه ألهاه النعيم عن المنعم ، فوقع من النعمة فى البلية ، فأخرج من النعيم والجنة ليعلم أن النعيم هو مجاورة المنعم ، لا الالتذاذ بالأكل والشرب. فلا ينبغى لأحد أن ينظر إلى ما سواه ، نسأل الله تعالى أن يمدنا وإياك بالتوفيق والعناية. هـ. قال بعض الحكماء : إنما نسى آدم العهد لأنه لما خلقت له زوجته

أوقع الله فى قلبه الأنس بها ، وابتلاه بشهوات النفس فيها ، فرأى فى وجهها شجرة الحسن بادية ، وشهوة الوقاع عليه غالبة. هـ. أي : فترك النظر إلى جمال المعاني ، واشتغل بحس الأوانى ، فأفضى به إلى ترك الأدب ، ولزمه التعب ، فليحذر المريد جهده من الميل إلى الحظوظ ، وليكن على حذر من الغفلة حين تناولها ، والعصمة من الله.

وقوله تعالى : وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ، قال الحاتمي : أي : على انتهاك الحرمة ، بل وقع بمطالعة قدر سابق ، أنساه ما توجه على التركيب من خطاب الحجر. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : وبما أشار إليه من مطالعة القدر يتضح لك قوله عليه السّلام : «فحج آدم موسى» «١» ، وليس ذلك لغيره إن لم يكن مجبورا ومأخوذا عنه ، وهذا القدر هو الفارق بين ما يجرى من المخالفة على الولي وغيره. وقد نبه على ذلك الجنيد بقوله : (و كان أمر الله قدرا مقدورا) ، فأشار لغلبة القدر وقهره ، من غير وجود عزم من العبد. هـ. قلت : احتجاج آدم وموسى – عليهما السلام – لم يكن فى عالم الأشباح ، الذي هو محل التشريع ، إنما كان فى عالم الأرواح ، الذي هو محل التحقيق ، فالنظر فى ذلك العالم الروحاني ، إنما هو لسر الحقيقة ، وهو ألا نسبة لأحد فى فعل ولا ترك ، فمن احتج بهذا غلب ، بخلاف عالم الأشباح ، لا يصح الاحتجاج بالقدر لأن فيه خرق رداء الشريعة. فتأمله.

وقال فى التنوير : اعلم أن أكل آدم من الشجرة لم يكن عنادا ولا خلافا ، فإما أن يكون نسى الأمر ، فتعاطى الأكل وهو غير ذاكر ، وهو قول بعضهم ، ونحمل عليه قوله سبحانه : (فَنَسِيَ) ، وإن كان تناوله ، ذاكرا للأمر ، فهو إنما تناول لأنه قيل له : ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ ... «٢» الآية ، فلحبه فى الله ، وشغفه به ، أحب ما يؤديه إلى الخلود فى جواره والبقاء عنده ، أو ما يؤديه إلى الملكية لأن آدم عليه السّلام عاين قرب الملائكة من الله ،

---

(١) أخرجه البخاري فى (القدر ، باب تحاج آدم وموسى عند اللّه) ، ومسلم فى (القدر ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام) عن أبى هريرة. واللفظ : «حاج موسى آدم ، فقال له : أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم : يا موسى أنت الذي اصطفاك اللّه برسالاته وبكلامه ، أتلومني على أمر كتبه اللّه علىّ قبل أن يخلقنى؟ فحج آدم موسى».

(٢) من الآية ٢٠ من سورة الأعراف.

فأحب أن يأكل من الشجرة ليتناول الملكية ، التي هى فى ظنه أفضل ، لا سيما وقد قال سبحانه :

وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ «١» ، قال آدم عليه السّلام : (ما ظننت أن أحدا يحلف بالله كاذبا) ، فكان كما قال الله سبحانه :

فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ. هـ.

وسئل ابن عطاء عن قوله تعالى : هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ؟ فقال : قال آدم عليه السّلام : يا رب لم أدّبتنى ، وإنما أكلت من الشجرة طمعا فى الخلود فى جوارك؟ فقال الله : يا آدم طلبت الخلود من الشجرة لا منى ، والخلود بيدي وملكى ، فأشركت بي ، وأنت لا تعلم ، ولكن نبهتك بالخروج من الجنة حتى لا تنسانى فى وقت من الأوقات. هـ.

والحاصل : أنه إمّا أن يحمل النسيان على حقيقته ، ويكون معه وقوع الأكل بمطالعة القدر وقبضة الجبر ، ولا يعارضه : ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ لأنه اتفق ذلك صورة وظاهرا ، مع شهود الجبر باطنا ، وإمّا أن يحمل النسيان على الترك ، بتأويل أن النهى ليس على التحتم ، فتركه لما أمل من جوار الحق وقربه فى الأكل ، فقدمه لأنه أرجح عنده. قاله المحشى.

وقوله تعالى : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ ... الآية ، يؤخذ منه سد باب التأويلات والرخص فى الأمر الممنوع شرعا ، فإن أبيح بعضه ومنع البعض فلا توسعة ، فلأن تترك مباحا خير من أن تقع فى محرم ، وقد كان السلف يتركون مائة جزء من المباح ، خوفا من الوقوع فى المحرم. والله الهادي إلى سواء الطريق.

ثم قال تعالى :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١٢٢ الى ١٢٧]

ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى (١٢٢) قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى (١٢٤) قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥) قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى (١٢٦)

وَكَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى (١٢٧)

---

(١) الآية ٢١ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٢٩

يقول الحق جل جلاله : وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ بما ذكر من أكل الشجرة فَغَوى أي : ضل عن مطلوبه ، الذي

هو الخلود ، بل ترتب عليه نقيضه ، فكان تأميل ذلك باطلا فاسدا لأنه خلاف القدر ، أو عن الرشد ، حيث اغتر بقول العدو. وقال الكواشي : فعل فعلا لم يكن له فعله ، أو أخطأ طريق الحق ، حيث طلب الخلد بأكل المنهي عنه ، فخاب ولم ينل مراده. هـ. وفى وصفه عليه السّلام بالعصيان والغواية ، مع صغر زلته ، تعظيم لها ، وزجر بليغ لأولاده عن أمثالها.

ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ ، أي : اصطفاه وقرّبه إليه ، بالحمل على التوبة والتوفيق لها. وفى التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره ، مزيد تشريف له عليه السّلام ، يعنى : آدم. فَتابَ عَلَيْهِ أي : قبل توبته حين تاب هو وزوجته ، قائلين : رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا ... «١» الآية. وَهَدى أي : هداه إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب العصمة. وإفراد آدم عليه السّلام بقبول توبته واجتبائه لأصالته فى الأمور ، واستلزام قبول توبته لقبول توبتها. الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ «٢».

قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً ، وهو استئناف بيانى ، كأنّ سائلا قال : فما قال تعالى بعد قبول توبته؟ فقيل : قال له ولزوجته : (اهْبِطا مِنْها) أي : انزلا من الجنة إلى الأرض ، حال كونكم بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ أي : متعادين فى أمر المعاش ، كما عليه الناس من التجاذب والتحارب والاختلاف فى الدين. والجمع لأنهما أصل الذرية ومنشأ الأولاد. وفى اللباب : ولما أهبطوا إلى الأرض ألقى آدم يده تحت خده ، وبكى مائة سنة ، وألقت حواء يدها على رأسها ، وجعلت تصيح وتصرخ ، فبقيت سنة فى النساء. ولم يزل آدم يبكى حتى صار بخديه أخاديد من كثرة الدموع ، وجرى من عينيه على الأرض جدولان ، يجريان إلى قيام الساعة. وأهبط آدم على ورقة من ورق الجنة ، كان يتستر بها ، وفى يده قبضة من ريحان الجنة ، فلما اشتغل بالبكاء أدارتها الرياح فى أرض الهند ، فصار أكثر نباتها طيبا. انظر بقية كلامه.

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً أي : هداية من رسول وكتاب يهدى إلى الوصول إلىّ ، أي : سيأتيكم منى رسل وكتاب. والخطاب لهما بما اشتملا عليه من ذريتهما. فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ بأن آمن بالرسل وبما جاءوا به من عند الله فَلا يَضِلُّ فى الدنيا وَلا يَشْقى فى الآخرة. ووضع الظاهر موضع المضمر يعنى : من اتبع هداى ، مع الإضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة فى إيجاب اتباعه. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : (من قرأ الفرقان ، واتبع ما فيه ، هداه الله من الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ، وذلك لأن الله تعالى يقول : فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ «٣» أي : كتابى ورسولى ، فَلا يَضِلُّ فى الدنيا ، وَلا يَشْقى فى الآخرة.) وفى لفظ آخر : (أجار الله

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٣٤ من سورة النساء.

(٣) أخرجه الطبري فى التفسير (١٦/ ٢٥٥) موقوفا ، وعزاه السيوطي فى الدر (٤/ ٥٥٦) لابن أبى شيبة والطبراني وأبى نعيم فى الحلية وابن مردويه ، مرفوعا.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٣٠

تابع القرآن أن يضل فى الدنيا ويشقى فى الآخرة). قال ابن عرفة : والعطف بالفاء فى قوله : (فَإِمَّا ..) إلخ ، إشارة إلى أن العداوة سبب فى أن يبعث لهم الرسل يهدونهم إلى طريق الحق ، فضلا منه تعالى ، ولذلك أتى «بإن» ، دون «إذا» المقتضية للتحقيق الموهم للوجوب. فانظره.

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي عن القرآن ، أو عن الهدى الذاكر لى والداعي إلىّ ، فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً : ضيقا ، مصدر وصف به ، ولذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث ، يقال : منزل ضنك وعيشة ضنك. وقرئ : «ضنكى» كسكرى. وإنما كان عيشه ضيقا لأن مجامع همته ، ومطامح نظره مقصورة على أغراض الدنيا ، وهو متهالك على ازديادها ، وخائف من انتقاصها ، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة ، فإنّ نور الإيمان يوجب له القناعة ، التي هى رأس الغنى وسبب الراحة ، فيحيى حياة طيبة. وقيل : هو عذاب القبر. وروى ذلك عن النبي صلى اللّه عليه وسلم. قال أبو سعيد الخدري : «يضيق عليه قبره ، حتى تختلف أضلاعه ، ويسلط عليه تسعة وتسعون تنينا ...» الحديث ، وقيل : الصبر على الزقوم والضريع والغسلين.

وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى : فاقد البصر كقوله : وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً «١». لا أعمى عن الحجة كما قيل. قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً فى الدنيا؟ قالَ كَذلِكَ أي : مثل ذلك فعلت أنت أَتَتْكَ آياتُنا أي : حجتنا النيرة على أيدى رسلنا فَنَسِيتَها أي : عميت عنها ، وتركتها ترك المنسى الذي لا يذكر قط ، وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى : تترك فى العمى والعذاب ، جزاء وفاقا. وحشره أعمى لا يدل على دوامه ، بل يزيله عنه فيرى أهوال الموقف ومقعده ، وكذلك الصمم والبكم يزيلهما الله تعالى عنهم. أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا «٢» ، فيوم القيامة ألوان. ثم قال تعالى : وَكَذلِكَ أي : مثل ذلك الجزاء الموافق للجنايات. نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وتعدى بالانهماك فى الشهوات ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ ، بل كذّب بها وأعرض عنها ، وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ على الإطلاق ، أو عذاب النار ، أَشَدُّ وَأَبْقى من ضنك العيش ، أو منه ومن الحشر أعمى ، عائذا بالله من جميع ذلك.

الإشارة : قوله تعالى : وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ ، اعلم أن العصيان الحقيقي هو عصيان القلوب ، كالتكبر على عباد الله وتحقير شيء من خلق الله ، وكالاعتراض على مقادير الله ، وعدم الرضا بأحكام الله. قال بعض الصوفية : (أذنبت ذنبا فأنا أبكى منه أربعين سنة ، قيل : وما هو؟ قال : قلت لشيء كان : ليته لم يكن). وأما معصية

(١) من الآية ٩٧ من سورة الإسراء.
(٢) من الآية ٣٨ من سورة مريم. [.....]

(٤٣٠/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٣١
الجوارح ، إن لم يكن معها إصرار ، فقد توجب القرب من الكريم الغفار «معصية أورثت ذلا وافتقارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا» ، وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول. وتأمل معصية إبليس حيث كانت من القلب أورثت طردا وإبعادا ، ومخالفة آدم حيث كانت بالجوارح أورثت قربا واجتباء.
والحاصل : أن كل ما يردّ العبد إلى مولاه ، ويحقق له العبودية والانكسار ، فهو شرف له وكمال ، وكل ما يقوى وجود النفس ورفعتها فهو نقص وإبعاد ، كائنا ما كان ، فالعصمة والحفظة إنما هى من المعاصي القلبية ، أو من الإصرار ، وأما معاصى الجوارح فيجرى على العبد ما كتب ، ولا تنقصه ، بل تكمله ، كما تقدم. فالتنزيه إنما يكون من النقائص ، وهى التي توجب البعد عن الحق ، لا مما يؤدى إلى الكمال ، وبهذا تفهم أن ما وقع من الأنبياء – عليهم السلام – مما صورته المعصية ، ليس بنقص ، إنما هو كمال. وكذا ما يصدر من الأولياء ، على سبيل الهفوة ، فتأمله ، ولا تبادر بالاعتراض ، حتى تصحب الرجال ، فيعلموك النقص من الكمال.
قال الواسطي : العصيان لا يؤثر فى الاجتبائية ، وقوله : وَعَصى أي : أظهر خلافا ، ثم أدركته الاجتبائية ، فأزالت عنه مذمة العصيان ، ألا ترى كيف أظهر عذره بقوله : فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً. هـ. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه : (نعمت المعصية أورثت الخلافة).
واعلم أن آدم عليه السّلام قد أهبط إلى الأرض قبل أن يخلق ، قال تعالى : إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً «١» فقد استخلفه قبل أن يخلقه ، لكن حكمته اقتضت وجود الأسباب ، فكان أكله سببا فى نزوله للخلافة والرسالة وعمارة الأرض ، فهو نزول حسا ، ورفعة معنى ، وكذلك زلة العارف تنزله لشرف العبودية ، فيرتفع قدره عند الله.
وقوله تعالى : (بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) ، هذا فيمن غلبت عليه الطينية الإمشاجية ، وأما من غلبت عليه الروحانية فهم إخوان متحابون ، أخلاء متقون ، قال تعالى : الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ «٢».
وقوله تعالى : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً) أي : داع يدعو إلىّ ، ويهدى إلى معرفتى ودخول حضرتى ، فمن تبعهم دخل تحت تربيتهم ، فلا يضل ولا يشقى ، بل يهتدى ويسعد السعادة العظمى. ومن أعرض

عن ذكرهم ووعظهم ، وتنكب عن صحبتهم ، فإن له معيشة ضنكا ، مصحوبة بالحرص والطمع ، والجزع والهلع ، ونحشره يوم القيامة أعمى عن شهود ذاتنا ، فلا يرى إلا الأكوان الحسية ، والزخارف الحسية دون أسرار الذات القدسية. قال ربّ لم حشرتنى أعمى عن شهود أسرار المعاني ، عند رؤية الأوانى ، وقد كنت بصيرا فى الدنيا ببصر الحس؟ قال : كذلك أتتك آياتنا ، وهم الأولياء العارفون ، فنسيتها ، ولم تحتفل بشأنها ، وكذلك اليوم تنسى لأن المرء يموت على ما عاش عليه ، ويبعث على ما مات عليه.

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزخرف.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٣٢

قال الورتجبي : ونحشره يوم القيامة أعمى ، يعنى : جاهلا بوجود الحق ، كما كان جاهلا فى الدنيا ، كما قال علىّ –كرم الله وجهه – : من لم يعرف الله فى الدنيا لا يعرفه فى الآخرة. وقيل : عن رؤية أوليائه وأصفيائه. هـ.

وقال القشيري : فى الخبر : «من كان بحالة لقى اللّه بها» «١». فمن كان فى الدنيا أعمى القلب ، يحشر على حالته ، يعيش على ما جهل ، ويحشر على ما جهل ، ولذلك يقولون : (من بعثنا من مرقدنا)؟ إلى أن تصير معارفهم ضرورية ، كما يتركون التدبّر فى آياته يتركون غدا فى العقوبة من غير رحمة على ضعف حالاتهم. هـ.

وكذلك نجزى من أسرف بالعكوف على شهواته ، واغتنام أوقات لذاته ، حتى انقضت أيام عمره فى البطالة ، نجزيه غم الحجاب والبعد عن حضرة الأحباب ، حيث لم يصدق بوجود آيات ربه وهم الدعاة إلى الله. ولعذاب حجاب الآخرة أشد وأبقى لدوامه واتصاله ، نعوذ بالله من غم الحجاب وسوء الحساب ، والتخلف عن حضرة الأحباب. وبالله التوفيق.

ثم حضّ على الاعتبار فى هذه الدار ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١٢٨ الى ١٣٠]

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (١٢٨) وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى (١٣٠)

قلت : (أَ فَلَمْ) : الهمزة للإنكار التوبيخي ، والفاء للعطف على محذوف ، أي : أغفلوا فلم يهد لهم. وعدي الهداية باللام لتضمنها معنى التبيين ، والفاعل مضمون (كَمْ أَهْلَكْنا) ، أي : أفلم يبين لهم مآل أمرهم كثرة إهلاكنا للقرون الأولى؟ وقيل : الفاعل ضمير عائد إلى الله. و(كَمْ ..) إلخ : معلق للفعل سد مسد مفعوله. أي : أفلم يبين الله لهم كثرة إهلاك القرون من قبلهم؟ والأوجه : أن لا يلاحظ له مفعول ، كأنه قيل : أفلم يفعل الله لهم الهداية ، ثم قيل بطريق الالتفات : كم أهلكنا .. إلخ بيانا لتلك الهداية. و(مِنَ الْقُرُونِ) : فى محل نصب ، نعت لمفعول محذوف ، أي : قرنا كائنا من القرون.

---

(١) يؤيد هذا قوله – صلى اللّه عليه وسلم : «من مات على شيء بعثه الله عليه». أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ٣١٤) ، والحاكم فى المستدرك (٤/ ٣١٢) من حديث جابر رضي اللّه عنه.

(٤٣٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٣٣

وجملة (يَمْشُونَ) : حال من القرون ، أي : أهلكناهم وهم فى حال أمن وتقلب فى ديارهم ، أو من الضمير فى «لَهُمْ» ، مؤكد للإنكار ، والعامل : «يَهْدِ» ، والمعنى : أفلم يهد لهم إهلاكنا للقرون السالفة ، كقوم نوح ولوط وأصحاب الأيكة ، حال كونهم ، أي : قريش – ماشين فى مساكنهم إذا سافروا إلى الشام ، و(أَجَلٌ مُسَمًّى) : عطف على (كَلِمَةٌ) ، أو استئناف ، أي : وأجل مسمى حاصل لهم.

يقول الحق جل جلاله : أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ أي : أو لم يبين لهم عاقبة أمرهم كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أي : كثرة إهلاكنا للقرون السالفة قبلهم ، وهم يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إذا سافروا إلى الشام ، كأصحاب الحجر ، وثمود ، وفرعون ، وقوم لوط ، مشاهدين لآثار ديارهم خاربة ، مع علمهم بما جرى عليهم ، بسبب تكذيبهم ، فإنّ ذلك مما يوجب أن يهتدوا إلى الحق ، فيعتبروا ، لئلا يحل بهم مثل ما حلّ بأولئك ، أو : أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كثرة إهلاكنا للقرون السالفة قبلهم ، حال كونهم آمنين ، يَمْشُونَ فى ديارهم ويتقلبون فى رباعهم فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ «١».

إِنَّ فِي ذلِكَ الإهلاك الفظيع لَآياتٍ كثيرة عظيمة واضحة الهداية ، دالة على الحق لِأُولِي النُّهى لذوى العقول الناهية عن القبائح ، التي من أقبحها ما يتعاطاه كفار مكة من الكفر بآيات الله ، والتعامي عنها ، وغير ذلك من فنون المعاصي.

وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ، وهو تأخير العذاب عن هذه الأمة إلى الآخرة لحكمة ، لعجلنا لهم الهلاك كما عجلنا لتلك القرون المهلكة ، التي يمرون عليها ولا يعتبرون ، فأصروا على الكفر والعصيان

، فلو لا تلك العدة بتأخير العذاب لَكانَ لِزاماً أي : لكان عقاب جناياتهم لازما لهؤلاء الكفرة ، بحيث لا يتأخرون عن جناياتهم ساعة ، لزوم ما أنزل بأولئك الغابرين ، وفى التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره – عليه الصلاة والسلام – تلويح بأن ذلك التأخير تشريف له صلى اللّه عليه وسلم ، كما ينبىء عنه قوله تعالى : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ «٢» واللزام : مصدر لازم ، وصف به للمبالغة ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى أي : لو لا كلمة سبقت بتأخيرهم ، وأجل مسمى لأعمارهم أو عذابهم ، وهو يوم القيامة ، أو يوم بدر ، لما تأخر عذابهم أصلا. وإنما فصله عما عطف عليه ، للمسارعة إلى بيان جواب «لَوْ لا» ، وللإشعار باستقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب المعجل ، ومراعاة فواصل الآية الكريمة.

---

(١) كما جاء فى الآية ٧٨ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ أي : إذا كان الأمر على ما ذكرنا من أن تأخير عذابهم ليس بإهمال ، بل إمهال ، وأنه لازم لهم البتة. فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر فإن علمه صلى اللّه عليه وسلم بأنهم هالكون لا محالة مما يسليه ويحمله على الصبر ، أو اصبر على ما يقولون ، واشتغل بالله عنهم ، ولا تلتفت إلى هلاكهم ولا بقائهم ، فالله أدرى بهم. وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أي : نزّهه عما ينسبون إليه ، ما لا يليق بشأنه الرفيع ، حامدا له على ما خصك به من الهدى ، معترفا بأنه مولى النعم كلها.

قال الورتجبي : سماع الأذى يوجب المشقة ، فأزال عنه ما كان قد لحقه من سماع ما يقولونه بقوله : (وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) أي : إن كان سماع ما يقولون يوحشك ، فتسبيحنا يروحك. هـ. أو : صلّ وأنت حامد لربك ، الذي يبلغك إلى كمال هدايتك ، ويرجح هذا قوله : قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها ، فإن توقيت التنزيه غير معهود ، فإنّ المراد بقبل طلوع الشمس : صلاة الفجر ، وقبل غروبها : صلاة الظهر والعصر ، وقيل : العصر فقط.

وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ أي : ساعاته فَسَبِّحْ أي : صلّ ، والمراد به المغرب والعشاء ، وآناء : جمع «إنى» ، بالكسر والقصر ، أو «أناء» بالفتح والمد. وتقديم المجرور فى قوله تعالى : وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ لاختصاصها بمزيد الفضل ، فإن القلب فيها أجمع ، والنفس إلى الاستراحة أميل ، فتكون العبادة فيها أشق ، ولذلك قال تعالى : إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا «١». وَسبح أيضا ، أَطْرافَ النَّهارِ

وهو تكرير لصلاتى الفجر والمغرب إيذانا باختصاصهما بمزيد مزية. وجمع (أَطْرافَ) بحسب اللفظ مع أمن اللبس ، أو يراد بأطراف النهار : الفجر والمغرب والظهر لأنها «٢» نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الثاني ، أو يريد التطوع فى أجزاء النهار.

قلت : وإذا حملناه على التنزيه – وهو أن يقول : سبحان الله ، أو : لا إله إلا الله ، أو كل ما يدل على تنزيه الحق – يكون تخصيص هذه الأوقات بالذكر لشرفها. فقد وردت أحاديث فى الترغيب فى ذكر الله أول النهار وآخره ، وآناء الليل حين ينتبه من نومه ، بحيث يكون كلما تيقظ من نومه سبّح الله وهلّله وكبّره ، قبل أن يعود إلى نومه.

وهكذا كان أهل اليقظة من السلف الصالح. وقوله تعالى : لَعَلَّكَ تَرْضى أي : بما يعطيك من الثواب الجزيل ، بالتسبيح فى هذه الأوقات. أو ترضى بالشفاعة فى جميع الخلائق ، فتقر عينك حينئذ. وفى صحيح البخاري :

«إنّكم ترون ربّكم كما ترون الشمس ليس دونها سحاب ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشّمس وقبل

---

(١) الآية ٦ من سورة المزمل.

(٢) أي : صلاة الظهر.

غروبها فافعلوا ، ثم تلا هذه الآية : «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها» «١» ففيه ترجيح من فسرها بالصلاة ، وفيه إشارة إلى أن الصلاة ذكر وإقبال على الله وانقطاع إليه ، وذلك مزرعة المشاهدة والرؤية فى الآخرة. وقد جاء فى أهل الجنة : «أنهم يرون ربهم بكرة وعشيا» ، هذا فى حق العموم ، وأما خصوص الخصوص ، ففى كل ساعة ولحظة. والله تعالى أعلم.

الإشارة : أفلم يهد لأهل الإيمان والاعتبار ، وأهل الشهود والاستبصار ، كم أهلكنا قبلهم من القرون الخالية ، والأمم الماضية ، فهم يمشون فى مساكنهم الدارسة ، ويشاهدون آثارهم الداثرة ، كيف رحلوا عنها وتركوها ، واستبدلوا ما كانوا فيه من سعة القصور بضيق القبور ، وما كانوا عليه من الفرش الممهدة بافتراش التراب وتغطية اللحود الممددة ، فيعتبروا ويتأهبوا للحوق بهم ، فقد كانوا مثلهم أو أشد منهم ، قد نما ذكرهم ، وعلا قدرهم ، وخسف بعد الكمال بدرهم. فكأنهم ما كانوا ، وعن قريب مضوا وبانوا ، وأفضوا إلى ما قدموا ، وانقادوا قهرا ، إلى القضاء وسلموا ، ففى ذلك عبر وآيات لأولى النهى. لكن

القلوب القاسية لا ينفع فيها وعظ ولا تذكير ، فلو لا كلمة الرحمة والحلم بتأخير العذاب ، وأجل مسمى لأعمارهم لعجل لهم العقاب.

فاصبر ، أيها المتوجه إلى الله ، المنفرد بطاعة مولاه ، على ما يقولون ، مما يكدر القلوب ، واشتغل بذكر ربك وتنزيهه ، مع الطلوع والغروب وآناء الليل والنهار ، حتى تغيب فى حضرة علام الغيوب ، لعلك ترضى بمشاهدة المحبوب. وبالله التوفيق.

ولمّا كان محصل الاعتبار هو صرف الهمة عن هذه الدار ، أمر به نبيه صلى اللّه عليه وسلم ومن كان على قدمه ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١٣١ الى ١٣٢]

وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى (١٣٢)

قلت : (زَهْرَةَ) : مفعول بمحذوف ، يدل عليه (مَتَّعْنا) أي : أعطينا ، أو على الذم ، وفيه لغتان : سكون الهاء وفتحها.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل صلاة العصر) ، ومسلم (كتاب المساجد ، باب فضل صلاتى الصبح والعصر) من حديث جرير بن عبد الله. ووقع عند مسلم أن الذي قرأ الآية هو جرير ، راوى الحديث.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٣٦

يقول الحق جل جلاله لنبيه صلى اللّه عليه وسلم : وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ أي : لا تطل نظرهما ، بطريق الرغبة والميل إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ من زخارف الدنيا أَزْواجاً مِنْهُمْ أي : أصنافا من الكفرة ، والمعنى : لا تنظر إلى ما أعطيناه أصناف الكفرة من زخارف الدنيا الغرارة ، ولا تستحسن ذلك ، فإنه فان ، وهو من زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : بهجتها ، ثم يفنى ويبيد ، كشأن الزهر ، فإنه فائق المنظر ، سريع الذبول والذهاب. متعناهم بذلك ، وأعطيناهم الأموال والعز فى الدنيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ أي : لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم ، هل يقومون بشكره فيؤمنوا بك ، ويصرفوه فى الجهاد معك ، وينفقوه على من آمن معك .. أم لا؟ أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه ، فلا تهتم بذلك. وَرِزْقُ رَبِّكَ أي : ما ادخر لك فى الآخرة خَيْرٌ ، أو : ورزقك فى الدنيا من الكفاف مع الهدى ، خير مما منحهم فى الدنيا ، لأنه مأمون الغائلة بخلاف ما منحوه ، فعاقبته الحساب والعقاب. وَأَبْقى فإنه لا ينقطع نفسه أو أثره ، بخلاف زهرة الدنيا ، فإنها

فانية منقطعة.

فالواجب : الاشتغال بما يدوم ثوابه ، ولذلك قال له صلى اللّه عليه وسلم : وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ ، أمره بأن يأمر أهل بيته ، أو التابعين له من أمته ، بالصلاة ، بعد ما أمر هو بقوله : (وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) على ما مر ليتعاونوا على الاستعانة على الخصاصة ، ولا يهتموا بأمر المعيشة ، ولا يلتفتوا لغنى أرباب الثروة.

وَاصْطَبِرْ عَلَيْها وتكلف الصبر على مداومتها ، غير ملتفت لأمر المعاش ، لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً أي : لا نكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك ، نَحْنُ نَرْزُقُكَ وإياهم ، ففرغ قلبك لمشاهدة أسرارنا ، وَالْعاقِبَةُ المحمودة لِلتَّقْوى أي : لأهل التقوى.

روى أنه صلى اللّه عليه وسلم كان إذا أصاب أهله ضر أو خصاصة أمرهم بالصّلاة ، وتلا هذه الآية «١». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما خوطب به نبينا صلى اللّه عليه وسلم خوطب به خاصة أمته ، فلا تمدن عينيك ، أيها الفقير ، إلى ما متع به أهل الدنيا ، من زهرتها وبهجتها ، بل ارفع همتك عن النظر إليها ، واستنكف عن استحسان ما شيدوا وزخرفوا ، فإن ذلك حمق وغرور. كان عروة بن الزبير رضي اللّه عنه إذا رأى أبناء السلاطين وشاراتهم دخل داره وتلا : (وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) ...

الآية. وكان يحيى بن معاذ الرازي يقول لعلماء زمانه : يا علماء السوء دياركم هامانية ، ومراكبكم قارونية ، وملابسكم فرعونية ، فأين السنة المحمدية؟.

ولا تشتغل بطلب رزق ، فرزق ربك – وهو ما يبرز لك فى وقتك من عين المنة ، من غير سبب ولا خدمة – خير وأبقى ، أما كونه خيرا فلما يصحبه من اليقين والفرح باللّه وزيادة المعرفة ، وأما كونه أبقى لأن خزائنه لا تنفد ،

---

(١) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (باب فى الصبر ، ح ٩٧٠٥) ، وأبو نعيم فى الحلية (٨/ ١٧٦) من حديث عبد اللّه بن سلام.

وعزاه الهيثمي فى مجمع الزوائد (٧/ ٦٧) للطبرانى فى الأوسط ، من حديث ابن سلام ، وقال : رجاله ثقات.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٣٧

مع بقاء أثره فى القلب من ازدياد اليقين ، والتعلق برب العالمين. (وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ) واصطبر أنت عليها ، فإن رزقنا يأتيك لا محالة ، فى الوقت الذي نريده ، (لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً) لك ولا لأهلك ، (نَحْنُ

نَرْزُقُكَ) ، لكن رزق المتقين ، لا رزق المترفين ، (وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى). وبالله التوفيق.

ثم ذكر بعض أقاويل الكفرة ، التي أمر عليه الصلاة والسلام بالصبر عليها. أو تقول : ثم رد على من طلب المعجزة ، بعد هذا البيان التام ، فقال :

[سورة طه (٢٠) : الآيات ١٣٣ الى ١٣٥]

وَقالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى (١٣٥)

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أي : كفار مكة : لَوْ لا : هلا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ تدل على صدقه ، أو بآية مما اقترحوها من تفجير الأرض وتسيير الجبال ، ولم يعدوا ما شهدوا من المعجزات التي تخر لها الجبال من قبيل الآيات مكابرة وعنادا. قال تعالى : أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى أي : أو لم يأتهم القرآن الذي فيه بيان ما فى الصحف الأولى التوراة والإنجيل والزبور ، وسائر الكتب السماوية لاشتماله على ما فيها ، وزيادة علوم وأسرار. وهذا رد من جهته تعالى لمقالتهم ، وتكذيب لهم فيما دسوا تحتها ، من إنكار إتيان الآية ، بإتيان القرآن الكريم ، الذي هو أبهر الآيات ، وأسنى المعجزات ، وأعظمها ، وأبقاها لأن حقيقة المعجزة : اختصاص مدعى النبوة بنوع من الأمور الخارقة للعادة ، أىّ أمر كان ، ولا ريب فى أن العلم أجلّ الأمور وأعلاها إذ هو أصل الأعمال ، ولقد ظهر ، مع حيازته لعلوم الأولين والآخرين ، على يد أمي ، لم يمارس شيئا من العلوم ، ولم يدارس أحدا من أهلها أصلا ، فأىّ معجزة تراد بعد وروده؟ وأىّ آية ترام مع وجوده؟! وفى إيراده بعنوان كونه بينة لما فى الصحف الأولى ، أي : شاهدا بحقية ما فيها من العقائد والأحكام ، التي أجمعت عليها كافة الرسل ، ما لا يخفى من تنويه شأنه وإنارة برهانه ، ومزيد تقرير وتحقيق لإتيانه. وقال بعض أهل المعاني : أو لم يأتهم بيان ما فى الكتب الأولى ، من أنباء الأمم الذين أهلكناهم ، لما سألوا الآيات ، فأتتهم ، فكفروا بها ، كيف عجلنا لهم الهلاك؟ فما يؤمن هؤلاء ، إن أتتهم البينة ، أن يكون حالهم كأولئك.

(٤٣٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٣٨

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ فى الدنيا بِعَذابٍ مستأصل ، مِنْ قَبْلِهِ أي : من قبل إتيان البينة ، وهو نزول القرآن ومجيء محمد صلى اللّه عليه وسلم ، لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا يدعونا مع كتاب يهدينا ، فَنَتَّبِعَ آياتِكَ التي جاءنا بها ، مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ بالعذاب فى الدنيا ، وَنَخْزى بدخول النار يوم القيامة ، ولكنا لم نهلكهم قبل إتيانها ، فانقطعت حجتهم ، فإذا كان يوم القيامة قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا

وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ «١».

قُلْ لأولئك الكفرة المتمردين : كُلٌّ أي : كل واحد منكم ومنا ، مُتَرَبِّصٌ : منتظر ما يؤول إليه أمرنا وأمركم ، (فَتَرَبَّصُوا) فانتظروا. أو كلّ منتظر دوائر الزمان ، ولمن يكون النصر ، فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ عن قريب مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ أي : المستقيم ، أو السواء ، أي : الوسط الجيد ، وَمَنِ اهْتَدى من الضلالة ، هل نحن أو أنتم. والله تعالى أعلم.

الإشارة : لا يشترط فى الولي العارف بالله ، الداعي إلى الله ، إظهار الآيات ، ويكفى ، برهانا عليهم ، كونهم على بينة من ربهم ، وهداية الخلق على أيديهم ، وما أظهروه من علم أسرار التوحيد ، ومن فنون علم الطريق ، مع كون بعضهم أميين ، لم يتقدم له مدارسة علم قط ، كما شهدناهم ، بعثهم الله فى كل عصر ، يعرفون بالله ، ويدلون على أسرار ذاته وأنوار صفاته ، على سبيل العيان ، لتقوم الحجة على العباد ، فإذا بعثوا يوم القيامة جاهلين بالله محجوبين عن شهود ذاته ، متخلفين عن مقام المقربين ، يقولون : لو لا أرسلت إلينا رسولا يعرفنا بك ، فنتبع آياتك حتى نصل إليك ، من قبل أن نذل بالانحطاط عن درجة المقربين ، أو نخزى بإسدال الحجاب. يقول الحق تعالى :

قد بعثتهم ، فأنكرتموهم ، فإذا اغتروا اليوم ، واحتجوا بقول من قال : انقطعت التربية ، فقل : كلّ متربص فتربصوا ، فستعلمون من أصحاب الصراط السّوى ومن اهتدى. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى اللّه على سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وسلّم تسليما.

---

(١) من الآية ٩ من سورة الملك.

(٤٣٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٣٩

(٤٣٩/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٤٠

(٤٤٠/٣)

سورة الأنبياء

مكية. وهى مائة واثنتا عشرة آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله تعالى : فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ «١» لأن علم ذلك إنما يظهر ، حقيقة ، يوم الحساب الذي صدّر به السورة ، فقال تعالى :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢)

قلت : (وَ هُمْ) : مبتدأ ، و(فِي غَفْلَةٍ) : خبر ، و(مُعْرِضُونَ) : خبر بعد خبر ، والجملة : حال من الناس. و(مِنْ ذِكْرٍ) :

فاعل بيأتي. و(مِنْ) : صلة ، و(مِنْ رَبِّهِمْ) : صفة لذكر ، أي : حاصل من ربهم ، أو متعلق بيأتيهم ، أو صفة لذكر ، وجملة (اسْتَمَعُوهُ) : حال من مفعول «يَأْتِيهِمْ» ، بإضمار (قد) أو بدونه ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال. و(هُمْ يَلْعَبُونَ) : حال أيضا من فاعل «اسْتَمَعُوهُ» ، و(لاهِيَةً) : حال من واو «يَلْعَبُونَ» ، و(قُلُوبُهُمْ) : فاعل بلاهية.

يقول الحق جل جلاله : اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ أي : قرب قيام الساعة التي هى محل حسابهم. قال ابن عباس : «المراد بالناس : المشركون» وهو الذي يفصح عنه ما بعده ، ولم يقل تعالى : «اقترب حساب الناس» ، بل قدّم لام الجر على الفاعل للمسارعة إلى إدخال الروعة ، فإن نسبة الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوؤهم ويورثهم رهبة وانزعاجا ، كما أن تقديم اللام فى قوله تعالى : خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً «٢» لتعجيل المسرة لأن كون الخلق لأجل المخاطبين مما يسرهم ويزيدهم رغبة وشوقا إليه تعالى.

وفى إسناد الاقتراب إلى الحساب المنبئ عن التوجه نحوهم ، مع صحة إسناد الاقتراب إليهم بأن يتوجهوا نحوه ، من تفخيم شأنه ، وتهويل أمره ، مالا يخفى ، لما فيه من تصويره بشيء مقبل عليهم ، لا يزال يطلبهم حتى يصيبهم لا محالة. ومعنى اقترابه : دنوه منهم شيئا فشيئا حتى يلحقهم لأن كل آت قريب ، أي : دنا حساب أعمالهم السيئة الموجبة للعقاب.

وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ تامة منه ، ساهون بالمرة عنه ، غير ذاكرين له ، لا أنهم غير مبالين به ، مع اعترافهم بإتيانه ، بل هم منكرون له ، كافرون به ، مُعْرِضُونَ عن الآيات والنذر المنبهة لهم عن سنة الغفلة. ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ

---

(١) من الآية ١٣٥ من سورة طه.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٤٢

أي : من طائفة نازلة من القرآن ، تذكر ذلك الحساب ، وتنبههم عن الغفلة عنه ، كائن أو نازل مِنْ رَبِّهِمْ ، أو ذاكر ومذكر من ناحية ربهم. وفى إضافته إليه سبحانه دلالة على شرفه ، وكمال شناعة ما فعلوه من الإعراض عنه ، وفى التعبير بعنوان الربوبية تشنيع لكمال عتوهم ، ومن صفة ذلك الذكر مُحْدَثٍ تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة ، بمعنى أنه نزل شيئا فشيئا ، أو قريب عهد بالنزول ، فمعانى القرآن قديمة ، وإظهاره بهذه الحروف والأصوات حادث. وقال ابن راهويه : قديم من رب العزة ، محدث إلى أهل الأرض.

فما ينزل عليهم شىء من القرآن يذكرهم ويعظهم إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لا يتعظون به ، ولا يتدبرون فى معانيه ،

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٣ الى ٦]

لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)

لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ساهية ، معرضة عن التفكر والتدبر فى معانيه. وتقدير الآية : ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ، فى حال من الأحوال ، إلا حال استماعهم إياه كانوا لاعبين مستهزءين به ، لاهين عنه ، حال كون قلوبهم لاهية عنه لتناهى غفلتهم وفرط إعراضهم عن النظر والتفكر فى عواقب الأمور. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : حمل الآية على العموم هو الظاهر عند الصوفية. وقد ورد عن رجل من الصحابة أنه كان يبنى ، فلقى بعض الصحابة فقال : ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال له : اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ ، فنفض التراب ، وقال :

واللّه لا بنيت. هـ. أي : اقترب للناس حسابهم على النقير والقطمير ، وهم فى غفله عن التأهب والاستعداد ، معرضون عن اتخاذ الزاد ، ما يأتيهم من ذكر من ربهم ، يعظهم ويوقظهم ، إلا استمعوه بآذانهم ، وهم يلعبون ساهون عنه بقلوبهم لحشوها بالوساوس الشيطانية والعلائق النفسانية. لاهية قلوبهم عن التفكر والاعتبار والتدبر والاستبصار.

قال القشيري : ويقال : الغفلة على قسمين غافل عن حسابه لاستغراقه فى دنياه ، وغافل عن حسابه لاستهلاكه فى مولاه ، فالغفلة الأولى سمة الهجر ، والثانية صفة الوصل ، فالأولون لا يستفيقون من غفلتهم إلا فى عسكر الموتى ، وهؤلاء لا يرجعون عن غيبتهم أبد الأبد لفنائهم فى وجود الحق. هـ.

قلت : القسمة ثلاثية : قوم غفلوا عن حسابهم لاشتغالهم بحظوظهم وهواهم ، وهم : الغافلون الجاهلون ، وقوم ذكروا حسابهم ، وجعلوه نصب أعينهم ، وتأهبوا له ، وهم : الصالحون والعباد والزهاد ، وقوم غفلوا عنه ، وغابوا عنه لاستغراقهم فى شهود مولاهم ، وهم : العارفون المقربون. جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه.

ثم ذكر المنهمكين فى الغفلة ، فقال :

وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ...

(٤٤٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٤٣

قلت : «الَّذِينَ ظَلَمُوا» : بدل من الواو ، منبئ عن كونهم موصوفين بالظلم فيما أسروا به. وقال الكلبي : فيه تقديم وتأخير ، أراد الذين ظلموا أسروا النجوى. فيكون «الَّذِينَ» : مبتداء و«أَسَرُّوا» : خبر مقدم.

وقال قطرب : على لغة بعض العرب ، يقولون : أكلونى البراغيث ، وهى بلغة بلحارث وغيرهم. وقال الفراء : بدل من الناس ، أي : اقترب للناس وهم الذين ظلموا. و(هَلْ هذا ..) إلخ : بدل من النجوى ، أو مفعول بقول مضمر ، كأنه قيل : ماذا قالوا فى نجواهم؟ فقيل : قالوا : هل هذا .. إلخ و(أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) : حال من واو «تأتون» مقررة للإنكار ، مؤكدة للاستبعاد. و(مِنْ قَرْيَةٍ) : فاعل آمنت ، و«مِنْ» : صلة للعموم. و(أَهْلَكْناها) : صفة لقرية.

يقول الحق جل جلاله : وَأَسَرُّوا النَّجْوَى : أخفوا تناجيهم بحيث لم يشعر أحد بما قالوا ، وهم الَّذِينَ ظَلَمُوا بالكفر والطغيان ، قائلين فى تلك النجوى الشنيعة : هَلْ هذا أي : ما هذا الرجل الذي يزعم أنه رسول إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أي : من جنسكم ، وما أتى به سحر ، أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أي : تعلمون ذلك فتأتونه ، وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول ، وأنتم تعاينون أنه سحر؟. قالوا ذلك ، بناء على ما ارتكز فى اعتقادهم الزائغ ، أن الرسول لا يكون إلا ملكا ، وأنّ كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق هو من قبيل السحر ، وغاب عنهم أن إرسال البشر إلى البشر هو الذي تقتضيه الحكمة التشريعية. قاتلهم اللّه أنى يؤفكون. وإذا أسروا ذلك ولم يعلنوه لأنه كان على طريق توثيق العهد خفية ، وتمهيدا لمقدمات المكر والكيد فى هدم أمر النبوة ، وإطفاء نور الدين. وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ.

ثم فضح اللّه سرهم ونجواهم بقوله : قالَ «١» رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ أي : قل يا محمد : ربى يعلم القول ، سرا كان أو جهرا ، سواء كان فى السماء أو الأرض ، فلا يخفى عليه ما تناجيتم به

، فيفضحكم به ويجازيكم عليه. وقرأ أكثر أهل الكوفة : (قالَ) على الخبر ، وهو حكاية من جهته تعالى لما قاله – صلى اللّه عليه وسلم – بعد ما أوحى إليه أحوالهم وأقوالهم بيانا لظهور أمرهم وانكشاف سرهم ، وإيثار القول المشتمل على السر والجهر للإيذان بأن علمه تعالى بالسر والجهر على وتيرة واحدة ، لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء ، كما فى علوم الخلق.

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أي : المبالغ فى العلم بالمسموعات والمعلومات ، التي من جملة ما أسروه من النجوى ، فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم. بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ ، هو إضراب من جهته تعالى ، وانتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية قول آخر مضطرب فى مضارب البطلان ، أي : لم يقتصروا على أن يقولوا فى حقه – عليه الصلاة والسلام – : هل هذا إلا بشر ، وفى حق ما ظهر على يديه من القرآن الكريم : إنه السحر ، بل قالوا : هو تخاليط

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص : «قال ربى». وقرأ الباقون : «قل» على الأمر. انظر الإتحاف (٢/ ٢٦١).

أحلام وأباطيلها ، فهو أشبه شيء بالهذيان ، ثم أضربوا عنه ، وقالوا : بَلِ افْتَراهُ من تلقاء نفسه ، من غير أن يكون له أصل أو شبهة أصل. ثم قالوا : بَلْ هُوَ شاعِرٌ ، وما أتى به شعر يخيل إلى السامع ، لا حقيقة لها.

وهكذا شأن المبطل المحجوج ، متحير ، لا يزال يتردد بين باطل وأبطل ، ويتذبذب بين فاسد وأفسد. فالإضراب الأول ، كما ترى ، من جهته تعالى ، والثاني والثالث من قبلهم. وقد قيل : الكل من قبلهم ، حيث أضربوا عن قولهم : هو سحر ، إلى أنه تخاليط أحلام ، ثم إلى أنه كلام مفترى ، ثم إلى أنه قول شاعر ، وهو بعيد لأنه لو كان كذلك لقال : قالوا : بل أضغاث أحلام ... إلخ.

ثم قالوا : فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ وهو جواب عن شرط محذوف ، يفصح عنه السياق ، كأنه قيل : وإن لم يكن كما قلنا ، بل كان رسولا من اللّه تعالى ، فليأتنا بمعجزة ظاهرة كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ أي : مثل الآية التي أرسل بها الأولون كاليد ، والعصا ، والناقة وشبه ذلك. فالكاف : صفة لمصدر محذوف ، أي : إتيانا مثل إتيان الأولين.

قال تعالى : ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أي : أهلكنا أهلها ، أَفَهُمْ أي : هؤلاء المقترحون عليك الآيات ، يُؤْمِنُونَ أي : قد اقترحت الأمم السالفة الآيات على رسلها ، فأعطوا ما اقترحوا ، فلم يؤمنوا ،

فأهلكناهم ، فكيف يؤمن هؤلاء ، وهم أعتى منهم؟ فالهمزة : لإنكار الوقوع ، والفاء : للعطف على مقدر ، فأفادت إنكار وقوع إيمانهم. والمعنى : لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات ، أهم لم يؤمنوا ، فهؤلاء يؤمنون ، لو أجيبوا إلى ما سألوا وأعطوا ما اقترحوه ، مع كونهم أعتى منهم وأطغى؟ فهم فى اقتراح الآيات كالباحث على حتفه فطلبه ، وفى ترك إجابتهم إبقاء عليهم ، كيف لا ، ولو أعطوا ما اقترحوا ، مع عدم إيمانهم قطعا ، لوجب استئصالهم ، بجريان سنّة اللّه تعالى فى الأمم السالفة أن المقترحين ، إذا أعطوا ما اقترحوا ، فلم يؤمنوا ، نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة ، وقد سبقت كلمة الحق منه تعالى أن هؤلاء لا يعذبون بعذاب الاستئصال ، فلذلك لم يظهر لهم ما اقترحوا من الآيات. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : العلماء باللّه ، الداعون إلى اللّه ، هم ورثة الأنبياء والرسل ، فما قيل فى الأصل قد قيل فى الفرع ، فكل عصر يوجد من ينكر على خواص ذلك العصر ، ويرميهم بالسحر والجنون. والافتراء على اللّه سنة ماضية. غير أن أولياء هذه الأمة على قدم نبيهم ، رحمة للعالمين ، فمن آذاهم لا يعاجل بالعقوبة فى الغالب ، وقد تكون باطنية ، كقسوة القلوب ، والخذلان ، والشكوك ، والأوهام. وهذا الوصف فى العارفين الكلمة ، وأما الزهاد والعباد والصالحون :

فمن آذاهم عوجل بالعقوبة فى الغالب لنقص كمالهم ، وعدم اتساع دائرة معرفتهم. وباللّه التوفيق.

(٤٤٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٤٥

ثم ردّ على من أنكر رسالة البشر ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٧ الى ١٠]

وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠)

يقول الحق جل جلاله فى جواب قول الكفرة : هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ «١» بعد تقديم الجواب عن قولهم : فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ لأنهم قالوه بطريق التعجيز ، فلابد من المسارعة إلى رده ، كما تقدم مرارا فى الكتاب العزيز ، كقوله إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ .. «٢» الآية ، ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ الآية «٣». إلى غير ذلك ، فقال جل جلاله : وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ فى الأمم السالفة إِلَّا رِجالًا بشرا من جنس القوم الذين أرسلوا إليهم لأن مقتضى الحكمة أن يرسل البشر إلى البشر ، والملك إلى الملك ، حسبما نطق به قوله تعالى : قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا «٤»

فإن عامة البشر لا تطيق المفاوضة مع الملك لتوقفها على التناسب بين المفاوض والمستفيض فبعث لكل جنس ما يناسبه للحكمة التي يدور عليها فلك التكوين والتشريع ، والذي تقتضيه الحكمة الإلهية أن يبعث الملك إلى خواص البشر المختصين بالنفوس الزكية ، المؤيدين بالقوة القدسية ، المتعلقين بالعالم الروحاني والجسماني ، ليتلقوا من جانب العالم الروحاني ، ويلقوا إلى العالم الجسماني ، فبعث رجالا من البشر يوحى إليهم على أيدى الملائكة أو بلا واسطة.

والمعنى : وما أرسلنا إلى الأمم ، قبل إرسالك إلى أمتك ، إلا رجالا مخصوصين من أفراد الجنس ، متأهلين للاصطفاء والإرسال ، نُوحِي إِلَيْهِمْ ، بواسطة الملك ، ما يوحى من الشرائع والأحكام ، وغيرهما من القصص والأخبار ، كما يوحى إليك من غير فرق بينهما ، فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ أي : فاسألوا ، أيها الجهلة ، أهل العلم كأهل الكتب الواقفين على أحوال الرسل السالفة – عليهم الصلاة والسلام – لتزول شبهتكم إن كنتم لا علم لكم بذلك. أمروا بذلك لأن إخبار الجم الغفير يوجب العلم الضروري ، لا سيما وهم كانوا يشايعون المشركين عداوته صلى اللّه عليه وسلم ، ويشاورونهم فى أمورهم ، فإذا أخبروهم أن الرسل إنما كانوا بشرا ، ولم يكونوا ملائكة ، حصل لهم العلم بالحق ، وقامت الحجة عليهم.

---

(١) من الآية ٣ من سورة الأنبياء. [.....]

(٢) من الآية ٣٣ من سورة هود.

(٣) الآية ٨ من سورة الحجر.

(٤) الآية ٩٥ من سورة الإسراء.

وتوجيه الخطاب إلى الكفرة فى السؤال ، بعد توجيهه إلى الرسول – عليه الصلاة والسلام – فى الإرسال لأنه الحقيق بالخطاب فى أمثال تلك العلوم والحقائق الأنيقة ، وأما الوقوف عليها باستخبار من الغير فهو من وظائف العوام.

ثم بيّن كون الرسل – عليهم الصلاة والسلام – أسوة لأفراد الجنس فى أحكام البشرية ، فقال : وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً أي : أجسادا ، فالإفراد لإرادة الجنس ، أو ذوى جسد ، لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ أي : وما جعلناهم أجسادا صمدانيين ، أغنياء عن الطعام والشراب ، بل محتاجين إلى ذلك لتحقيق العبودية التي اقتضت شرفهم. وَما كانُوا خالِدِينَ لأن كل من يفتقر إلى الغذاء لا بد يتحلل بدنه بسرعة ، حسبما جرت

العادة الإلهية ، والمراد بالخلود : المكث المديد ، كما هو شأن الملائكة أو الأبدية. وهم معتقدون أنهم كانوا يموتون. والمعنى : بل جعلناهم أجسادا مفتقرة صائرة إلى الموت عند انقضاء آجالهم ، لا ملائكة ولا أجسادا صمدانية.

ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ بالنصر وإهلاك أعدائهم ، وهو عطف على ما يفهم من وحيه تعالى إليهم ، كأنه قيل :

أوحينا إليهم ما أوحينا ، ثم صدقناهم فى الوعد ، الذي وعدناهم فى تضاعيف الوحى ، بإهلاك أعدائهم ، فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ من المؤمنين وغيرهم ، ممن تستدعى الحكمة إبقاءه ، كمن سيؤمن هو أو بعض فروعه ، وهو السر فى حماية العرب من عذاب الاستئصال. أو يخص هذا العموم بغير نبى الرحمة صلى اللّه عليه وسلم فإن أمته لا تستأصل ، وإن بقي فيها من يكفر باللّه لعل اللّه يخرج من أصلابهم من يوحد اللّه تعالى. وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ أي : المجاوزين الحد فى الكفر والمعاصي.

ولمّا ذكر برهان حقّيّة الرسول – عليه الصلاة والسلام – ذكر حقية القرآن المنزل عليه ، الذي ذكر فى صدر السورة إعراض الناس عما يأتيهم من آياته ، فقال : لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ ، صدّره بالقسم إظهارا لمزيد الاعتناء بمضمونه ، وإيذانا بكون المخاطبين فى أقصى مراتب التنكير ، أي : واللّه لقد أنزلنا إليكم ، يا معشر قريش ، كِتاباً عظيم الشأن نيّر البرهان. فالتنكير للتفخيم ، أي : كتابا جليل القدر فِيهِ ذِكْرُكُمْ أي : شرفكم وحسن صيتكم ، كقوله تعالى : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ «١» ، أو فيه تذكيركم وموعظتكم ، أو ما تحتاجون إليه فى أمر دينكم ودنياكم ، أو ما تطلبون به حسن الذكر والثناء من مكارم الأخلاق ، أَفَلا تَعْقِلُونَ فتتدبروا فى معانيه حتى تدركوا حقيته. فالهمزة للإنكار التوبيخي. وفيه حث لهم على التدبر فى أمر الكتاب ، والتأمل فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر ، التي من جملتها القوارع السابقة واللاحقة ، والمعطوف : محذوف ، أي : أعميت بصائركم فلا تعقلون؟ واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة الزخرف.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٤٧

الإشارة : ثبوت الخصوصية لا ينافى وصف البشرية ، فنسبة أهل الخصوصية من البشر كاليواقيت بين الحجر.

ولا فرق بين خصوصية النبوة والولاية فى الاتصاف بأوصاف البشرية ، التي لا تؤدى إلى نقص فى مراتبهم العلية. وتتميز خصوصية النبوة من الولاية بوحي الأحكام ، وتتميز خصوصية الولاية من العمومية

بالتطهير من الرذائل والتحلي بالفضائل ، وبالغيبة عن رؤية الأكوان ، بإشراق شمس العرفان ، وذلك بالفناء عن الأثر بشهود المؤثر ، ثم بالبقاء بشهود الأثر حكمة ، مع الغيبة عنه ، قدرة ، ولا يعرف هذا إلا أهل الذكر الحقيقي ، فلا يعرف مقام الأولياء إلا من دخل معهم ، ولا يسأل عنهم إلا أمثالهم (فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ). فلا يشترط فى الولي استغناؤه عن الطعام والشراب إذ لم يكن للأنبياء ، فكيف بالأولياء؟ ولا استغناؤه عن النساء ، قال تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً «١» ، نعم صاحب الخصوصية مالك لنفسه من غلبة الشهوة عليه ، ينزل إلى أرض الحظوظ بالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين. جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه. وتقدم الكلام على قوله تعالى : فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ فى سورة النحل «٢». وباللّه التوفيق.

ثم بيّن ما أجمل فى قوله : (وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ) ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ١١ الى ١٥]

وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ (١٣) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (١٤) فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ (١٥)

قلت : كم : خبرية مفيدة للتكثير ، ومحلها نصب ، مفعول بقصمنا ، و(مِنْ قَرْيَةٍ) : تمييز ، و(كانَتْ ..) إلخ : صفة لقرية.

يقول الحق جل جلاله : وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ أي : كثيرا أهلكنا من أهل قرية كانَتْ ظالِمَةً بآيات اللّه تعالى ، كافرين بها. وفى لفظ القصم – الذي هو عبارة عن الكسر بإبانة أجزاء المكسور وإزالتها بالكلية – من الدلالة على قوة الغضب والسخط ما لا يخفى. وَأَنْشَأْنا أي : أحدثنا بَعْدَها أي : بعد إهلاكها قَوْماً آخَرِينَ ليسوا منهم نسبا ولا دينا ، ففيه تنبيه على استئصالهم وقطع دابرهم بالكلية. فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا أي : أدركوا عذابنا الشديد إدراك المشاهد المحسوس إِذا هُمْ مِنْها أي : من القرية يَرْكُضُونَ :

يهربون مدبرين راكضين دوابهم. فقيل لهم ، بلسان الحال أو المقال من الملك ، أو ممن حضرهم من المؤمنين ،

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة الرعد.

(٢) الآية ٤٣ من سورة النحل.

بطريق الاستهزاء والتوبيخ : لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ من النعم والتلذذ وَإِلى مَساكِنِكُمْ التي كنتم تفتخرون بها ، لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ تقصدون للسؤال ، إذ كانوا أغنياء ، أو للتشاور والتدبر فى المهمات والنوازل ، أو تسألون الفداء فتفتدوا من العذاب ، أو تسألون عن قتل نبيكم وفيم قتلتموه.

قيل : نزلت فى أهل حاضورا ، قرية باليمن ، وكان أهلها العرب ، فبعث اللّه إليهم نبيا فكذبوه وقتلوه ، فسلط اللّه تعالى عليهم بختنصّر ، فقتلهم وسباهم ، فلما انهزموا وهربوا قالت لهم الملائكة : لا تركضوا ، وارجعوا إلى مساكنكم وأموالكم استهزاء بهم ، وأتبعهم بختنصر ، فأخذتهم السيوف ، ونادى مناد من السماء : يا لثارات الأنبياء ، فلما رأوا ذلك أقروا بالذنوب حين لم ينفعهم ، فقالوا : يا وَيْلَنا يا هلاكنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ مستوجبين العذاب. وهذا اعتراف منهم وندم حين لم ينفعهم ذلك.

فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ أي : فما زالوا يرددون تلك الكلمة ، ويدعون بها ، ويقولون : يا ويلنا ، حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً أي : مثل الحصيد ، وهو المحصود من الزرع والنبات ، فهو فعيل بمعنى مفعول ، فلذلك لم يجمع ، كجريح وقتيل. وجعلناهم خامِدِينَ ميتين ، من خمدت النار إذا طفئت. وهو ، مع «حَصِيداً» ، فى حيز المفعول الثاني لجعل ، كقولك : جعلته حلوا حامضا ، والمعنى : جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود ، أو حال من الضمير المنصوب فى «جَعَلْناهُمْ» ، ولفظ الآية يقتضى العموم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : وكم من قرية من قرى القلوب قصمنا أهلها ، أي : ما فيها من الشكوك والأوهام ، كانت ظالمة بتلك الخواطر ، فأخرجناهم منها ، وأنشأنا بعدها أنوارا وأسرارا وعلوما آخرين. فلما أحسوا بأسنا بورود الواردات الإلهية عليها ، التي تأتى من حضرة القهار ، إذا هم منها يركضون لأن الواردات الإلهية تأتى من حضرة القهار ، لأجل ذلك لا تصادم شيئا من الظلمات إلا دمغته ، فيقال لتلك الظلمات ، التي هى الشكوك والأوهام : لا تركضوا ، ولكن ارجعوا أنوارا ، وانقلبوا واردات وأسرارا ، وتنعموا فى محلكم بشهود الحق ، لعلكم تسألون ، أي : تستفتون فى الأمور ، لأن القلب إذا صفا من الأكدار استفتى فى العلوم ، وفى الأمور التي تعرض ، قالوا بلسان الحال – أي تلك الظلمات – :

يا ويلنا إنا كنا ظالمين بحجب صاحبنا عن اللّه ، فما زالت تلك دعواهم حتى صاروا خامدين ، هامدين ، ساكنين تحت مجارى الأقدار ، مطمئنين باللّه الواحد القهار ، وهذه إشارة دقيقة ، لا يفهمها إلا دقيق الفهم غزير العلم. وباللّه التوفيق.

ثم بيّن أن إهلاك تلك القرى الظالمة كان لحكمة بليغة ومصلحة بديعة ، ولم يكن عبثا لأنه تعالى منزه عن اللعب فى خلقه ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ١٦ الى ١٨]

وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)

قلت : (لاعِبِينَ) : حال من فاعل خلق ، و«إِنْ كُنَّا» : شرط حذف جوابه ، أي : إن كنا فاعلين اتخذناه من لّدنا ، وقيل : نافية.

يقول الحق جل جلاله : وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما من المخلوقات التي لا تحصى أجناسها ، ولا تعد أفرادها ، ولا تحصر أنواعها وآحادها ، على هذا النمط البديع والأسلوب الغريب ، لاعِبِينَ خالية عن الحكم والمصالح ، بل لحكم بديعة ومصالح عديدة ، دينية تقضى بسعادة الأبد أو بشقاوته ، ودنيوية لا تعد ولا تحصى ، وهذا كقوله : وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلًا «١» ، فالمراد من الآية : إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم ، وإبداع بنى آدم ، مؤسس على قواعد الحكم البالغة ، المستتبعة للغايات الجليلة ، وتنبيه على أن ما حكى من العذاب الهائل ، والعقاب النازل بأهل القرى ، من مقتضيات تلك الحكم ، ومتفرع عليها حسبما اقتضته أعمالهم. وإنما فعل ذلك عدلا منه ، ومجازاة على أعمالهم ، وأن المخاطبين المتقدمين – وهو قريش – على آثارهم لأن لهم ذنوبا مثل ذنوبهم.

وإنما عبّر عن نفى الحكمة باللعب ، حيث قال : لاعِبِينَ لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالي عن الحكمة ، بتصويره بصورة ما لا يرتاب أحد فى استحالة صدوره منه سبحانه ، وهو اللهو واللعب ، بل إنما خلقناهما ، وما بينهما لتكون مبدأ الوجود الإنسانى وسببا لمعاشه ، ودليلا يقوده إلى تحصيل معرفتنا ، التي هى الغاية القصوى والسعادة العظمى.

ثم قرر انتفاء اللعب واللهو عنه ، فقال : لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً أي : ما يلهى به ويلعب ، لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا أي : من أنفسنا لعلمنا بحقائق الأشياء ، واستغنائنا عن جلب المصالح ودرء المفاسد. والمعنى : لو أردنا أن نخلق شيئا ، لا لتحصيل مصلحة لكم ، ولا لدرء مفسدة عنكم ، لفعلنا ذلك فى أنفسنا بأن نخلق عوالم ومظاهر عارية عن الحكمة والمصلحة لأنا أحق منكم بالاستغناء عما يجلب المصلحة ويدرأ المفسدة ، لكن من عادتنا ربط الأسباب بمسبباتها ، وأنا لم نخلق شيئا عبثا ، بل خلقنا كل نوع من النبات والحيوانات والجمادات لمصلحة ومنفعة ، علمها ، من علمها وجهلها من جهلها ، فحصل من هذا نفى التحسين والتقبيح عقلا ، بهذه الشرطية ، وإثباته سمعا.

---

(١) من الآية ٢٧ من سورة ص.

أو : لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا مما يليق بشأننا من المجردات ، لا من الأجسام المرفوعة والأجرام الموضوعة ، كعادة الجبابرة من رفع العروش وتحسينها ، وتمهيد الفرش وتزيينها ، لأغراض عراض ، لكن يستحيل إرادتنا لذلك لمنافاته للحكمة الإلهية المنزهة عن الأغراض. هـ. من أبى السعود ، وأصله للزمخشرى. وفيه تكلف.

وسأل طاوس ومجاهد الحسن عن هذه الآية؟ فقال : اللهو : المرأة. وقال ابن عباس : «الولد». ومعنى (لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا) : بحيث لا يطلعون عليه ، وما اتخذنا نساء وولدا من أهل الأرض. نزلت فى الذين قالوا : اتخذ اللّه ولدا.

وتكون الآية ، حينئذ تتميما لما قبلها ، أي : ليس اللعب واللهو من شأننا ، إذ لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا.

قال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرحمن الفاسى : حمل الآية على الزوجة غير مفيد ، إلا أن يراد بذلك مجرد الرحمة والشفقة ، مما يمكن عقلا ، فيصح دخول النفي الشرعي عليه. انظر ابن عرفة ، فقد جوّز ، عقلا ، اتخاذه على معنى الرحمة. وكذا ابن عطية فى آية الزمر «١». ومنع ذلك القشيري. قلت : وكأنه لما يشير إليه قوله تعالى : هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ «٢» فإن القهر لا يناسب التبني بوجه ، وقد يقال : إنه مانع سمعى شرعى ، لا عقلى ، فلا يخالف ما قاله ابن عرفة ولا ابن عطية. وفيه نظر لأنه يؤدى إلى تعطيل اسمه القهار ونحوه ، وهو محال ، واللّه أعلم هـ.

قلت : قد حمل النسفي الآية على الولد ، فقال : لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً أي : ولدا ، أو امرأة ، رد على من قال عيسى ابنه ، ومريم صاحبته ، لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا من الولدان أو الحور ، إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ أي : إن كنا ممن يفعل ذلك ، ولسنا ممن يفعله لاستحالته فى حقنا. هـ. قلت : والذي تكلف الحمل الأول رأى أن حمله على الولد يقتضى جواز الاتخاذ عقلا وإنما منعه عدم الإرادة. وأجاب ابن عرفة : بأن يحمل الاتخاذ على معنى الرحمة ، لا على حقيقة البنوة. قلت : من خاض بحار التوحيد الخاص وحاز مقام الجمع ، لا يتوقف فى مثل هذا إذ تجليات الحق لا تنحصر ، لكن لم يوجد منها ، ولم تتعلق إرادته إلا بما هو كمال فى حقه تعالى فى باب القدرة ، وأما باب الحكمة ، فهى رداء لمحل النقائص ، فافهم ، واصحب أهل الجمع حتى يفهموك ما ذكرت لك ، والسلام.

ثم قال تعالى : بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ أي : نرمى بالحق ، الذي هو الجد ، على الباطل ، الذي من جملته اللهو ، وهو إضراب عن اتخاذ الولد ، بل عن إرادته ، كأنه قيل : لكنا لا نريده ، بل شأننا أن نقذف بالحق على الباطل فَيَدْمَغُهُ : فيمحقه بالكلية ، كما فعلنا بأهل القرى المحكية وأمثالهم. وقد استعير ، لإيراد الحق على الباطل ، القذف ، الذي هو الرمي الشديد ، وللباطل الدمغ ، الذي هو تشتيت الدماغ وتزهيق الروح ، فكأنّ الباطل حيوان له دماغ ، فإذا تشتت دماغه مات واضمحل ، فَإِذا هُوَ زاهِقٌ أي : فإذا الباطل ذاهب بالكلية ، متلاش عن أصله. وفى (إذا) الفجائية والجملة الاسمية من

الدلالة على كمال السرعة فى الذهاب والبطلان ما لا يخفى.

---

(١) فى قوله تعالى : لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ ... الآية.
(٢) من الآية ٤ من سورة الزمر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٥١

ثم ردّ على أهل الباطل فقال : وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ أي : وقد استقر لكم الويل والهلاك من أجل ما تصفونه ، سبحانه ، بما لا يليق بشأنه الجليل ، من الولد والزوجة ، وغير ذلك مما هو باطل. وهو وعيد لقريش ومن دان دينهم ، بأنّ لهم أيضا مثل ما لأولئك القرى المتقدمة من الهلاك ، إن لم ينزجروا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما نصبت لك الكائنات لتراها كائنات ، بل لتراها أنوارا وتجليات ، الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته ، فالغير والسّوى عند أهل الحق باطل ، والباطل لا يثبت مع الحق. قال تعالى (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ). قال القشيري : ندخل نهار التحقيق على ليالى الأوهام ، أي : فتمحى ، وتبقى شمس الأحدية ساطعة. هـ. وباللّه التوفيق.

ثم قرر وحدانيته تعالى فى ملكه وملكوته ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ١٩ الى ٢٥]

وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)

يقول الحق جل جلاله : وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : له جميع المخلوقات ، خلقا وملكا ، وتدبيرا وتصرفا ، وإحياء وإماتة ، وتعذيبا وإثابة ، من غير أن يكون لأحد فى ذلك دخل ، لا استقلالا ولا استتباعا ، ولا فرق بين أهل العالم العلوي والسفلى ، وَمَنْ عِنْدَهُ وهم الملائكة – عليهم السلام – عبّر عنهم بذلك إثر ما عبّر عنهم بمن فى السموات تنزيلا لهم – لكرامتهم عليه ، وزلفاهم عنده – منزلة المقربين عند الملك ، وهو مبتدأ وخبره :

لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ أي : لا يتعاظمون عنها ، ولا يعدون أنفسهم كبراء ، وَلا يَسْتَحْسِرُونَ أي : لا

يكلّون ولا يعيون ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ أي : ينزهونه فى جميع الأوقات ، ويعظمونه ويمجدونه دائما. وهو استئناف بيانى ، كأنه قيل : ماذا يصنعون فى عبادتهم ، أو كيف يعبدون؟ فقال : يسبحون ... إلخ. لا يَفْتُرُونَ أي : لا يتخلل تسبيحهم فترة أصلا ، ولا شغل آخر.

(٤٥١/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٥٢

ولمّا برهن على وحدانيته تعالى فى ملكه بأنه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة ، وأنهم قاطبة تحت ملكه وقهره ، وأنّ عباده مذعنون لطاعته ، ومثابرون على عبادته ، ومنزهون له عن كل ما لا يليق بشأنه ، أنكر على من أشرك معه بعد هذا البيان ، فقال : أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً يعبدونها مِنَ الْأَرْضِ أي : اتخذوها من جنس الأرض ، أحجارا وخشبا ، هُمْ يُنْشِرُونَ أي : يبعثون الموتى. وهذا هو الذي يدور عليه الإنكار والتجهيل والتشنيع ، لا نفس الاتخاذ ، فإنه واقع لا محالة ، أي : بل اتخذوا آلهة من الأرض ، هم مع حقارتهم ، ينشرون الموتى ، كلا .. فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك ، وهم ، وإن لم يقولوا بذلك صريحا ، لكنهم حيث ادعوا لها الألوهية ، فكأنهم ادعوا لها الإنشار ، ضرورة لأنه من خصائص الإلهية ، ومعنى التخصيص فى تقديم الضمير فى :

هُمْ يُنْشِرُونَ : التنبيه على كمال مباينة حالهم للإنشار ، الموجبة لمزيد الإنكار ، كما فى قوله تعالى : أَفِي اللَّهِ شَكٌّ «١». وفى قوله تعالى : أَباللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ «٢» ، فإنّ تقديم الجار والمجرور للتنبيه على كمال مباينة أمره تعالى لأن يشك فيه ويستهزأ به.

ثم أبطل الاشتراك فى الألوهية ، فقال : لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ أي : لو كان فى السماوات والأرض آلهة غير اللّه ، كما هو اعتقادهم الباطل ، لَفَسَدَتا أي : لفسد نظامهما بما فيهما ، لوجود التمانع ، كعادة الملوك ، أو لبطلتا بما فيهما ، ولم يوجد شىء منهما للزوم العجز لهما ، بيان ذلك : أن الألوهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق ، تغييرا وبديلا ، وإيجادا وإعداما ، وإحياء وإماتة ، فبقاؤهما على ما هما عليه من غير فساد ، إما بتأثير كل منها ، وهو محال لاستحالة وقوع الأثر الواحد بين مؤثرين ، وإما بتأثير واحد منها ، فالباقى بمعزل عن الإلهية ، والمسألة مقررة فى علم الكلام.

و(إِلَّا) : صفة لآلهة ، كما يوصف بغير ، ولمّا كانت حرفا ، ظهر إعرابها فى اسم الجلالة ، ولا يصح رفعه على البدل لعدم وجود النفي. ثم قال تعالى : فَسُبْحانَ اللَّهِ أي : فسبحوا سبحان اللّه اللائق به ، ونزهوه عما لا يليق به من الأمور ، التي من جملتها : أن يكون له شريك فى الألوهية. وإيراد الجلالة فى موضع الإضمار ، حيث لم يقل فسبحانه للإشعار بعلية الحكم ، فإنّ الألوهية مناط لجميع صفات

كماله ، التي من جملتها : تنزهه تعالى عما لا يليق به ، ولتربية المهابة وإدخال الروعة. ثم وصفه بقوله : رَبِّ الْعَرْشِ ، وخصه بالذكر ، مع كونه رب كل شيء لعظم شأنه لأنّ الأكوان فى جوفه كلا شيء ، أي : تنزيها له عما يصفونه عن أن يكون من دونه آلهة.

ثم بيّن قوة عظمته وعز سلطانه القاهر ، فقال : لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ أي : لا يمكن لأحد من مخلوقاته أن يناقشه أو يسأله عما يفعل هيبة وإجلالا ، وَهُمْ يُسْئَلُونَ أي : وعباده يسألون عما يفعلون ، نقيرا وقطميرا لأنهم مملوكون له تعالى ، مستعبدون ، ففيه وعيد للكفرة ، فالآية تتميم لقوله : (لاعِبِينَ) ، بل خلقنا الأشياء كلها

---

(١) من الآية ١٠ من سورة إبراهيم.

(٢) من الآية ٦٥ من سورة التوبة.

لحكمة ، فمنها ما أدركتم حكمته ، ومنها ما غاب عنكم ، فكلوا أمره إلى اللّه ، ولا تسألوه عما يفعل ، فإنه لا يسأل عن فعله ، وأنتم تسألون.

ثم قال تعالى : أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، هو إضراب وانتقال من إظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة بإظهار خلوها من خصائص الألوهية ، التي من جملتها إنشار الموتى ، وإقامة البرهان القاطع على استحالة تعدد الإله ، إلى إظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة ، مع عرائها عن تلك الخصائص ، وتبكيتهم بإلجائهم إلى إقامة البرهان على دعواهم الباطلة. والهمزة : لإنكار ما اتخذوه واستقباحه ، أي : بل اتخذوا من دونه – أي : متجاوزين إياه تعالى ، مع ظهور شؤونه الجليلة الموجبة لتفرده بالألوهية – آلهة ، مع ظهور خلوهم عن خصوص الإلهية بالكلية.

قُلْ لهم ، بطريق التبكيت : هاتُوا بُرْهانَكُمْ على ما تدّعونه ، من جهة العقل والنقل فإنه لا صحة لقول لا دليل عليه فى الأمور الدينية ، لا سيما فى هذا الأمر الخطير ، فإن بهتوا فقل لهم : هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي أي : بهذا نطقت الكتب السماوية قاطبة ، وشهدت به سنّة الرسل المتقدمة كافة. فهذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ من أمتى ، أي : عظتهم ، وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي من الأمم السالفة ، أي : بهذا أمرنا ربنا ووعظنا ، وبه أمر من قبلنا ، يعنى : انفراده سبحانه بالألوهية واختصاصه بها.

وقيل : المعنى : هذا كتاب أنزل على أمتى ، وهذا كتاب أنزل على أمم الأنبياء – عليهم السلام –

قبلى ، فانظروا :

هل فى واحد منها غير الأمر بالتوحيد والنهى عن الإشراك ، ففيه تبكيت لهم. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ أي : لا يفهمونه ، ولا يميزون بينه وبين الباطل ، فهو إضراب وانتقال من تبكيتهم بمطالبة البرهان ، إلى بيان أنه لا ينجع فيهم المحاججة لجهلهم وعنادهم ، ولذلك قال : فَهُمْ مُعْرِضُونَ أي : فهم لأجل جهلهم وعتوهم مستمرون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول ، لا يرعوون عما هم عليه من الغى والضلال ، وإن كررت عليهم البينات والحجج. أو معرضون عما ألقى عليهم من البراهين العقلية والنقلية لانهماكهم.

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي «١» إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ، هذا مقرر لما قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الإلهية ، وأجمعت عليه الرسل – عليهم السلام – قاطبة. وصيغة المضارع فى (يوحى) لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورة الوحى العجيبة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قوله تعالى : (وَ مَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ) ، العندية ، هنا ، عندية اصطفاء وتقريب ، وهذه صفة العارفين المقربين ، لا يستكبرون عن عبادته ، بل خاضعون لجلاله وقهريته على الدوام ، ولا يستحسرون :

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص : (نُوحِي) بالنون وكسر الحاء ، على التعظيم ، وقرأ الآخرون – بالياء وفتح الحاء ، (انظر : الإتحاف ٢/ ٢٦٢).

لا يملّون منها ولا يشبعون ، غير أنهم يتلونون فيها من عبادة الجوارح إلى عبادة القلوب كالتفكر والاعتبار ، إلى عبادة الأرواح كالشهود والاستبصار ، إلى عبادة الأسرار كالعكوف فى حضرة الكريم الغفار ، ينزهون اللّه تعالى فى جميع الأوقات ، لا يفترون عن تسبيحه بالمقال أو الحال.

وقوله تعالى : أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً ... إلخ ، تصدق على من مال بقلبه إلى محبة الأكوان ، أو ركن إلى الحظوظ والشهوات ، وقوله تعالى : لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا ، اعلم أن ثلاثة أشياء إذا تعدد مدبرها فسد نظامها أولها : الألوهية ، فلو تعددت لفسد نظام العالم ، وثانيها : السلطنة ، إذا تعددت فى قطر واحد فسدت الرعية ، وثالثها :

الشيخوخة ، إذا تعددت على مريد واحد فسدت تربيته ، كالطبيب إذا تعدد على مريض واحد فسد علاجه. واللّه تعالى أعلم.

وقوله تعالى : لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ قال الكواشي : يعنى : لا يسأل عن فعله وحكمه لأنه الرب ، وهم يسألون لأنهم عبيده. وبعض الناس يقول : هذه آية الدبوس «١». قلت : وقد تقلب السين زايا ، ومعناها : أن كل ما تحكم به القدرة : يجب حنو الرأس له ، من غير تردد ولا سؤال. ثم قال : ولو نظر النظر الصحيح لرآها أنصف آية فى كتاب اللّه تعالى وذلك لأنه جمع فيها بين صفة الربوبية وصفة العبودية. هـ.

وقوله : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا يعنى : أن التوحيد مما أجمعت عليه الرسل والكتب السماوية. والفناء فيه على ثلاثة أقسام : فناء فى توحيد الأفعال ، وهو ألا يرى الفعل إلا من اللّه ، ويغيب عن الوسائط والأسباب ، وفناء فى توحيد الصفات ، وهو أن يرى ألا قادر ولا سميع ولا بصير ولا متكلم إلا اللّه ، وفناء فى توحيد الذات ، وهو أن يرى ألا موجود إلا اللّه ، ذوقا ووجدا وعقدا. كما قال صاحب العينية :

هو الموجد الأشياء ، وهو وجودها وعين ذوات الكلّ ، وهو الجوامع «٢»

وقد أشار بعضهم إلى هذه الفناءات ، فقال :

فيفنى ، ثم يفنى ، ثم يفنى ، فكان فناؤه عين البقاء

وهنا – أي : فى مقام الفناء والبقاء – انتهت أقدام السائرين ، ورسخت أسرار العارفين ، مع ترقيات وكشوفات أبد الآبدين ، جعلنا اللّه من حزبهم. آمين.

---

(١) هكذا فى الأصول.

(٢) المراد : أن الحق تعالى قيوم الأشياء ومفيضها من العدم ، والمتجلى عليها بمراده منها ، إذ أنها فى ذاتها فانية من قبل ومن بعد لأنه لا قيومية لها من ذاتها. هذا هو المعنى الذي ينبغى أن يفهم من خلال هذا البيت وأشباهه. [.....]

ثم أنكر على من ادعى الولد له ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٢٦ الى ٢٩]

وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً ، حكى اللّه تعالى جناية أخرى لبعض المشركين ، جيء بها لبيان بطلانها. والقائل بهذه المقالة حى من خزاعة ، وقيل : قريش وجهينة وبنو سلمة وبنو مليح ، يقولون : الملائكة بنات اللّه ، وأمهاتهم سروات الجن ، تعالى اللّه عن قولهم علوا كبيرا.

والتعرض لعنوان الرحمانية المنبئة عن كون جميع ما سواه مربوبا له تعالى ، نعمة أو منعما عليه لإبراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة ، سُبْحانَهُ أي : تنزه تنزيها يليق بكمال ذاته ، وتقدّس عن الصاحبة والولد ، بَلْ هم عِبادٌ للّه تعالى ، و«بَلْ» إبطال لما قالوا ، أي : ليست الملائكة كما قالوا ، بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ مقربون عنده ، لا يَسْبِقُونَهُ أي : لا يتقدمونه بِالْقَوْلِ ، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم به. وهذه صفة أخرى لهم ، منبهة على كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره تعالى ، أي : لا يقولون شيئا حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به. وأصله : لا يسبق قولهم قوله ، ثم أسند السبق إليهم لمزيد تنزههم عن ذلك ، وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ أي : لا يعملون إلا ما أمرهم به ، وهو بيان لتبعيتهم له تعالى فى الأفعال ، إثر بيان تبعيتهم له فى الأقوال ، فإن نفى سبقيتهم له تعالى بالقول : عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه ، كأنه قيل : هم بأمره يقولون وبأمره يعملون ، لا بغير أمره أصلا.

يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ أي : ما عملوا وما هم عاملون ، وقيل : ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد خلقهم. وهو تقرير لتحقق عبوديتهم لأنهم إذا كانوا مقهورين تحت علمه تعالى وإحاطته انتفت عنهم أوصاف الربوبية المكتسبة من مجانسة البنوة ، وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى أن يشفع له ، مهابة منه تعالى. قال ابن عباس : «هم أهل لا إله الا اللّه» ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ عز وجل مُشْفِقُونَ : خائفون مرتعدون. قال بعضهم : أصل الخشية : الخوف مع التعظيم ، ولذلك خص بها العلماء ، وأصل الإشفاق : الخوف مع الاعتناء ، فعند تعديته بمن : يكون معنى الخوف فيه أظهر ، وعند تعديته بعلى : ينعكس الأمر فيكون معنى الإشفاق فيه أظهر.

وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ أي : من الملائكة إذ الكلام فيهم ، إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ أي : متجاوزا إياه تعالى ، فَذلِكَ الذي فرض أنه قال ذلك فرض المحال ، نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كسائر المجرمين ، ولا ينفى هذا عنهم

(٤٥٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٥٦

ما ذكر قبل من صفاتهم السنية وأفعالهم المرضية لأنه فرض تقدير ، وفيه من الدلالة على قوة ملكوته تعالى ، وعزة جبروته ، واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم فى حقهم ما توهمه أولئك الكفرة ، ما لا يخفى ، كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ أي : مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى الظالمين ، الذين يضعون الأشياء فى غير مواضعها ، ويتعدون أطوارهم.

قال الكواشي : هذا القول وارد على سبيل التهديد والوعيد الشديد على ارتكاب الشرك ، كقوله : وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ «١». هـ. فالقصد : تفظيع أمر الشرك ، وأنه لو صدر ممن صدر لأحبط عمله ، وكان جزاء صاحبه جهنم ، ومثل ذلك الجزاء نجزى الظالمين ، وهم الكافرون ،

والحاصل : أنه على سبيل الفرض ، مع علمه تعالى أنه لا يكون من الملائكة ، فهو من إخباره عما لا يكون كيف يكون لعلمه بما لا يكون ، مما جاز أن يكون ، كيف يكون. هـ. من الحاشية الفاسية ببعض اختصار.

فالكاف من «كَذلِكَ» : فى محل مصدر تشبيهى ، مؤكد لمضمون ما قبله. والقصر ، المستفاد من التقديم للمصدر ، معتبر بالنسبة إلى النقصان دون الزيادة ، أي : لا جزاء أنقص منه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : أنوار الملكوت متدفقة من بحر أسرار الجبروت ، من غير تفريع ، ولا تولد ، ولا علاج ، ولا امتزاج ، بل :

كن فيكون ، لكن حكمته تعالى اقتضت ترتيب الأشياء وتفريع بعضها من بعض ، ليبقى السر مصونا والكنز مدفونا.

فأسرار الذات العلية منزهة عن اتخاذ الصاحبة والولد ، بل القدرة تبرز الأشياء بلا علاج ولا أسباب ، والحكمة تسترها بوجود العلاج والأسباب. فكل ما ظهر فى عالم التكوين قد عمّته قهرية العبودية ، وانتفت عنه نسبة البنوة لأسرار الربوبية ، فأهل الملأ الأعلى عباد مكرمون ، مقدّسون من دنس الحس ، مستغرقون فى هيمان القرب والأنس ، وأهل الملأ الأسفل مختلفون ، فمن غلب عقله على شهوته ، ومعناه على حسه ، وروحانيته على بشريته ، فهو كالملائكة أو أفضل. ومن غلبت شهوته على عقله ، وحسه على معناه ، وبشريته على روحانيته ، كان كالبهائم أو أضل. ومن التحق بالملأ الأعلى ، من الأولياء المقربين ، انسحب عليه ما مدحهم به تعالى من قوله : (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ) ، ومن قوله : (لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ) ، بأن يدبروا معه شيئا قبل ظهور تدبيره ، وهم بطاعته يعملون ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشية هيبته مشفقون ، (وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ) بأن يدعى شيئا من أوصاف الربوبية ، كالكبرياء ، والعظمة على عباده ، فذلك نجزيه جهنم ، وهى نار القطيعة ، كذلك نجزى الظالمين. وفى الحكم : «منعك أن تدعى ما ليس لك مما للمخلوقين ، أفيبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين»؟.

---

(١) من الآية ٨٨ من سورة الأنعام.

ثم برهن على وحدانيته ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٣٠ الى ٣٣]

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)

قلت : «فِجاجاً» : حال من «سبل» ، وأصله : وصف له ، فلما تقدم أعرب حالا. وقيل «سُبُلًا» : بدل من «فِجاجاً».

وفى إتيانه : إيذان أن تلك الفجاج نافذة لأن الفج قد يكون نافذا وقد لا. قاله المحشى.

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا رؤية اعتبار أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أي : جماعة السموات وجماعة الأرض كانَتا ، ولذلك لم يقل كنّ ، رَتْقاً أي : ملتصقة بعضها ببعض. والرتق : الضم والالتصاق. وهو مصدر بمعنى المفعول ، أي : كانتا مرتوقتين ، أي : ملتصقتين ، فَفَتَقْناهُما فشققناهما ، فالفتق ضد الرتق. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : «كانتا شيئا واحدا متصلتين ، ففصل اللّه بينهما ، فرفع السماء إلى حيث هى ، وأقرّ الأرض». وفى رواية عنه : أرسل ريحا فتوسطتهما ففتقتهما. وقال السدى : (كانت السموات مؤتلفة طبقة واحدة ، ففتقها ، فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرض ، كانت طبقة واحدة ، ففتقها ، فجعلها سبع أرضين).

فإن قيل : متى رأوهما رتقا حتى جاء تقريرهم بذلك؟ قلنا : مصب الكلام والتقرير هو فتق السماوات ورفعها ، وهو مشاهد بالأبصار ، وهم متمكنون من النظر والاعتبار ، فيعلمون أن لها مدبرا حكيما ، فتقها ورفعها ، وهو الحق جل جلاله ، وذكر الرتق زيادة إخبار ، فكأنه قال : ألم يروا إلى فتق السماوات ورفعها؟ وقال الكواشي : لمّا كان القرآن معجزا ، كان وروده برتقهما كالمشاهد المرئي ، أو : لمّا كان تلاصق السماوات والأرضين ، وما بينهما ، وتباينهما ، جائزا عقلا ، وجب تخصيص التلاصق من التباين ، وليس ذلك إلا للّه تعالى. هـ.

وقيل : كانت السماوات صلبة لا تمطر ، والأرض رتقا لا تنبت ، ففتق السماء بالأمطار ، والأرض بالنبات. وروى هذا عن ابن عباس أيضا ، وعليه أكثر المفسرين ، وعلم الكفرة الرتق والفتق ، بهذا المعنى ، مما لا خفاء فيه. والرؤية على الأول رؤية علم ، وعلى الثاني رؤية عين.

وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أي : خلقنا من الماء كل حيوان ، كقوله تعالى : وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ «١» ، وذلك لأنه من أعظم مواده ، أو لفرط احتياجه إليه ، وحبه له ، وعدم صبره عنه ، وانتفاعه به ، ويدخل

(١) من الآية ٤٥ من سورة النور.

(٤٥٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٥٨

فى ذلك : النبات مجازا دون الملائكة ، فأل فيه للحقيقة والماهية ، إلا أنه صرفه عن ذلك إلى العهد الذهني قرينة الجعل ، كما فى آية : فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ «١» ، فإن القرينة تخلص ذلك للبعضية وإرادة الأشخاص. وقيل : المراد به :

المنىّ. فأل فيه ، حينئذ ، للعهد الذهني فقط. قال القشيري : كلّ مخلوق حىّ فمن الماء خلقه ، فإنّ أصل الحيوان الذي يحصل بالتناسل النطفة ، وهى من جملة الماء. هـ. وتقدم أن الملائكة لا تناسل فيها. أَفَلا يُؤْمِنُونَ باللّه وحده ، وهو إنكار لعدم إيمانهم ، مع ظهور ما يوجبه حتما من الآيات الآفاقية والأنفسية ، الدالة على تفرده تعالى بالألوهية.

وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أي : جبالا ثوابت ، من رسا الشيء إذا ثبت ورسخ ، أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ أي : كراهية أن تتحرك وتضطرب بهم ، أو لئلا تميد بهم – بحذف اللام ، و«لا» لعدم الإلباس. وَجَعَلْنا فِيها أي :

فى الأرض ، وتكرير الجعل لاختلاف المجعولين ، ولتوفية مقام الامتنان حقه ، أو فى الرواسي لأنها المحتاجة إلى الطرق ، فِجاجاً : جمع فج ، وهو الطريق الواسع ، نفذ أم لا ، أي : جعلنا فى الأرض مسالك واسعة ، وسُبُلًا نافذة. فالسبل هى الفجاج مع قيد النفوذ. فإن قيل : أىّ فرق بين هذا وبين قوله : لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً «٢»؟ فالجواب : أنه هنا بيّن أنه خلقها على هذه الصفة ، وهناك بيّن أنه جعل فيها طرقا واسعة ، وليس فيه بيان أنه خلقها كذلك ، فما هنا تفسير لما هناك. انظر النسفي.

وقوله تعالى : لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ أي : إلى البلاد المقصودة بتلك السبل ، أو إلى مصالحهم ومهماتهم.

وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً من السقوط ، كقوله : وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ «٣» ، أو من الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم ، أو من استراق السمع بالشهب ، كما قال : وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ «٤». وَهُمْ أي : الكفار عَنْ آياتِها أي : عن الأدلة التي فيها ، كالشمس والقمر والنجوم ، وغير ذلك مما فيها من العجائب الدالة على وحدانيته تعالى وقدرته وحكمته ، التي بعضها محسوس ، وبعضها معلوم بالبحث فى علمى الطبيعة والهيئة ، مُعْرِضُونَ لا يتدبرون فيها ، فيقفون على ما هم عليه من الكفر والضلال ، فيؤمنون.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ لتسكنوا فيه ، وَالنَّهارَ لتتصرفوا فيه ، وَالشَّمْسَ لتكون سراج النهار ، وَالْقَمَرَ

ليكون سراج الليل ، وهذا بيان لبعض تلك الآيات التي هم عنها معرضون. وقوله : كُلٌّ أي : كلهم ، والمراد : جنس الطوالع ، فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ أي : يسيرون سير العائم فى الماء. عن ابن عباس رضي اللّه عنه :

الفلك السماء ، وقيل : موج مكفوف تحت السماء ، يجرى فيه الشمس والقمر والنجوم. وجمهور أهل الهيئة أن الفلك :

---

(١) من الآية ١٧ من سورة يوسف.

(٢) من الآية ٢٠ من سورة نوح.

(٣) من الآية ٦٥ من سورة الحج.

(٤) الآية ٧ من سورة الصافات.

جسم مستدير ، وأنهن تسعة ، وهل هى السموات السبع ، فيكون الكرسي ثامنا ، والعرش تاسعا ، أو غيرهن ، فتكون تحت السموات أو فوقها؟ قولان لهم. والمراد هنا : الجنس ، كقولك : كساهم الأمير حلة ، أي : حلة حلة ، وجعل الضمير واو العقلاء لأن السباحة حالهم.

قال فى المستخرج من كتاب الغزنونى : «كُلٌّ» أي : كل واحد من الشمس والقمر وسائر السيارة ، وإن لم تذكرن لأنه جمع قوله : (يُسَبِّحُونَ) والمعنى : يجرون كالسابح ، أو يدورون ، والسيارة تجرى فى الفلك على عكس جرى الفلك ، ولها تسعة أفلاك ، فالقمر فى الفلك الأدنى ، ثم عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الشمس ، ثم المريخ ، ثم المشترى ، ثم زحل ، والثامن : فلك البروج ، والتاسع : الفلك الأعظم. هـ. وقال فى سورة يس : خص الشمس والقمر هنا ، وفى سورة الأنبياء لأن سيرهما أبدا على عكس دور الفلك ، وسير الخمسة قد يكون موافقا لسيره عند رجوعها. هـ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : أو لم ير الذين كفروا بوجود التربية أن سموات الأرواح وأرض النفوس كانتا رتقا صلبة ، ميتة بالجهل ، ففتقناهما بالعلوم وأسرار التوحيد؟ والمعنى : أن بعض الأرواح والنفوس تكون ميتة صلبة ، فإذا صحبت أهل التربية ، انفتقت بالعلوم والأسرار ، فهذا شاهد بوجود أهل التربية ، ومن قال بانقطاعها فقوله مردود بالمشاهدة.

وجعلنا من ماء الغيب – وهى الخمرة الأزلية – كلّ شىء حى ، أفلا يؤمنون بوجود هذا الماء عند أربابه؟ وجعلنا فى أرض النفوس جبالا من العقول لئلا تميل إلى الهوى فتموت ، وجعلنا فيها طرقا يسلك منها

إلى الحضرة ، وهى كيفية الرياضة وأنواع المجاهدة ، وهى طرق كثيرة ، والمقصد واحد ، وهو الوصول إلى الفناء والبقاء ، التي هى معرفة الحق بالعيان ، وهو قوله تعالى : (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) إلى الوصول إلى حضرتنا.

وجعلنا السماء ، أي : سماء القلوب الصافية ، سقفا محفوظا من الخواطر والوساوس والشكوك والأوهام والشياطين ، قال بعضهم : (إذا كان الحق تعالى قد حفظ السماء بالشهب من الشياطين ، فقلوب أوليائه أولى بالحفظ). وهم عن آياتها ، أي : عن دلائل حفظها وصيانتها معرضون لانهماكهم فى الغفلة. وهو الذي خلق ليل القبض ونهار البسط وشمس العرفان وقمر توحيد الدليل والبرهان ، كلّ فى موضعه ، لا يتعدى أحد على صاحبه ، ولكل واحد سير معلوم وأدب محتوم. وباللّه التوفيق.

ولمّا قامت الحجة على الكفرة بما ذكر من الآيات والدلائل القاطعة ، وانقطعوا ، قالوا : ننتظر به ريب المنون ، فنستريح منه ، فأنزل اللّه تعالى :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٣٤ الى ٣٥]

وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ (٣٥)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٦٠

يقول الحق جل جلاله لنبيه – عليه الصلاة والسلام – : وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أي : البقاء الدائم لكونه مخالفا للحكمة التكوينية والتشريعية ، أَفَإِنْ مِتَّ بمقتضى حكمتنا فَهُمُ الْخالِدُونَ بعدك؟ نزلت حين قالوا : نتربص به رب المنون ، فنفى عنه الشماتة بموته ، فإن الشماتة بالموت مما لا ينبغى أن يصدر من عاقل ، أي : قضى اللّه ألا يخلد فى الدنيا بشرا ، فإن متّ – يا محمد – أيبقى هؤلاء الكفرة؟ كلا كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ أي : ذائقة مرارة مفارقتها جسدها ، فتستوى أنت وهم فيها ، فلا تتصور الشماتة بأمر عام.

وَنَبْلُوكُمْ ، الخطاب : إما للناس كافة بطريق التلوين ، أو للكفرة بطريق الالتفات ، وسمى ابتلاء ، وإن كان عالما بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم لأنه فى صورة الاختبار ، أي : نختبركم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ ، أي : بالفقر والغنى ، أو بالضر والنفع ، أو بالعطاء والمنع ، أو بالذل والعز ، أو بالبلاء والعافية ، فِتْنَةً اختبارا ، هل تصبرون وتشكرون ، أو تجزعون وتكفرون. و«فِتْنَةً» : مصدر مؤكد «ل نَبْلُوكُمْ» ، من غير لفظه. وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ لا إلى غيرنا ، فنجازيكم على حسب ما يؤخذ منكم من الصبر والشكر ، أو الجزع والكفران. وفيه إيماء إلى أن المقصود من هذه الدنيا : الابتلاء والتعرض للثواب

والعقاب. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لا بد لهذا الوجود بما فيه أن تنهد دعائمه ، وتسلب كرائمه ، ولا بد من الانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء ، ومن دار التعب إلى دار الهناء ، ومن دار العمل إلى دار الجزاء. فالعاقل من أعرض بكليته عن هذه الدار ، وصرف وجهته إلى دار القرار ، فاشتغل بالتزود للرحيل ، وبالتأهب للمسير ، فلا مطمع للخلود فى هذه الدار ، وقد رحل منها الأنبياء والصالحون والأبرار ، وتأمل قول الشاعر :

صبرا فى مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع

وقوله تعالى : وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ، اعلم أن تخالف الآثار وتنقلات الأطوار على العبد من أفضل المنن عليه ، إن صحبته اليقظة ، فيرجع إلى اللّه تعالى فى كل حال تنزل به ، إن أصابته ضراء رجع إلى اللّه بالصبر والرضا ، وإن أصابته سواء رجع إليه بالحمد والشكر ، فيكون دائما فى السير والترقي ، وهذا معنى قوله تعالى :

وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ أي : بهما. فالرجوع إلى اللّه فى السراء والضراء من أركان الطريق ، والرجوع إلى اللّه فى الضراء بالصبر والرضا ، وفى السراء بالحمد والشكر ، ورؤية ذلك من اللّه بلا واسطة. وفى الحديث عنه صلى اللّه عليه وسلم : «من ابتلى فصبر ، وأعطى فشكر ، وظلم فغفر أو ظلم فاستغفر» ، ثم سكت – عليه الصلاة والسلام – فقالوا :

ماله يا رسول اللّه؟ قال : «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» «١». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «عجبا لأمر المؤمن ، إنّ أمره كلّه خير ، وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن ، إن أصابته سرّاء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضرّاء صبر ، فكان خيرا له» «٢».

---

(١) عزاه فى الجامع الصغير (ح ٨٢٨١) ، للطبرانى والبيهقي ، عن سخبرة ، وحسّنه.

(٢) أخرجه مسلم فى (الزهد ، باب : المؤمن أمره كله خير) ، عن صهيب رضي اللّه عنه.

والرجوع إلى اللّه فى الضراء أصعب ، والسير به أقوى لما فيه من التصفية والتطهير من أوصاف البشرية ، ولذلك قدّمه الحق تعالى. وفى الحديث : «إذا أحبّ اللّه عبدا ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، وإن رضى اصطفاه» ، وفى الخبر عن اللّه تعالى : «الفقر سجنى ، والمرض قيدى ، أحبس بذلك من أحببت من عبادى». وبه يحصل على عمل القلوب الذي هو الصبر والرضا والزهد والتوكل ، وغير ذلك من

المقامات ، وذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، ومن أعمال القلوب يفضى إلى أعمال الأرواح والأسرار ، كفكرة الشهود والاستبصار.

وفكرة ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة ، بل من ألف سنة ، كما قال الشاعر :

كلّ وقت من حبيبى قدره كألف حجّه

لأن المقصود من الطاعات وأنواع العبادات : هو الوصول إلى مشاهدة الحق ومعرفته ، فالفكرة والنظرة لا جزاء لها إلا زيادة كشف الذات وأنوار الصفات ، منحنا اللّه من ذلك ، الحظ الأوفر. آمين.

ومن جملة الشر الذي ابتلى اللّه به عباده : إذاية الخلق ، كما قال لنبيه – عليه الصلاة والسلام – :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٣٦ الى ٤١]

وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠)

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٤١)

قلت : (أَ هذَا الَّذِي) : مقول لحال محذوفة ، أي : قائلين : أهذا الذي ، وحذف الحال ، إذا كان قولا ، مطرد. (وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ) : حال ، و(بَلْ تَأْتِيهِمْ) : عطف على (لا يَكُفُّونَ) أي : لا يكفونها ، بل تأتيهم.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : المشركون إِنْ يَتَّخِذُونَكَ ما يتخذونك إِلَّا هُزُواً مهزوءا بك على معنى قصر معاملتهم معه – عليه الصلاة والسلام – على اتخاذهم إياه هزوا ، كأنه قيل : ما يفعلون بك إلا اتخاذك هزوا. نزلت فى أبى جهل – لعنه اللّه – ، مرّ به النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فضحك وقال : هذا نبىّ بنى عبد مناف «١». قال القشيري : (لو شاهدوه على ما هو عليه من أوصاف التخصيص ، وما رقّاه اللّه من المنزلة ،

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر (٤/ ٥٧٣) لابن أبى حاتم عن السدى.

لظلوا له خاضعين ، ولكنهم حجبوا عن معانيه وسريرته ، وعاينوا فيه جسمه وصورته). فاستهزءوا بما لم يحيطوا بعلمه ، حال كونهم يقولون : أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ أي : يعيب آلِهَتَكُمْ ، فالذكر يكون بخير وبضده

، فإن كان الذاكر صديقا للمذكور فهو ثناء. وإن كان عدوا فهو ذم. وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ أي : بذكر اللّه وما يجب أن يذكر به من الوحدانية ، هُمْ كافِرُونَ لا يصدقون به أصلا ، فهم أحق بالهزء والسخرية منك لأنك محق وهم مبطلون. والمعنى أنهم يعيبون – عليه الصلاة والسلام – أن يذكر آلهتهم ، التي لا تضر ولا تنفع ، بالسوء ، والحال :

أنهم بذكر الرحمن ، المنعم عليهم بأنواع النعم ، التي هى من مقتضيات رحمانيته ، كافرون ، لا يذكرونه بما يليق به من التوحيد وأوصاف الكمال ، أو : بما أنزل من القرآن لأنه ذكر الرحمن ، هُمْ كافِرُونَ جاحدون ، فهم أحقاء بالعيب والإنكار. وكرر لفظ «هُمْ» للتأكيد ، أو لأن الصلة حالت بينه وبين الخبر ، فأعيد المبتدأ.

ثم قال تعالى : خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ ، العجل والعجلة مصدران ، وهو تقديم الشيء على وقته. والمراد بالإنسان : الجنس ، جعل لفرط استعجاله ، وقلة صبره ، كأنه خلق من العجلة ، والعرب تقول لمن يكثر منه الشيء :

خلق منه ، تقول لمن يكثر منه الكرم : خلق من الكرم. ومن عجلته : مبادرته إلى الكفر واستعجاله بالوعيد. روى أنها نزلت فى النضر بن الحارث ، حين استعجل العذاب بقوله : اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا .. الآية «١» ، كأنه قال : ليس ببدع منه أن يستعجل ، فإنه مجبول على ذلك ، وطبعه ، وسجيته.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : أن المراد بالإنسان آدم عليه السّلام ، فإنه حين بلغ الروح صدره أراد أن يقوم. وروى : أنه لما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، ولمّا وصل جوفه اشتهى الطعام ، فكانت العجلة من سجيته ، وسرت فى أولاده. وإنما منع الإنسان من الاستعجال وهو مطبوع عليه ، ليتكمل بعد النقص ، كما أمره بقطع الشهوة وقد ركّبها فيه لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة. قال القشيري : العجلة مذمومة ، والمسارعة محمودة. والفرق بينهما : أن المسارعة : البدار إلى الشيء فى أول وقته ، والعجلة : استقباله قبل وقته ، والعجلة سمة وسوسة الشيطان ، والمسارعة قضية التوفيق. هـ.

وقال الورتجبي : خلقهم من العجلة ، وزجرهم عن التعجيل إظهارا لقهاريته على كل مخلوق ، وعجزهم عن الخروج عن ملكه وسلطانه. وحقيقة العجلة متولدة من الجهل بالمقادير السابقة. هـ. قلت : مازالت الطمأنينة والرّزانة من شأن العارفين ، وبها عرفوا ، والعجل والقلق من شأن الجاهلين ، وبها وصفوا.

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

وقيل : العجل الطين ، بلغة حمير ، ولا مناسبة له هنا.

قال تعالى ، صارفا للخطاب عن الرسول إلى المستعجلين : سَأُرِيكُمْ آياتِي : نقماتى ، كعذاب النار وغيره ، فَلا تَسْتَعْجِلُونِ بالإتيان بها ، وهو نهى عما جبلت عليه نفوسهم ليقهروها عن مرادها من الاستعجال.

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ : إتيان العذاب ، أو القيامة ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى وعدكم بأنه يأتينا ، قالوه استعجالا بطريق الاستهزاء والإنكار ، لا طلبا لتعيين وقته ، والخطاب للنبى صلّى اللّه عليه وسلم والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمة المنبئة عن مجيء الساعة. قال تعالى : لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هذا استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه ، وفظاعة ما فيه من العذاب ، وأنهم يستعجلونه لجهلهم بشأنه. وقوله تعالى : حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ : مفعول «يعلم» ، وهو عبارة عن الوقت الموعود ، الذي كانوا يستعجلونه. وقوله : لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : حين يرون ويعلمون حقيقة الحال ، وهو معاينة العذاب. وجواب «لو» : محذوف ، أي : لو يعلمون الوقت الذي يستعجلونه بقولهم : متى هذا الوعد؟ وهو الوقت الذي تحيط بهم النار من ورائهم وقدامهم ، فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم ، ولا يجدون ناصرا ينصرهم ، لما كانوا بهذه الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكن جهلهم به هو الذي هوّنه عندهم.

بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً أي : بل تأتيهم النار أو الساعة فجأة ، فَتَبْهَتُهُمْ : فتحيّرهم أو تغلبهم ، فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها فلا يقدرون على دفعها عنهم ، أي : النار أو الساعة ، وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ : يمهلون ليستريحوا طرفة عين.

ثم سلّى رسوله عن استهزائهم ، فقال : وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ : نزل أو أحاط أو حلّ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ أي : من أولئك الرسل – عليهم السلام – جزاء ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ، وهو العذاب الدائم. نسأل اللّه العافية.

الإشارة : كل من خرق عوائد نفسه ، وخرج عن عوائد الناس ، أو أمر بالخروج عن العوائد ، رفضه الناس واتخذوه هزوا ، سنة اللّه التي قد خلت من قبل ، لم يأت أحد بذلك إلا عودى ، فإن ظهر عليه أثر الخصوصية من علم لدنى ، أو هداية خلق على يده ، استعجلوه بإظهار الكرامة ، كما هو شأن الإنسان ، خلق من عجل ، فيقول :

سأوريكم آياتي ، فإن الأمر إذا كان مؤسسا على الحق لا بد أن تظهر أنواره وأسراره ، فلو يعلم الذين كفروا بطريق الخصوص ، حين ترهقهم الحسرة ، وتحيط بهم الندامة ، إذا رأوا أهل الصفاء يسرحون فى أعلى عليين حيث شاءوا ، وجوههم كالشموس الضاحية ، لبادروا إلى الانقياد لهم ، وتقبيل التراب تحت أقدامهم ، ولكنهم اليوم فى غفلة ساهون.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٦٤

ويقال لمن أنكر عليه أهل زمانه طريق التجريد وخرق العوائد : ولقد استهزئ بمن كان قبلك ممن سلك هذه الطريق ، فأوذوا ، وضربوا ، وأخرجوا من بلادهم ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون ، إما فى الدنيا أو فى الآخرة.

فإذا نزل بأسه فلا حافظ منه إلا الرحمن ، كما قال تعالى :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٤٢ الى ٤٤]

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ (٤٤)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : مَنْ يَكْلَؤُكُمْ : يحفظكم بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ بأس الرَّحْمنِ الذي تستحقونه ، إذا نزل بكم ليلا أو نهارا. قال الواسطي : من يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن أن يظهر عليكم ما سبق فيكم؟ وقال ابن عطاء : من يكلؤكم من أمر الرحمن سوى الرحمن ، وهل يقدر أحد على الكلاءة سواه؟. وتقديم الليل لأن الدواهي فيه أكثر وقوعا وأشد وقعا. وفى التعرض لعنوان الرحمانية إيذان بأن كلاءتهم ليس إلا برحمته العامة. بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ أي : بل هم معرضون عن ذكره ، ولا يخطرونه ببالهم ، فضلا أن يخافوا بأسه ، حتى إذا رزقوا الكلاءة عرفوا من الكالئ ، وصلحوا للسؤال عنه.

والمعنى : أنه أمر رسوله – عليه الصلاة والسلام – بسؤالهم عن الكالئ ، ثم أضرب عنه ، وبيّن أنهم لا يصلحون لذلك ، لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم. هكذا للزمخشرى ومن تبعه. وقال ابن جزى : والمعنى : أنه تهديد وإقامة حجة عليهم لأنهم لو أجابوا عن هذا السؤال لاعترفوا بأنه ليس لهم مانع ولا حافظ غيره تعالى – يعنى لما جربوه فى أحوال محنتهم – ثم قال : وجاء قوله : (بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ) ، بمعنى أنهم ، إذا سئلوا ذلك السؤال ، لم يجيبوا عنه ، لأنهم تقوم عليهم الحجة إن أجابوا ، ولكنهم يعرضون عن ذكر اللّه. هـ. أي : يعرضون عن أن يقولوا : كالئنا اللّه عتوا وعنادا. وهو معنى قوله : (بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ) ، كأنه قال : لو سئلوا ، لم يجدوا جوابا ، إلا أن يقولوا : هو اللّه ، لكنهم يعرضون عن ذكره مكابرة. قلت : وما قاله ابن جزى أحسن مما قاله الزمخشري ومن تبعه ، وأقرب.

ثم قال تعالى : أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا ، هذا انتقال من بيان جهلهم بحفظه تعالى ، أو إعراضهم عن ذكره ، إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم. والمعنى : ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تجاوز منعنا

وحفظنا ، فهم يعولون عليها واثقون بحفظها؟ وفى توجيه الإنكار والنفي إلى وجود الآلهة بما ذكر من المنع ، لا إلى نفس الصفة ،

(٤٦٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٦٥

بأن يقال : أم تمنعهم آلهتهم .. إلخ ، من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود ، فضلا عن رتبة المنع ، مالا يخفى.

ثم قال تعالى : لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ أي : يجارون. والصاحب : المجير الوافي ، يعنى : أن الأصنام لا تجير نفسها ، ولا نجيرهم نحن ، أو لا يصحبهم نصر من جهتنا ، فهم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم ، ولا يصحبون بالنصر والتأييد من جهتنا ، فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم؟.

بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، إضراب عما توهموه من منع آلهتهم وحفظها لهم ، أي : ما هم فيه من الحفظ والكلاءة إنما هو منا ، لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا ، وما كلأناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعا لهم بالحياة الدنيا وإمهالا ، كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وظنوا أنهم دائمون على ذلك ، وهو أمل كاذب. أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أي :

ألا ينظرون فيرون أنّا نأتى أرض الكفرة فننقصها من أطرافها بإدخالها فى أيدى المسلمين ، فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا. وهو تمثيل وتصوير لما يخربه اللّه من ديارهم على أيدى المسلمين ، ويضيفها إلى دار الإسلام.

وفى التعبير بنأتى : إشارة إلى أن اللّه تعالى يجريه على أيدى المسلمين ، وأن عساكرهم كانت تأتيهم لغزوهم غالبة عليهم ، ناقصة من أطراف أرضهم. أَفَهُمُ الْغالِبُونَ على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ، أي : أفكفار مكة يغلبون بعد أن نقصنا من أطراف أرضهم؟ أي : ليس كذلك ، بل يغلبهم الرسول – عليه الصلاة والسلام – وأصحابه الكرام ، وقد تحقق ذلك وأنجز اللّه وعده ، واللّه غالب على أمره.

الإشارة : قل من يكلؤ قلوبكم وأسراركم من الرحمن ، أن يذهب بما أودع فيها من المعارف وأنوار الإحسان؟

فلا أحد يحفظها إلا من رحمها بما أودع فيها ، ولهذا كان العارفون لا يزول اضطرارهم ، ولا يكون مع غير اللّه قرارهم ، لا يعتمدون على عمل ولا حال ، ولا على علم ولا مقال ، وفى الحكم : «إلهى ،

حكمك النافذ ، ومشيئتك القاهرة ، لم يتركا لذى حال حالا ، ولا لذى مقال مقالا». وقال أيضا : «إلهى كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها ، هدم اعتمادي عليها عدلك ، بل أقالنى منها فضلك». وكثير من الناس غافلون عن هذا المعنى ، بل هم عن ذكر ربهم معرضون.

قال الورتجبي : قوله تعالى : (قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ ...) الآية ، أخبر عن كمال إحاطته بكل مخلوق ، وتنزيهه عن العجلة بمؤاخذتهم ، كأنه يقول : أنا بذاتى تعاليت ، أدفع بلطفي القديم عنكم قهرى القديم ، ولو لا فضلى السابق وعنايتى القديمة بالرحمة عليكم ، من يدفعه بالعلة الحدثانية؟ وهذا من كمال لطفى عليكم ، وأنتم بعد معرضون عنى يا أهل الجفا ، وذلك قوله : (بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ). هـ بلفظه مع تصحيف فى النسخة.

(٤٦٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٦٦

وقوله تعالى : (بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ ...) الآية ، تمتيع العبد بطول الحياة ، إن كان ذلك فى طاعة اللّه ، وازدياد فى معرفته ، فهو من النعم العظيمة. وفى الحديث : «خيركم من طال عمره وحسن عمله» «١». لكن عند الصوفية :

أنه لا ينبغى للمريد أن ينظر إلى ما مضى من عمره فى طريق القوم ، فقد كان بعض الشيوخ يقول : لا يكن أحدكم عبد الدهور وعبد العدد. قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه : معنى كلامه : أنه لا ينبغى للفقير أن يعد كم له فى طريق القوم ، ليقول : أنا لى كذا وكذا من السنين فى طريق القوم. هـ بالمعنى. ولعل علة النهى لئلا يرى للأيام تأثيرا فى الفتح ، فقد قالوا : هى لمن صدق لا لمن سبق.

وقوله تعالى : (أَ فَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها) قال القشيري : فيه إشارة إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين ، وتطاول العمر ، فإن آخر الأمر «٢» كما قيل :

آخر الأمر ما ترى : القبر واللّحد والثرى

وكما قيل :

طوى العصران «٣» ما نشراه منى فأبلى جدّتى نشر وطيّ

أرانى كلّ يوم فى انتقاص ولا يبقى مع النقصان شيّ «٤»

وكأنه فسر الأرض بأرض النفوس من باب الإشارة. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا بيّن الحق تعالى غاية هول ما يستعجله المستعجلون ، ونهاية سوء حالهم ، عند إتيانه ، ونعى عليهم جهلهم بذلك ، وإعراضهم عند ذكر ربهم ، الذي يكلؤهم من طوارق الليل والنهار ، أمر نبيه – عليه الصلاة والسلام – بأن يخبرهم أن ما ينذرهم به ، مما يستعجلونه ، إنما هو بالوحى ، لا من عنده

، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ (٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ (٤٧)

---

(١) أخرجه الترمذي (ح ٢٣٢٩) عن عبد اللّه بن بسر ، وحسّنه ، بلفظ : «خير الناس من طال عمره وحسن عمله».

(٢) فى الأصول : إلى آخر الأمد.

(٣) فى الأصول : «العمران ما نشاه» ، والمثبت : من لطائف الإشارات ... والعصران : الغداة والعشى ، أو الليل والنهار. انظر : اللسان (عصر ٤/ ٢٩٦٨).

(٤) نسب البيتان إلى محمد بن يعقوب بن إسماعيل ، انظر : الوافي بالوفيات (٥/ ٢٢٢) ، كما نسبا إلى أبى بكر بن أبى الدنيا ، كما فى تاريخ بغداد (١٤/ ٣١١). [.....]

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٦٧

قلت : من قرأ : «يسمع» بفتح الياء ، فالصّم : فاعل ، والدعاء : مفعول ، ومن قرأ بضم التاء ، رباعى فالصم : مفعول أول ، والدعاء : مفعول ثان. ومن قرأ : «مثقال» بضم اللام ، فكان تامة ، وبالنصب : خبر كان ، أي : وإن كان العمل المدلول عليه بوضع الموازين.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : إِنَّما أُنْذِرُكُمْ وأخوفكم من العذاب الذي تستعجلونه ، أو بالساعة الموعودة ، بِالْوَحْيِ القرآنى الصادق ، الناطق بإتيانه ، وفظاعة شأنه ، أي : إنما شأنى أن أنذركم بالإخبار به ، لا بإتيانه فإنه مخالف للحكمة الإلهية إذ الإيمان برهانى لا عيانى ، فإذا أنذرتهم فلا يسمع إنذارك إلا من سبقت له العناية ، دون من سبق له الشقاء ، ولذلك قال تعالى : وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ أي :

الإنذار ، أو لا تسمع أنت الصمّ الدعاء إِذا ما يُنْذَرُونَ يخوّفون ، واللام فى الصُّمُّ للعهد ، وهو إشارة إلى هؤلاء المنذرين ، والأصل : ولا يسمعون إنذارك إذا ينذرون ، فوضع الظاهر موضع المضمر إشارة إلى تصاممهم وسد أسماعهم إذا أنذروا ، وتسجيلا عليهم بذلك. وفى التعبير بالدعاء ، دون الكلام فى الإنذار ، إشارة إلى تناهى صممهم فى حال الإنذار ، فإن الدعاء من شأنه أن يكون بأصوات عالية

مكررة مقارنة لهيئة دالة عليه ، فإذا لم يسمعوا ، مع هذه الحالة ، يكون صممهم فى غاية لا غاية وراءها.

وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ أي : دفعة يسيرة مِنْ عَذابِ رَبِّكَ أي : كائنة منه ، لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ ، وهذا بيان لسرعة تأثيرهم من مجيء نفس العذاب ، إثر بيان عدم تأثرهم من مجرد الإخبار به ، لانهماكهم فى الغفلة ، أي : واللّه لئن أصابهم أدنى شيء من هذا العذاب الذي ينذرون به ، لذلوا ، ودعوا بالويل على أنفسهم ، وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا. وقد بولغ فى الكلام ، حيث عبّر بالمس والنفح لأن النفح يدل على القلة ، فأصل النفح : هبوب رائحة الشيء ، يقال : نفحه بعطية ، إذا أعطاه شيئا يسيرا ، مع أن بناءها للمرة مؤكد لقلتها.

ثم بيّن ما يقع عند إتيان ما أنذروه ، فقال : وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ أي : نقيم الموازين العادلة التي توزن بها الأعمال ، وهو جمع ميزان ، وهو ما يوزن به الشيء ليعرف كمّيته. وعن الحسن : «هو ميزان له كفتان ولسان» ، وإنما جمع الموازين لتعظيم شأنها ، والوزن لصحائف الأعمال فى قول ، وقيل : وضع الميزان كناية عن تحقيق العدل ، والجزاء على حسب الأعمال. وإفراد القسط لأنه مصدر وصف به للمبالغة ، كأنها فى نفسها قسط ، أو على حذف مضاف ، أي : ذوات القسط. وقوله : لِيَوْمِ الْقِيامَةِ أي : لأهل يوم القيامة ، أي : لأجلهم ، أو فى يوم القيامة ، فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً من الظلم ، ولا تنقص حقا من حقوقها ، بل يؤتى كل ذى حق حقه ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

(٤٦٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٦٨

وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أي : وإن كان الشيء أو العمل مثقال حبة من خردل ، أَتَيْنا بِها : أحضرناها وجازينا عليها ، وأنث ضمير المثقال لإضافته إلى حبة ، وَكَفى بِنا حاسِبِينَ ، إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا ، أو عالمين حافظين ، لأن من حسب شيئا علمه وحفظه ، قاله ابن عباس – رضى اللّه عنهما.

الإشارة : كان صلى اللّه عليه وسلم ينذر الناس ويذكّرهم بالوحى التنزيلى ، وبقي خلفاؤه يذكرون بالوحى الإلهامى ، موافقا للتنزيلى ، ولا يسمع وعظهم ويحضر مجالسهم إلا من سبقت له سابقة العناية ، وأما من انتكبت عنه العناية تنكب مجالسهم ، وتصامم عن وعظهم وتذكيرهم ، ولا يسمع الصمّ الدعاء إذا ما ينذرون ، ولا يندمون إلا حين تنزل بهم الأهوال ، ولا ينفع الندم وقد جف القلم ، وذلك حين توضع موازين الأعمال ، فتثقل أعمال المخلصين ، وتخف أعمال المخلّصين ، ولا توضع الموازين إلا لأهل النفوس الموجودة ، وأما من غاب عن نفسه فى شهود محبوبه ، لفنائه فى شهوده ، وانطوائه فى وجوده

، فلا ينصب له ميزان إذ لا يشهد لنفسه حسا ولا فعلا ولا تركا ، وإنما الفعل كله للواحد القهار. ويكون من السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، جعلنا اللّه من خواصهم بمنّه وكرمه. آمين.

ثم شرع فى تفصيل ما أجمل فى قوله : وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، إلى قوله : وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ «١» ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٤٨ الى ٥٠]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٠)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ

،

هذه الأوصاف كلها للتوراة ، فهى فرقان بين الحق والباطل ، وضياء يستضاء به ، ويتوصل به إلى سبيل النجاة ، وذكرا ، أي : شرفا ، أو وعظا وتذكيرا. وتوكيده بالقسم لإظهار كمال الاعتناء به ، أي : واللّه لقد آتيناهما وحيا ساطعا وكتابا جامعا بين كونه فارقا بين الحق والباطل ، وضياء يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية ، وذكرا ينتفع به الناس ، أو شرفا لمن عمل به ، وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره ، المغتنمون لمغانم آثاره ، أو ذكر ما يحتاجون إليه من الشرائع والأحكام ، ودخلت الواو فى الصفات ، كقوله تعالى : وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا «٢» ، وتقول : مررت بزيد الكريم والعالم والصالح.

---

(١) الآيات : ٧ – ٩.

(٢) من الآية ٣٩ من سورة آل عمران.

ثم وصف المتقين أو مدحهم بقوله : الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، حال كونهم بِالْغَيْبِ أي : يخافون عذابه تعالى ، وهو غائب عنهم غير مشاهد لهم ، ففيه تعريض بالكفرة ، حيث لا يتأثرون بالإنذار ما لم يشاهدوا ما أنذروه. أو يخافون اللّه فى الخلاء كما يخافونه بين الناس ، أو يخافونه بمجرد الإيمان به غير مشاهدين له ، وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ أي : خائفون معتنون بالتأهب لها. وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر ، بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق للإيذان بكونها أعظم المخلوقات ، وللتنصيص على الاتصاف بضد ما اتصف به الكفرة الغافلون عنها ، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الإشفاق

ودوامه لهم.

وَهذا أي : القرآن الكريم ، أشير إليه بهذا إيذانا بغاية وضوح أمره ، ذِكْرٌ يتذكر به من تذكر ، وصفه ببعض أوصاف التوراة لموافقته له فى الإنزال ، ولما مرّ فى صدر السورة من قوله : ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ ... «١» إلخ ، مُبارَكٌ كثير الخير ، غزير النفع ، يتبرك به على الدوام. قال القشيري : وصفه بالبركة هو إخبار عن ثباته ، من قولهم : برك البعير ، وبرك الطائر على الماء ، أي : داوم. وهذا الكتاب دائم ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو دال على كلامه القديم ، فلا انتهاء له ، كما لا ابتداء له ولا انتهاء لكلامه. هـ.

أَنْزَلْناهُ على محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وهو صفة ثانية للكتاب أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ استفهام توبيخى ، أي : جاحدون أنه منزل من عند اللّه ، والمعنى : أبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة ، فى الإنزال والإيحاء ، أنتم منكرون لكونه منزلا من عندنا فإن ذلك ، بعد ملاحظة التوراة ، مما لا مساغ له أصلا. وباللّه التوفيق.

الإشارة : كل ما وصف به التوراة وصف به كتابنا العزيز ، قال تعالى تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ «٢» وقال : وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً «٣» ، وقال هنا : وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ ، فزاده البركة لعموم خيره ودوام نفعه ، وخصوصا للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب : قال القشيري : والخشية بالغيب : إطراق السريرة فى أول الحضور ، باستشعار الوجل من جريان سوء الأدب ، والحذر من أن يبدو من الغيب بغتات التقدير ، مما يوجب حجبة العبد. هـ.

ثم ذكر بقية المشاهير من الرسل ، وبدأ بإبراهيم لموافقة شريعتنا له ، ولكونه أصل الجلّ منهم ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٥١ الى ٥٦]

وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ (٥١) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ (٥٢) قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ (٥٣) قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٥٤) قالُوا أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥)

قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦)

---

(١) الآية : ٢.

(٢) من الآية الأولى من سورة الفرقان.

(٣) من الآية ١٧٤ من سورة النساء.

قلت : «إذ قال» : ظرف لآتينا ، أو لرشده.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ أي : الرشد اللائق به وبأمثاله من كبراء الرسل ، وهو الاهتداء الكامل ، المستند إلى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحى ، مع الاقتدار على إصلاح الأمة وإرشادها بسياسة النبوة والوحى الإلهى ، مِنْ قَبْلُ أي : من قبل إيتاء موسى وهارون التوراة ، وتقديم ذكرهما ، لما بين التوراة والقرآن من الشبه التام. وقيل : من قبل إنزال القرآن ، أو من قبل استنبائه ، أو من قبل بلوغه ، وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ أي : بأنه أهل لما آتيناه ، أو عالمين برشده ، وما خصصناه به من الهداية الخاصة. إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ أي :

آتيناه ذلك حين قال لأبيه ، أو اذكر وقت قوله لهم : ما هذِهِ التَّماثِيلُ أي : الأصنام المصورة على صورة السباع والطيور والإنسان ، وفيه تجاهل بهم تحقيرا لها ، مع علمه بتعظيمهم لها توبيخا لهم على إجلالها مع كونها خشبا وأحجارا لا تضر ولا تنفع ، الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ أي : لأجل عبادتها مقيمون ، فلما عجزوا عن الدليل قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ فقلدناهم ، فأبطله عليه السّلام ، على طريقة التوكيد بالقسم ، فقال : لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ الذين سنّوا لكم هذه السّنّة الباطلة ، فِي ضَلالٍ مُبِينٍ : ظاهر بيّن ، بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء ، أي : واللّه لقد كنتم مستقرين فى ضلال عظيم ظاهر لعدم استناده إلى دليل ، فالتقليد إنما يجوز فيما يحتمل الحقّية فى الجملة ، لا فيما اتضح بطلانه ، سيما فى أمر التوحيد.

قالُوا أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أي : بالجد ، أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ، فتقول ما تقول على الملاعبة والمزاح.

والمعنى : أجاد أنت ، أم لاعب فيما تقول؟ قالوا ذلك استعظاما منهم لإنكاره ، واستبعادا لكون ما هم عليه ضلال ، وتعجيبا من تضليله إياهم.

ثم أضرب عنهم مخبرا بأنه جاد فيما قال ، غير لاعب ، بإقامة البرهان على بطلان ما ادعوه فقال : بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ، لا التماثيل التي صورتم. وقيل : هو إضراب عما بنوا عليه مقالتهم من اعتقاد كونها أربابا لهم ، كما يفصح عنه قولهم : نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ «١» ، كأنه قال :

ليس الأمر كذلك ، بل ربكم رب السموات والأرض الذي خلقهن وأنشأهن ، فالضمير للسماوات والأرض ، وصفه تعالى بإيجادهن ، إثر وصفه تعالى بربوبيته لهن تحقيقا للحق ، وتنبيها على أن ما لا يكون كذلك بمعزل من

---

(١) من الآية ٧١ من سورة الشعراء.

الربوبية ، أي : أنشأهن بما فيهن من المخلوقات ، التي من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه ، من غير مثال يحتذيه ، ولا قانون ينتحيه. وقيل : الضمير للتماثيل ، وهو أدخل فى تضليلهم ، وأظهر فى إلزام الحجة عليهم لما فيه من التصريح المغني عن التأمل فى كون ما يعبدونه من المخلوقات ، والأول أقرب.

ثم قال عليه السّلام : وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ الذي ذكرت : من كون ربكم ربّ السماوات والأرض ، دون ما عداه ، كائنا ما كان ، مِنَ الشَّاهِدِينَ أي : العالمين به على سبيل الحقيقة ، المبرهنين عليه ، فإن الشاهد على الشيء : من تحققه وبرهن عليه ، كأنه قال : وأنا أعلم ذلك ، وأتحققه ، وأبرهن عليه ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : زخارف الدنيا وبهجتها ، من تشييد بناء ، وتزويق سقف وحيطان ، وإنشاء غروس وبساتين ، وجمع أموال ، وتربية جاه ، كلها تماثيل لا حقيقة لها ، فانية لا دوام لها. فمن عكف عليها ، وأولع بخدمتها وجمعها وتحصيلها ، كان عابدا لها ، فينبغى لذى الرشد والعقل الوافر ، الذي تحرر منها ، أن ينكر عليهم ، ويقول لهم : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، فإن قالوا : وجدنا آباءنا يفعلون هذا ، وعلماءنا مثلنا ، فليقل لهم : لقد كنتم وآباؤكم وعلماؤكم فى ضلال مبين ، عما كان عليه الأنبياء والأولياء والسلف الصالح. فإن قالوا : أجادّ أنت أم لا؟ فليقل : بل ربكم الذي ينبغى أن يفرد بالمحبة والخدمة ، هو رب السماوات والأرض ، لا ما أنتم عليه من محبة الدنيا وبهجتها ، وأنا على ذلكم من الشاهدين.

ثم ذكر كسره للأصنام ، وما ترتب عليه ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٥٧ الى ٦٧]

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ (٦٠) قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١)

قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ (٦٢) قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦)

أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧)

قلت : (مَنْ فَعَلَ) : استفهام ، وقيل : موصولة ، و(إِنَّهُ) : خبرها ، أي : الذي فعل هذا معدود من الظلمة ، و(يَذْكُرُهُمْ) : إما مفعول ثان لسمع لتعلقه بالذات ، على قول ، أو صفة لفتى. و(يُقالُ) : صفة

أخرى لفتى.

و«إبراهيم» : نائب فاعل يقال.

(٤٧١/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٧٢

يقول الحق جل جلاله حاكيا عن خليله عليه السّلام : وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ أي : لأمكرنّ بها ، وأجتهد فى كسرها ، وفيه إيذان بصعوبة الانتهاز ، وتوقفه على الحيل والسياسة ، وذلك الكيد بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم. قال مجاهد : إنما قاله سرا ، ولم يسمعه إلا رجل فأفشاه عليه ، وقال : سمعت فتى يذكرهم. وقال السدى : كان لهم فى كل سنة مجمع وعيد ، فإذا رجعوا من عيدهم دخلوا على أصنامهم فسجدوا لها ، وقال أبو إبراهيم : يا إبراهيم ، لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ، فخرج إلى بعض الطريق ، وقال : إنى سقيم ، أشتكى رجلى. فلما مضوا نادى فى آخرهم – وقد بقي ضعفاء الناس – : تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فسمعوه ، ثم دخل بيت الأصنام ، فوجد طعاما كانوا يضعونه عندها للبركة ، فإذا رجعوا أكلوه ، فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ؟ استهزاء بها ، فلم يجبه أحد ، فقال : ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ فَراغَ مال عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ «١».

فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً أي : قطعا ، جمع جذيذ. وفيه لغتان : الكسر ، كخفيف وخفاف ، والضم كحطيم وحطام.

روى أنها كانت سبعين صنما مصطفة. وثمّ صنم عظيم مستقبل الباب ، وكان من ذهب ، وفى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل ، فكسر الكل بفأس كان بيده ، ولم يبق إلا الكبير ، علّق الفأس فى عنقه ، وذلك قوله تعالى :

إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ أي : للأصنام لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ أي : إلى إبراهيم عليه السّلام يَرْجِعُونَ فيحاجهم بما سيأتى فيغلبهم ، أو إلى دينه إذا قامت الحجة عليهم. وقيل : إلى الكبير يسألونه عن الكاسر لأن من شأن الكبير أن يرجع إليه فى الملمات. وقيل : إلى اللّه تعالى وتوحيده ، عند تحققهم بعجز آلهتهم عن دفع ما يصيبهم وعن الإضرار بمن كسرهم.

فلما رجعوا من عيدهم ، ورأوا ما صنع بآلهتهم ، قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا ، على طريق الإنكار والتوبيخ ، إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ أي : لشديد الظلم لجرأته على الآلهة ، التي هى عندهم فى غاية التوقير والتعظيم. أو لمن الظالمين حيث عرّض نفسه للهلكة ، قالُوا أي : بعض منهم ، وهو من سمع مقالته : سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ أي : يعيبهم ، فلعله فعل ذلك بها ، يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ أي : يقال له هذا الاسم. قالُوا أي : السائلون : فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ أي : بمرأى منهم ، بحيث يكون نصب أعينهم ، لا يكاد يخفى

على أحد ، لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ عليه بما سمع منه ، أو بما فعله ، كأنهم كرهوا عقابه بلا بينة ، أو يحضرون عقوبتنا له.

فلما أحضروه قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ؟ واختصر إحضاره للتنبيه على أن إتيانهم به ، ومسارعتهم إلى ذلك ، أمر محقق غنى عن البيان قالَ إبراهيم عليه السّلام : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ، غار أن

---

(١) كما جاء فى الآية ٩٣ من سورة الصافات.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٧٣

يعبدوا معه ، مشيرا إلى الذي لم يكسره. وعن الكسائي : أنه يقف على (بَلْ فَعَلَهُ) أي : فعله من فعله ، ثم ابتدأ :

كبيرهم هذا يخبركم فسلوه ... إلخ ، والأكثر : أنه لا وقف ، والفاعل : كبيرهم. و«هذا» : بدل ، أو وصف ، ونسب الفعل إلى كبيرهم ، وقصده تقريره لنفسه وإسناده لها ، على أسلوب تعريضى تبكيتا لهم ، وإلزاما للحجة عليهم ، لأنهم إذا نظروا النظر الصحيح علموا عجز كبيرهم ، وأنه لا يصلح للألوهية ، وهذا كما لو كتبت كتابا بخط أنيق ، وأنت شهير بحسن الخط ، ومعك صاحب أمي ، فقال لك قائل : أأنت كتبت هذا؟ فتقول : بل كتبه هذا ، وهو يعلم أنه أمي لا يحسن الكتابة ، فهو تقرير لإثبات الكتابة لك على أبلغ وجه.

قال الكواشي : ومن الجائز أن يكون أذن اللّه تعالى له فى ذلك كما أذن ليوسف حين نادى على إخوته : إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ «١» ، ولم يكونوا سارقين لما فى ذلك من المصلحة لأنهم إذا نظروا النظر الصحيح ، وسألوا ، علموا أن كبيرهم لم يفعل شيئا ، وأنه عاجز عن النطق ، فضلا عن الفعل ، فلا يجوز أن يعبد ، ولا يستحق العبادة إلا القادر الفعال. هـ.

وقيل : أسند الفعل إلى كبيرهم لأنه الحامل له على كسرها ، حيث رآه يعظّم أكثر منها ، ويعبد من دون اللّه ، فاشتد غضبه حتى كسرها ، وهو بعيد إذ لو كان كذلك لكسره أولا ، فتحصل أنه عليه السّلام إنما قصد التعريض بعبادتهم ، لا الإخبار المحض ، حتى يكون كذبا. فإن قلت : قد ورد فى الحديث أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات «٢»؟

فالجواب : أن معنى ذلك : أنه قال قولا ظاهره الكذب ، وإن كان القصد به معنى آخر. قاله ابن جزى.

ثم قال لهم : فَسْئَلُوهُمْ عن حالهم ، إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ فتجيبكم بمن كسرهم ، وأنتم تعلمون عجزهم عنه

، فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ أي : رجعوا إلى عقولهم ، وتفكروا بقلوبهم ، وتذكروا أنّ ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإخبار بمن كسره ، فكيف يستحق أن يكون معبودا؟ فَقالُوا أي : قال بعضهم لبعض : إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ على الحقيقة ، حيث عبدتم من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع لأنّ من لا يدفع عن رأسه الفأس ، فكيف يدفع عن عابده البأس! فأنتم الظالمون بعبادتها لا من ظلمتموه بقولكم : (إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ). أو : أنتم الظالمون لا من كسرها ، ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ ، وردّوا إلى أسفل سافلين ، أجرى الحقّ على لسانهم فى القول الأول ، ثم أدركتهم الشقاوة ، أي : انقلبوا إلى المجادلة ، بعد ما استقاموا بالمراجعة ، شبّه عودهم

---

(١) من الآية ٧٠ من سورة يوسف.

(٢) الحديث أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب قول اللّه تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا.) ومسلم فى «الفضائل ، باب من فضائل إبراهيم» من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

(٤٧٣/٣)

إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه ، قائلين : لَقَدْ عَلِمْتَ يا إبراهيم ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ ، فكيف تأمرنا بسؤالها؟.

قالَ مبكتا لهم وتوبيخا : أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : متجاوزين عبادته تعالى إلى ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً من النفع ، وَلا يَضُرُّكُمْ إن لم تعبدوه ، فإنّ العلم بالحالة المنافية للألوهية مما يوجب اجتناب عبادته ، أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أفّ : اسم صوت تدل على التضجر ، تضجر عليه السّلام من إصرارهم على الباطل ، بعد انقطاع عذرهم ووضوح الحق ، فأفّف بهم وبأصنامهم ، أي : لكم ولأصناكم هذا التأفف ، أَفَلا تَعْقِلُونَ أن من هذا وصفه لا يستحق أن يكون إلها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من أراد أن يكون إبراهيميا حنيفيا فليكسر أصنام نفسه ، وهى ما كانت تهواه وتميل إليه من الحظوظ النفسانية والشهوات الجسمانية ، حتى تنقلب حقوقا ربانية ، فحينئذ يريه الحق ملكوت السموات والأرض ، ويكون من الموقنين. وأمّ الشهوات : حب الدنيا ، ورأسها : حب الرئاسة والجاه ، وأكبر الأصنام : وجودك الحسى ، فلا حجاب أعظم منه ، ولذلك قيل :

وجودك ذنب لا يقاس به ذنب فإن غبت عنه ، وكسرته ، غابت عنك جميع العوالم الحسية ، وشهدت أسرار المعاني القدسية ، فشهدت أسرار الذات وأنوار الصفات ، وإلى هذا المعنى أشار ابن العريف رضى اللّه عنه بقوله :

بدا لك سرّ طال عنك اكتتامه ولاح صباح كنت أنت ظلامه
فأنت حجاب القلب عن سرّ غيبه ولولاك لم يطبع عليه ختامه
فإن غبت عنه حلّ فيه ، وطنّبت على موكب الكشف المصون خيامه
وجاء حديث لا يمل سماعه شهيّ إلينا نثره ونظامه
إذا سمعته النّفس طاب نعيمها وزال عن القلب المعنّى غرامه

فالغيبة عن وجود العبد فناء ، والرجوع إليه لوظائف العبودية بقاء ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ) أي : إلا كبير الأصنام ، وهو وجودك الوهمي ، فلا ينبغى الغيبة عنه بالكلية حتى يترك وظائف العبودية والقيام بحقوق البشرية ، فإنّ هذا اصطلام ، بل ينبغى ملاحظته ، لعله يقع الرجوع إليه فى مقام البقاء ، واللّه تعالى أعلم.

(٤٧٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٧٥

ثم ذكر قصة تحريقه وإنجائه ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٦٨ الى ٧٠]

قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (٦٨) قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ (٦٩) وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)

يقول الحق جل جلاله : قالُوا حَرِّقُوهُ أي : قال بعضهم لبعض ، لمّا عجزوا عن المحاججة ، وضاقت عليهم الحيل ، وعييت بهم العلل ، وهذا ديدن المبطل المحجوج ، إذا قرعت شبهه بالحجة القاطعة وافتضح ، لم يبق له حينئذ إلا المناصبة والمعاداة ، فناصبوا إبراهيم عليه السّلام ، وقالوا حرّقوه بالنار لأنه أشد العقوبات ، وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ بالانتقام لها إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ للنصر ، أي : إن كنتم ناصرين آلهتكم نصرا مؤزرا ، فاختاروا له أهول المعاقبات ، وهو الإحراق ، وإلّا فقد فرطتم فى نصرتها ، والذي أشار بالإحراق نمرود ، أو رجل من أكراد فارس ، اسمه «هيزن» ، وقيل : «هدير» ، خسفت به الأرض ، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة «١».

روى أنهم ، لما أجمعوا على حرقه عليه السّلام ، بنوا له حظيرة بكوثى – قرية من قرى الأنباط بالعراق – فجمعوا صلاب الحطب من أصناف الخشب ، مدة أربعين يوما ، وقيل : شهرا ، حتى إن المرأة تنذر : لئن أصابت حاجتها لتحطبنّ فى نار إبراهيم. ثم أوقدوا نارا عظيمة ، لا يكاد يحوم حولها أحد ، حتى إن كانت الطير لتمر بها ، وهى فى أقصى الجو فتحترق من شدة وهجها ، ولم يقدر أحد أن يقربها ، فلم يعلموا كيف يلقونه عليه السّلام فيها ، فأتى إبليس وعلمهم علم المنجنيق ، فعملوه. وقيل : صنعه

لهم رجل من الأكراد ، فخسف اللّه تعالى به فى الأرض مثل الآخر ، ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السّلام ، فوضعوه فيه مغلولا مقيدا مجردا ، فصاحت السماء والأرض ومن فيها من الملائكة : يا ربنا ، إبراهيم ، ليس فى الأرض أحد يعبدك غيره ، يحرق فيك ، فأذن لنا فى نصرته ، فقال لهم : إن استغاث بواحد منكم فأغيثوه ، فرموا به فيها من مكان شاسع ، فقال له جبريل عليه السّلام ، وهو فى الهواء : ألك حاجة؟ فقال : أما إليك فلا.

قال : فسل ربك. فقال : حسبى من سؤالى علمه بحالي «٢» ، فرفع همته عن الخلق ، واكتفى بالواحد الحق ، فجعل اللّه الخطيرة روضة. وهذا معنى قوله : قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ أي : كونى ذات برد وسلام ، أي : ابردى بردا غير ضار.

---

(١) أخرجه الطبري (١٧/ ٤٣) عن شعيب الجبائي.

(٢) انظر تفسير الطبري (١٧/ ٤٤) والبغوي (٥/ ٣٢٧) وابن كثير (٣/ ١٨٤). والوارد فى ابن كثير : «أما إليك : فلا ، وأما إلى اللّه ، فبلى».

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٧٦

قال ابن عباس : لو لم يقل «وسلاما» لمات إبراهيم من بردها ، ولم تبق يومئذ نار إلا طفئت ، ظنت أن الخطاب توجه لها ، فما انتفع أحد من أهل الأرض يومئذ بنار ، ولم تبق دابة إلا أتت تطفئ عنه النار ، إلا الوزغ «١». فلذلك أمر نبينا صلى اللّه عليه وسلم. بقتلها «٢» ، وسماها فويسقا «٣». قال السدى : فأخذت الملائكة بضبعي إبراهيم وأقعدوه على الأرض ، فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس. قال كعب : ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه «٤». وروى أنه عليه السّلام مكث فيها سبعة أيام ، وقيل : أربعين ، وقيل : خمسين ، والأول أقرب.

قال إبراهيم عليه السّلام : ما كنت أياما قط أنعم منى من الأيام التي كنت فيها. قال ابن بسار : وبعث اللّه تعالى ملك الظل فقعد إلى جنبه يؤنسه ، قالوا : وبعث اللّه بقميص من حرير الجنة. قلت : وقد تقدم ذكره فى سورة يوسف «٥».

وأتاه جبريل فقال : إن ربك يقول : أما علمت أن النار لا تضر أحبائى. فنظر نمرود من صرحه ، فأشرف عليه ، فرآه جالسا فى روضة مونقة ، ومعه جليس على أحسن ما يكون من الهيئة ، والنار محيطة به ، فنادى : يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال : نعم ، قال : فاخرج ، فقام يمشى فخرج منها ، فاستقبله نمرود وعظّمه. وقال : من الرجل الذي رأيته معك؟ قال ذلك ملك الظل ، أرسله

ربى ليؤنسنى ، فقال : إنى مقرب إلى إلهك قربانا لما رأيته من قدرته وعزته فيما صنع بك. فقال عليه السّلام : لا يقبل اللّه منك ما دمت على دينك هذا ، حتى تفارقه إلى دينى ، قال :

لا أستطيع ترك ملكى ، ولكن سأذبح له أربعة آلاف بقرة ، فذبحها ، وكف عن إبراهيم «٦» عليه السّلام.

قال شعيب الجبائي : ألقى إبراهيم فى النار وهو ابن ست عشرة سنة ، وذبح إسحاق «٧» وهو ابن سبع سنين ، وولدته سارة وهى بنت تسعين سنة ، ولمّا علمت ما أراد من ذبحه بقيت يومين وماتت فى الثالث «٨» .. هـ. وهذا كما ترى من أكبر المعجزات ، فإنّ انقلاب النار هواء طيبا ، وإن لم يكن بدعا من قدرة اللّه ، لكنه من أكبر الخوارق ، واختلف فى كيفية برودتها فقيل : إن اللّه تعالى أزال ما فيها من الحر والإحراق ، وقيل : دفع اللّه عن جسم إبراهيم حرها وإحراقها مع ترك ذلك فيها ، واللّه على كل شىء قدير.

---

(١) قال فى النهاية : الوزغ : جمع وزغة وهى التي يقال لها : سامّ أبرص ، انظر النهاية (وزغ) ، والأثر أخرجه الطبري.

(٢) جاء فيما أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب قول اللّه تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا ، ومسلم فى (السلام ، باب استحباب قتل الوزغ) عن أم شريك.

(٣) أخرجه مسلم فى الموضع السابق ذكره ، عن السيدة عائشة وابن عامر بن سعد عن أبيه. [.....]

(٤) أخرجه الطبري (١٧/ ٤٤) عن كعب.

(٥) راجع تفسير الآية ٩٦ من سورة يوسف.

(٦) ذكره البغوي فى تفسيره (٥/ ٣٢٩) وصاحب زاد المسير (٥/ ٣٦٧).

(٧) راجع : التعليق على تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

(٨) أخرجه الطبري (١٧/ ٤٥).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٧٧

قال تعالى : وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً مكرا عظيما فى الإضرار ، فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ أي : أخسر من كل خاسر ، حيث جاء سعيهم فى إطفاء نور الحق برهانا قاطعا على أنه عليه السّلام على الحق ، وهم على الباطل ، وموجبا لارتفاع درجته واستحقاقهم للهلاك ، فأرسل اللّه على نمرود وقومه البعوض ، فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ، ودخلت بعوضة فى دماغ نمرود فأهلكته بعد المحنة الشديدة ، وباللّه التوفيق.

الإشارة : أجرى اللّه تعالى عادته فى المتوجه الصادق ، إذا أراد الوصول إلى حضرته ، أن يبتليه قبل أن يمكنه ، ويمتحنه قبل أن يصافيه لأنّ محبته تعالى مقرونة بالبلاء ، والداخل على اللّه منكور ، والراجع إلى الناس مبرور. فإذا رمى الولي فى منجنيق الابتلاء ، وألقى فى نار الجلال ، وتعرضت له الأكوان : ألك حاجة؟ فيقول – إن كان مؤيدا – : أمّا إليك فلا ، وأما إلى اللّه فبلى ، فإذا قيل له : سله ، فيقول : علمه بحالي يغنى عن سؤالى. فلا جرم أن اللّه تعالى يقول لنار الجلال : كونى بردا وسلاما على وليي ، فينقلب حرها بردا وسلاما ، فلا يرى أياما أحلى من تلك الأيام التي ابتلى فيها. وهذا أمر مجرب مذوق ، وأما إن التفت إلى التعلق بغير اللّه تعالى ، فإنّ البلاء يشدد عليه ، أو يخرج من دائرة الولاية ، والعياذ باللّه. فالولى هو الذي يقلب الأعيان بهمته ، وبالنور الذي فى قلبه ، حسية كانت أو معنوية ، فيقلب الخوف أمنا ، والحزن سرورا ، والقبض بسطا ، والفاقة غنى ، وهكذا .. فحينئذ تنفعل له الأشياء وتطيعه ، وتخرق له العوائد ، حتى لو ألقى فى النار الحسية لبردت. قال الورتجبي : كان الخليل منورا بنور اللّه ، وكان فعل النار من فعل اللّه ، فغلب نور الصفة على نور الفعل ، ولو بقيت النار حتى وصل إليها الخليل لصارت مضمحلة ، فعلم الحق ذلك ، فقال لها : (كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ) حتى تبقى لظهور معجزته وبيان كرامته. هـ.

ومصداق ما ذكره : قول النار يوم للقيامة للمؤمن : جز فقد أطفأ نورك لهبى «١» ، كما ورد. واللّه أعلم.

ثم ذكر هجرة إبراهيم إلى الشام ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٧١ الى ٧٢]

وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنا صالِحِينَ (٧٢)

قلت : «إلى الأرض» : يتعلق بحال محذوفة ، ينساق إليها الكلام ، أي : ذاهبا بهما إلى الأرض.

يقول الحق جل جلاله : وَنَجَّيْناهُ أي : إبراهيم وَلُوطاً ابن أخيه هاران ، ذاهبا بهما من العراق إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ ، وهى أرض الشام. وبركاته العامة : أنّ أكثر الأنبياء بعثوا فيها ، فانتشرت فى العالمين شرائعهم ، التي هى مبادئ الخيرات الدينية والدنيوية ، وهى أرض المحشر ، فيها يجمع الناس ،

---

(١) أخرجه الخطيب فى تاريخ بغداد (٥/ ١٩٤) وأبو نعيم فى الحلية (٩/ ٣٢٩) ، عن يعلى بن منبه ، وقال فى مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٠) : رواه الطبراني ، وفيه سليم بن منصور بن عمار ، وهو ضعيف.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٧٨

وفيها ينزل عيسى عليه السّلام ، وقال أبى بن كعب : ما من ماء عذب إلّا وأصله من تحت صخرة بيت المقدس ، وهى أرض خصب ، يعيش فيها الفقير والغنى.

قال ابن إسحاق : خرج إبراهيم من كوثى من أرض العراق ، وخرج معه لوط وسارة ، فنزل حرّان ، ثم خرج منها إلى مصر ، ثم خرج منها إلى الشام ، فنزل السّبع من أرض فلسطين بزوجه سارة ، بنت عمه هاران الأكبر ، ونزل لوط عليه السّلام بالمؤتفكة ، وبينهما مسيرة يوم وليلة ، وكلاهما من الشام.

وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً أي : وهبنا له إسحاق ولدا من صلبه ، وزاد يعقوب ، ولد ولده ، نافلة لأنه سأل ولدا بقوله : رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ «١» فأعطيه ، وأعطى يعقوب نافلة ، زائدا على ما سأل لأنه أعطى من غير سؤال ، فكأنه تبرعا. قال ابن جزى : واختار بعضهم – على هذا – الوقف على «إسحاق» لبيان المعنى ، وهذا ضعيف لأنه معطوف على كل قول. هـ. وقيل : (نافِلَةً) يرجع لهما معا ، أي : أعطيناه ولدا وولد ولد ، عطية ، فيكون حالا منهما معا ، قيل : هو مصدر ، كالعاقبة من غير لفظ الفعل ، الذي هو (وَهَبْنا) وقيل : اسم ، وَكُلًّا أي :

كل واحد من هؤلاء الأربعة ، جَعَلْنا صالِحِينَ بأن وفقناهم لصلاح الظاهر والباطن ، حتى استحقوا الخصوصية. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الهجرة سنّة من سنن الأنبياء والأولياء ، فكل من لم يجد فى بلده من يعينه على دينه ، يجب عليه الانتقال إلى بلد يجد فيها ذلك. وكذلك المريد إذا لم يجد قلبه فى محل لكثرة عوائده وشواغله ، بحيث يشوش عليه قلبه ، فلينتقل إلى بلد تقل فيها العلائق والشواغل ، إن وجد فيها من يحرك معهم فنّه ، كان بادية أو حاضرة.

والغالب أن الحاضرة تكثر فيها العوائد والحظوظ والشهوات ، فلا يدخلها المريد حتى يتقوى ويملك نفسه ، يأخذ النصيب من كل شىء ، ولا ينقص من نصيبه شىء ، وقد تقدم هذا مرارا. وباللّه التوفيق.

ثم مدحهم بالإمامة والاهتداء ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : آية ٧٣]

وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ (٧٣)

يقول الحق جل جلاله : وَجَعَلْناهُمْ أي : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، أَئِمَّةً يقتدى بهم فى أمور الدين إجابة لدعوته بقوله : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي «٢» أي : فاجعل أئمة ، يَهْدُونَ الخلق إلى الحق ، بِأَمْرِنا

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة الصافات.

(٢) كما جاء فى الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٧٩

لهم بذلك ، وإرسالنا إياهم حتى صاروا مكملين ، أو يهدون الخلق بإرادتنا ومشيئتنا. وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وهى جميع الأعمال الصالحة ، أي : أمرناهم أن يفعلوا جميع الخيرات ، ليتم كمالهم بانضمام العمل الصالح إلى العلم ، وأصله : أن يفعلوا الخيرات ، ثم فعل الخيرات ، وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ ، وهو من عطف الخاص على العام دلالة على فضله وشرفه ، وأصله : وإقامة الصلاة ، فحذفت التاء المعوضة من إحدى الألفين لقيام المضاف إليه مقامها. وَكانُوا لَنا عابِدِينَ : قانتين مطيعين ، لا يخطر ببالهم غير عبادتنا ومشاهدتنا.

وأنتم يا معشر العرب والعجم من ذريتهم ، فاتبعوهم فى ذلك. وباللّه التوفيق.

الإشارة : إنما يعظم جاه العبد عند اللّه بثلاثة أمور : انحياشه بقلبه إلى اللّه ، ومسارعته إلى ما فيه رضا اللّه ، وإرشاد العباد إلى اللّه ، بدعائهم إلى اللّه بالحال والمقال ، فبقدر ما يقع من هداية الخلق على يديه يعلو مقامه عند اللّه ، إن حصلت المعرفة باللّه ، وبهذا تعرف شرف مرتبة مشيخة الصوفية ، الدالين على اللّه ، الداعين إلى حضرة اللّه ، إن تكلموا وقع كلامهم فى قلوب الخلق ، فيرجعون إلى اللّه من ساعتهم ، مجالسهم كلها وعظ وتذكير ، حالهم ينهض إلى اللّه ، ومقالهم يدل على اللّه ، ففى ساعة واحدة يتوب على يديهم من الخلق ما لا يتوب على يد العالم فى سنين وذلك لإنهاض الحال والمقال ، فلا جرم أنهم أعز الخلق إلى اللّه ، وأعظمهم قدرا عند اللّه.

قال السهروردي فى العوارف : ورد فى الخبر عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم ، إن أحب عباد اللّه إلى اللّه الذين يحبّبون اللّه إلى عباده ، ويحبّبون عباد اللّه إلى اللّه ، ويمشون فى الأرض بالنصيحة». وهذا الذي ذكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هو رتبة المشيخة والدعوة فإن الشيخ يحبب اللّه إلى عباده حقيقة ، ويحبب عباد اللّه إلى اللّه.

فأما كونه يحبب عباد اللّه إلى اللّه لأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى أفعاله وأخلاقه.

ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه اللّه ، قال تعالى : قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ «١» ، ووجه كونه يحبب اللّه إلى عباده لأنه يسلك بالمريد طريق التزكية ، وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب ، ودخل فيها نور العظمة الإلهية ، ولاح فيها جمال التوحيد ، وذلك ميراث التزكية ، قال اللّه تعالى : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها «٢» ، وفلاحها : الظفر بمعرفة اللّه ، فإذا عرفه ، قطعا ، أحبه وفنى فيه. فرتبة المشيخة من أعلى الرتب لأنها خلافة النبوة فى الدعوة إلى اللّه.

(١) من الآية ٣١ من سورة آل عمران.
(٢) من الآية ٩ من سورة الشمس.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٨٠
ثم قال : فعلى المشايخ وقار اللّه ، وبهم يتأدب المريد ظاهرا وباطنا ، قال اللّه تعالى : أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ «١» ، فالمشايخ ، لمّا اهتدوا ، أهلّوا للاقتداء بهم ، وجعلوا أئمة للمتقين ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، حاكيا عن اللّه عز وجل : «إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بي ، جعلت همته ولذّته فى ذكرى ، فإذا جعلت همته ولذته فى ذكرى ، أحببته وأحببته ، ورفعت الحجاب فيما بينى وبينه ، لا يسهو إذا سها الناس ، أولئك كلامهم كلام الأنبياء ، أولئك الأبطال حقا ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذابا ، ذكرتهم فصرفته بهم عنهم» «٢».
انتهى كلامه رضى اللّه عنه.
ومن كلام ذى النون المصري – لمّا تكلم على الأبدال – قال : فهممهم إليه ثائرة ، وأعينهم إليه بالغيب ناظرة ، قد أقامهم على باب النظر من رؤيته ، وأجلسهم على كراسى أطباء أهل معرفته ، ثم قال لهم : إن أتاكم عليل من فقدى فداووه ، أو مريض من فراقى فعالجوه ، أو خائف منى فانصروه ، أو آمن منى فحذّروه ، أو راغب فى مواصلتى فمنوه ، أو راحل نحوى فزودوه ، أو جبان فى متاجرتى فشجعوه ، أو آيس من فضلى فرجّوه ، أو راج لإحسانى فبشروه ، أو حسن الظن بي فباسطوه ، أو معظّم لقدرى فعظموه ، أو مسيء بعد إحسانى فعاتبوه ، أو مسترشد فأرشدوه. هـ. وهذه صفة مشايخ التربية على ما شهدناهم ، وما شهدنا إلا بما علمنا. وباللّه التوفيق.
ثم ذكر نبيه لوطا ونوحا – عليهما السّلام – فقال :
[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٧٤ الى ٧٧]
وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) وَنُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)
قلت : «ولوطا» : إما مفعول بمحذوف يفسره قوله : «آتيناه» أي : وآتينا لوطا ، أو : باذكر. و«نوحا» : مفعول باذكر.

يقول الحق جل جلاله : وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً أي : حكمة ، أو نبوة أو فصلا بين الخصوم بالحق ، وَعِلْماً بنا وبما ينبغى علمه للأنبياء – عليهم السّلام – من علم السياسة ، وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ اللواطة ، وقذف المارة بالحصى ، وغيرها ، وصفت بصفة أهلها ، وأسندت إليها على حذف

---

(١) من الآية ٩٠ من سورة الأنعام.

(٢) عزاه فى كنز العمال (١/ ١٨٧٢) لأبى نعيم فى الحلية ، عن الحسن ، مرسلا.

مضاف ، أي : من أهل القرية ، بدليل قوله : إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ : خارجين عن طاعة اللّه ورسوله.

وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا أي : فى أهل رحمتنا ، أو جنتنا ، إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ الذين صلحت ظواهرهم وبواطنهم ، فنجيناه جزاء على صلاحه ، كما أهلكنا قريته عقابا على فسادهم.

وَاذكر نُوحاً ، وقدّم هؤلاء عليه لتعلقهم بإبراهيم ، أي : خبره ، إِذْ نادى أي : دعا اللّه تعالى على قومه بالهلاك ، أي : اذكر نبأه الواقع وقت دعائه ، مِنْ قَبْلُ هؤلاء المذكورين ، فَاسْتَجَبْنا لَهُ دعاءه الذي من جملته قوله : أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ «١» ، فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ المؤمنين به ، من ولده وقومه ، مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ، وهو الطوفان وتكذيب أهل الطغيان. وأصل الكرب : الغم الشديد ، وَنَصَرْناهُ نصرا مستتبعا للانتقام ، مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أي : منعناه من إذايتهم ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ ، تعليل لما قبله ، فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ ، صغيرهم وكبيرهم ، ذكرهم وأنثاهم لأن الإصرار على تكذيب الحق ، والانهماك فى الشر والفساد ، مما يوجب الإهلاك العام. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : نبى اللّه لوط عليه السّلام لمّا هاجر من أرض الظلمة إلى الأرض المقدسة ، أعطاه اللّه العلم والحكمة. فكل من هاجر من وطن الغفلة إلى محل الذكر واليقظة ، وهجر ما نهى اللّه عنه عوّضه اللّه علما بلا تعلم ، وأجرى على لسانه ينابيع الحكمة. قال أبو سليمان الداراني رضى اللّه عنه : إذا اعتقدت النفس على ترك الآثام ، جالت فى الملكوت ، وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة ، من غير أن يؤدّي إليها عالم علما. ومصداقه الحديث : «من عمل بما يعلم ، ورثه اللّه علم ما لم يعلم».

ولمّا أجهد نفسه فى تغيير المنكر نجّاه اللّه من أذاهم وما لحق بهم ، وكذلك نبيه نوح عليه السّلام لما دعا قومه إلى اللّه ، وأجهد نفسه فى نصحهم ، نجاه اللّه من شرهم ، وجعل النسل من ذريته ، فكان آدم الأصغر. وهذه عادة اللّه تعالى فى خواصه ، يكثر فروعهم ، ويجعل البركة فى تركتهم. وباللّه

التوفيق.

ثم ذكر داود وسليمان – عليهما السّلام – فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٧٨ الى ٨٢]

وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ (٨٢)

---

(١) من الآية ١٠ من سورة القمر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٨٢

قلت : (وَ داوُدَ) : عطف على (نُوحاً) ، أو معمول لاذكر ، و(إِذْ يَحْكُمانِ) : ظرف للمضاف المقدر ، أي : اذكر خبرهما ، و(إِذْ نَفَشَتْ) : ظرف للحكم. (فَفَهَّمْناها) : عطف على (يَحْكُمانِ) فإنه فى حكم الماضي.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر خبر داوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ أي : وقت حكمهما فِي الْحَرْثِ أي : فى الزرع ، أو فى الكرم المتدلى عناقيده ، والحرث يطلق عليهما ، إِذْ نَفَشَتْ : دخلت فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ فأفسدته ليلا ، فالنفش : الرعي بالليل ، والهمل بالنهار ، وهما الرعي بلا راع. وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ أي : لهما وللمتحاكمين إليهما ، أو على أنّ أقل الجمع اثنان ، شاهِدِينَ ، كان ذلك بعلمنا ومرأى منا ، لم يغب عنا شيء منه ، فَفَهَّمْناها أي : الحكومة ، أو الفتوى ، سُلَيْمانَ ، وفيه دليل على أن الصواب كان مع سليمان.

وقصتهما على ما قال ابن عباس وغيره : أن رجلين دخلا على داود عليه السّلام ، أحدهما : صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الزرع : إنّ هذا نفشت غنمه ليلا ، فوقعت فى حرثى ، فلم تبق منه شيئا ، فقال له داود :

اذهب فإن الغنم لك ، ولعله استوت قيمتاهما – أي : قيمة الغنم كانت على قدر النقصان فى الحرث – فخرج الرجلان على سليمان ، وهو بالباب ، وكان ابن إحدى عشرة سنة ، فأخبراه بما حكم به أبوه ، فدخل عليه ، فقال : يا نبى اللّه لو حكمت بغير هذا لكان أرفق بالفريقين ، قال : وما هو؟ قال :

يأخذ صاحب الغنم الأرض ليصلحها ، حتى يعود زرعها كما كان ، ويأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بألبانها وصوفها ونسلها ، فإذا كمل الزرع ، ردت الغنم إلى صاحبها ، والأرض بزرعها إلى ربها ، فقال داود : وفقت يا بنى ، وقضى بينهما بذلك.

والذي يظهر : أن حكمهما – عليه السّلام – كان باجتهاد ، ففيه دليل على أن الأنبياء يجتهدون فيما لم ينزل فيه وحي ، فإنّ قول سليمان عليه السّلام : «هذا أرفق» ، وقوله : «أرى أن تدفع ..» إلخ ، صريح فى أنه ليس بطريق الوحى ، وإلا لبت القول بذلك ، ولعله وجه حكم داود عليه السّلام قياس ذلك على جناية العبد ، فإنّ العبد فيما جنى. وإذا قلنا : كان بوحي ، يكون حكم سليمان ناسخا لحكم داود عليه السّلام.

(٤٨٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٨٣

وأما حكم إفساد المواشي للزرع فى شرعنا : فقال مالك والشافعي : يضمن أرباب المواشي ما أفسدت بالليل دون النهار للحديث الوارد فى ذلك «١» ، على تفصيل فى مذهب مالك فيما أفسدت بالنهار.

وقال أبو حنيفة :

لا يضمن ما أفسدت بالليل ولا بالنهار لقوله عليه الصلاة والسلام : – «العجماء جرحها جبار» «٢» ، ما لم يكن معها سائق أو قائد ، فيضمن عنده.

قال تعالى : وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً أي : كل واحد منهما آتيناه حكما ، أي : نبوة ، وعلما : معرفة بمواجب الحكم ، لا سليمان وحده. وفيه دليل على أن خطأ المجتهد لا يقدح فى علمه ولا يرفع عنه صفة الاجتهاد.

ثم بيّن ما اختص به كل واحد منهما من المعجزات ، فقال : وَسَخَّرْنا أي : ذللنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ ، حال كونها يُسَبِّحْنَ أي : مسبحات ينزهن اللّه تعالى بلسان المقال ، كما سبّح الحصا فى كف نبينا عليه الصلاة والسلام. وَسخرنا له الطَّيْرَ كانت تسبح معه. وقدّم الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسبيحها أغرب وأدخل فى الإعجاز لأنها جماد. قال الكواشي : كان داود إذا سبّح سبّح معه الجبال والطير ، وكان يفهم تسبيح الحجر والشجر ، وكان إذا فتر من التسبيح ، يسمعه اللّه تعالى تسبيح الجبال والطير لينشط فى التسبيح ويشتاق إليه. وروى أنه كان إذا سار سارت الجبال معه مسبحة ، قال قتادة : «يسبحن» ، أي : يصلين معه إذا صلى ، وهذا غير ممتنع فى قدرة اللّه تعالى. وفى الأثر : «كان داود يمرّ ، وصفاح الروحاء تجاوبه ، والطير تساعده».

وَكُنَّا فاعِلِينَ بالأنبياء أمثال هذا وأكثر ، فليس ذلك ببدع منا ولا صعب على قدرتنا.

وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ أي : صنعة الدروع. واللبوس لغة فى اللباس ، والمراد : الدرع ، لَكُمْ أي : نافع لكم ، لِتُحْصِنَكُمْ «٣» أي : اللبوس ، أو داود. وقرئ بالتأنيث ، أي : الصنعة ، أو اللبوس بتأويل الدرع. وقرئ بنون العظمة ، أي : اللّه تعالى ، وهو بدل اشتمال من «لكم». وقوله : مِنْ بَأْسِكُمْ أي : من حرب عدوكم ، أو من وقع السلاح فيكم ، فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ اللّه على ذلك؟ وهو استفهام بمعنى الأمر للمبالغة والتقريع.

ثم ذكر ما اختص به سليمان عليه السّلام فقال : وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ أي : وسخرنا له الريح. وإيراد اللام هنا ، دون الأولى للدلالة على ما بين التسخيرين من التفاوت ، فإن تسخير ما سخر لسليمان عليه السّلام كان بطريق الانقياد الكلى والامتثال لأمره ونهيه ، بخلاف تسخير الجبال ، لم يكن بهذه المثابة ، بل بطريق التبعية والاقتداء. حال كون الريح

---

(١) عن البراء بن عازب : «كانت له ناقة ضارية ، فدخلت حائطا ، فأفسدت فيه ، فكلّم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقضى بأن حفظ الحوائط بالنهار على أهلها ، وأن حفظ الماشية بالليل على أهلها ، وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل» أخرجه أبو داود فى (البيوع ، باب المواشي تفسد زرع القوم) وابن ماجه فى (الأحكام ، باب الحكم فيما أفسدت المواشي). [.....]

(٢) أخرجه البخاري فى (الزكاة : باب فى الركاز الخمس) ، ومسلم فى (الحدود ، باب جرح العجماء) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

(٣) قرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص «لتحصنكم» بالتاء ، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالنون ، وقرأ الآخرون (ليحصنكم) بالياء. انظر الإتحاف (٢/ ٢٦٦).

عاصِفَةً شديدة الهبوب ، من حيث إنها كانت تقطع مسافة بعيدة فى مدة يسيرة ، وكانت رخاء فى نفسها ، طيبة ، وقيل : كانت رخاء تارة ، وعاصفة أخرى ، على حسب ما أراد منها. أو رخاء فى ذهابه وعاصفة فى رجوعه لأن عادة المسافرين : الإسراع فى الرجوع ، أو عاصفة إذا رفعت البساط ورخاء إذا جرت به.

تَجْرِي بِأَمْرِهِ بمشيئة سليمان ، إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها بكثرة الأنهار والأشجار والثمار ، وهى الشام. وكان منزله بها ، وتحمله إلى نواحيها. قال وهب : كان سليمان إذا خرج من منزله عكفت عليه الطير ، وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره ، وكان غزّاء لا يقصر عن الغزو ، فإذا أراد غزوا أمر

فضرب له بخشب ، ثم ينصب له على الخشب ، ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب ، فإذا حمل معه ما يريد أمر العاصف فدخلت تحت الخشب فاحتملته ، فإذا استقلت ، أمر الرخاء فمرت به شهرا فى روحته وشهرا فى غدوته ، إلى حيث أراد. هـ.

وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ أي : أحاط علمنا بكل شيء ، فنجرى الأشياء على ما سبق به علمنا ، واقتضته حكمتنا.

وَمِنَ الشَّياطِينِ ، قيل : لمّا ذكر تسخير الريح – وهى شفافة لا تعقل – ذكر ما هو شفاف يعقل ، وهم الشياطين ، مع سرعة الحركة فى الكل ، أي : وسخرنا له من الشياطين مَنْ يَغُوصُونَ فى البحار ، ويستخرجون لَهُ من نفائسه ، كالدر والياقوت ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ أي : غير ما ذكر من بناء المدن والقصور والمحاريب والتماثيل والقدور الراسيات ، وقيل : الحمام ، والنورة ، والطاحون ، والقوارير ، والصابون ، مما استخرجوه له ، وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ أن يزيغوا عن أمره ، أو يبدلوا ، أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه ، على ما هو مقتضى جبلتهم. وقال الزجاج : كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا ، وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوه بالنهار. وقيل : وكّل بهم جمعا من الملائكة ، وجمعا من مؤمنى الجن. روى أن المسخّر له عليه السّلام : كفارهم ، لا مؤمنهم لقوله تعالى : (وَ مِنَ الشَّياطِينِ). واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قوله تعالى : (فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ) ، قال الورتجبي : بيّن ، سبحانه ، أن الفضل متعلق بفضله ، لا يتعلق بالصغر والكبر والشيخوخة والاكتساب والتعلم ، إنما الفهم تعريف اللّه أحكام ربوبيته بنور هدايته ، وإبراز لطائف علومه الغيبية ، فحيث يظهر ذلك فهناك مواضع الفهوم من العلوم ، فهو سبحانه منّ على سليمان بعلمه ، ولم يمنّ عليه بشيء خارج عن نفسه من الملك ، والحدثان أفضل من العلم فإنّ العلم صفة من صفاته تعالى ، فلمّا جعله متصفا بصفاته منّ عليه بجلال كبريائه. هـ. وقال فى قوله : وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً : حكما معرفة بالربوبية ، وعلما بالعبودية. هـ.

(٤٨٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٨٥

وقوله تعالى : (وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ ....) إلخ. (وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ ...) الآية ، لمّا كانا – عليهما السّلام – مع المكوّن كانت الأكوان معهما ، «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدته كانت الأكوان معك» ، وذكر فى القوت : أن سليمان عليه السّلام لبس ذات يوم قميصا رفيعا جديدا ، ثم ركب البساط ، وحملته الريح ، فبينما هو يسير إذ نظر إلى عطفه نظرة ، فأنزلته الريح ، فقال : لم أنزلتنى ولم آمرك؟! فقالت : نطيعك إذا أطعت اللّه ، ونعصيك إذا عصيته. فاستغفر وحملته. هـ

بالمعنى. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر أيوب عليه السّلام ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٨٣ الى ٨٤]

وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ (٨٤)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر خبر أَيُّوبَ عليه السّلام إِذْ نادى رَبَّهُ : دعاه : أَنِّي أي : بأنى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وهو بالضم : ما يصيب النفس من مرض وهزال ، وبالفتح : الضرر فى كل شىء ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، تلطف فى السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ، ولم يصرح بالمطلوب من كمال أدبه ، فكأنه قال : أنت أهل أن ترحم ، وأيوب أهل أن يرحم ، فارحمه ، واكشف عنه ضره الذي مسه. عن أنس : أنه أخبر عن ضعفه حين لم يقدر على النهوض إلى الصلاة ، ولم يشتك ، وكيف يشكو ، واللّه تعالى يقول : إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ «١».

وقيل : إنما اشتكى إليه تلذذا بالنجوى ، لا تضررا بالشكوى ، والشكاية إليه غاية فى القرب ، كما أن الشكاية منه غاية فى البعد ، وسيأتى فى الإشارة تكميله ، إن شاء اللّه. روى أن أيوب عليه السّلام ، كان من الروم ، وهو أيوب بن أموص ابن تارح بن رعويل بن عيص بن إسحاق. وكانت أمه من ولد لوط عليه السّلام اصطفاه اللّه للنبوة والرسالة ، وبسط عليه الدنيا فكان له ثلاثة آلاف بعير ، وسبعة آلاف شاة ، وخمسمائة فدان ، يتبعها خمسمائة عبد ، لكل عبد امرأة وولد ، وكان له سبعة بنين ، وسبع بنات. قاله النسفي.

زاد الثعلبي : وكانت له المشيئة من أرض الشام كلها ، وكان له فيها من صنوف المال ما لم يكن لأحد من الخيل والبقر والغنم والحمر وغيره ، وكان برا تقيا رحيما بالمساكين ، يكفل الأرامل والأيتام ، ويكرم الضيف ، ويبلغ

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة ص.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٨٦

ابن السبيل ، شاكرا لأنعم اللّه ، لا يصيب منه إبليس ما يصيب من أهل الغنى من الغفلة والغرّة ، وكان معه ثلاثة قد آمنوا به : رجل من اليمن واثنان من بلده ، كهولا. قال وهب : فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة عليه فى السماء فحسده ، فقال : إلهى ، عبدك أيوب أنعمت عليه فشكرك ، وعافيته

فحمدك ، ولم تجرّبه بشدّة ولا بلاء ، فلو جربته بالبلاء ليكفرنّ بك وبنعمتك ، فقال له تعالى : انطلق ، فقد سلطتك على ماله ، فجمع عفاريته وأخبرهم ، فقال عفريت من الجن : أعطيت من القوة ما إذا تحوّلت إعصارا من نار أحرقت كل شيء آتى عليه ، فقال له إبليس :

دونك الإبل ورعاتها ، فجاءها حتى وثبت فى مراعيها ، فأثار من تحت الأرض إعصارا من نار فأحرقها وأحرق رعاءها. فلما فرغ منها تمثل إبليس براعيها ، وجلس على قعود منها ، فأتاه ، وقال : يا أيوب ، إن ربك الذي عبدته قد أحرق إبلك ورعاءها ، فقال أيوب : هو ماله ، أعارنيه ، يفعل فيه ما يشاء ، فرجع إبليس خاسئا ، حين حمد أيوب ربه ، فقال عفريت آخر : عندى من القوة ما إذا صحت لم يسمع صوتى ذو روح إلا خرجت روحه ، قال له إبليس : ائت الغنم ورعاءها ، فأتى ، فصاح ، فصارت أمواتا ورعاتها ، ثم خرج إبليس متمثلا بقهرمان «١» الرعاة ، فقال له كمقالته فى الإبل ، فأجابه أيوب بمثل ما أجابه فيها ، فرجع خاسئا ، فقال عفريت آخر : عندى من القوة ما إذا تحولت ريحا عاصفا نسفت كل شيء أتيت عليه ، قال إبليس : فأت الفدادين والحرث ، فجاءها ، فهبّت ريح عاصفة فنسفت كل شيء ، حتى كأنه لم يكن ثمّ شيء ، فخرج إبليس متمثلا بقهرمان الحرث ، فقال له مثل قوله الأول ، وردّ عليه مثل رده ، حتى أتى على جميع ماله ، وأيوب يحمد اللّه تعالى.

فقال إبليس : إلهى إن أيوب يقول : إنك ما متعته إلا بنفسه وولده ، فهل تسلطنى على ولده ، فإنها الفتنة؟ قال اللّه تعالى : قد سلطتك على ولده ، فجاء إبليس فقلب عليهم القصر منكسين ، وانطلق إلى أيوب متمثلا بالمعلم الذي يعلمهم الحكمة ، وهو جريح ، فقال : يا أيوب لو رأيت بنيك كيف عذبوا؟ ونكّسوا على رؤوسهم ، وسال دماغهم من أنوفهم ، فلم يزل من قوله حتى رقّ أيوب وبكى ، وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه ، فصعد إبليس مسرورا ، ثم ذهب أيوب ، فلما أبصر ذلك استغفر ، وصعد قرناؤه من الملائكة ، بتوبته فبادروا إلى اللّه تعالى ، وهو أعلم ، فوقف إبليس خاسئا ، فقال : إلهى إنما هوّن أيوب خطر المال والولد ، فهل أنت مسلطى على جسده؟ فإنى لك زعيم إن سلّطنى على جسده ليكفرنّ بك ، قال اللّه تعالى : قد سلطتك على جسده ، ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه وعقله ، فجاءه إبليس فوجده ساجدا ، فجاء من قبل الأرض ، فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها جسده ، فوهل ، وخرج من قرنه إلى قدمه تآليل مثل آليات الغنم ، ووقعت به حكة لا يملكها ، فحك بأظفاره ، ثم بالمسوح الخشنة ، ثم بالحجارة ، حتى نغل لحمه ، وتغير ، ونش ، وتدود ، فأخرجه أهل القرية ، وجعلوه على كناسة ، وجعلوا له عريشا ، ورفضه الخلق كلهم ، إلا «رحمة» امرأته بنت إفرائيم بن يوسف عليه السّلام ، فقامت عليه بما يصلحه.

---

(١) القهرمان : هو المسيطر الحفيظ على من تحت يديه ، وهو فارسى معرب .. انظر اللسان (قهرم).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٨٧

روى أنس أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «إنّ أيّوب نبى اللّه لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد «١»». الحديث ، وقال كعب : سبع سنين ، وقيل : ثلاث عشرة سنة ، وما قاله – عليه الصلاة والسّلام – إن ثبت ، هو الصحيح. وقال الحسن : مكث أيوب مطرودا على كناسة ، فى مزبلة بنى إسرائيل سبع سنين وشهرا ، يختلف فيه الدود. ويمكن الجمع بين الأقوال بأن الشدة كانت سبعا والباقي مقدمات لها.

روى أن امرأته قالت له يوما : لو دعوت اللّه عز وجل؟ فقال لها : كم كانت مدة الرخاء؟ قالت : ثمانين سنة. فقال :

إنى أستحيى من اللّه أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائى. هـ. وروى أن الدود أكل جميع جسده حتى بقي عظاما نخرة ، وهو مع ذلك لا يفتر عن ذكر اللّه وحمده وشكره ، فصرخ إبليس صرخة ، وقال : أعيانى هذا العبد الذي سألت ربى أن يسلطنى عليه ، فقالت له العفاريت : أرأيت آدم حين أخرجته من الجنة ، ما أتيته إلا من قبل امرأته ، فتمثل لها بصورة رجل طيب ، وفى رواية الحسن : فى هيئة ليست كهيئة بنى آدم ، فى أحسن صورة ، فقال لها : أين بعلك يا أمة اللّه؟ فقالت : هو ذاك ، يحك قروحه ، ويتردد الدود فى جسده ، فقال لها : أنا إله الأرض الذي صنعت بصاحبك ما صنعت لأنه عبد إله السماء وتركنى ، فلو سجد لى سجدة واحدة لرددت لكما ما كان لكما.

وقال وهب : قال لها : لو أكل طعاما ولم يسمّ عليه لعوفى من البلاء ، فأخبرت أيوب ، فقال : أتاك عدو اللّه ليفتنك عن دينك ، ثم أقسم ، إن عافاه اللّه ، ليضربنها مائة ضربة. ثم حلف لا يأكل لها طعاما ، فبقى مهملا لا يأتى إليه أحد ، وقال عند ذلك : (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) من طمع إبليس فى سجودى له ، (وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) ، فقيل له : (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ) فركض ، فنبعت عين ماء ، فاغتسل منها ، فلم يبق من دائه شيء ، وسقطت الدود من جسده ، وعاد شبابه وجماله. ثم ضرب برجله فنبعت عين أخرى ، فشرب منها ، فلم يبق فى جوفه داء إلا خرج ، وكانت امرأته «رحمة» حين حلف ، تركته مدة ، ثم ندمت وعادت ، فوجدته فى أحسن هيئة ، فلم تعرفه ، فقالت له : أين الرجل المبتلى الذي كان هنا؟ قال : أنا هو ، شفانى اللّه ، ثم عرفته بضحكه ، فتعانقا ، ثم أمره اللّه تعالى أن يأخذ جماعة من القضبان فيضربها ضربة واحدة ليبرّ فى يمينه. هـ. «٢».

---

(١) أخرجه فى حديث طويل ابن حبان (بترتيب ابن بلبان ٧/ ٢٨٩٨) ، وابن أبى حاتم فى التفسير (٨/ ٢٤٥٩) ، والبزار (كشف الأستار/ ٢٣٥٧) ، وقال الهيثمي (٨/ ٢٠٨) : رواه أبو يعلى ، والبزار ، ورجال البزار رجال الصحيح.

(٢) جل ما ذكره الشيخ المفسر من روايات فى قصة أيوب أخرجه الطبري فى تفسيره (١٧/ ٦٥) وما

بعدها ، وذكره البغوي وغيره فى تفاسيرهم. وهذا مما يجب تنزيه الأنبياء عنه. وقد ردّ العلماء المحققون هذه الأخبار ، وقال الدكتور أبو شهبة فى كتابه (الإسرائيليات والموضوعات) : والذي يجب أن نعتقده أن أيوب عليه السّلام ابتلى ، ولكن بلاءه لم يصل إلى حد هذه الأكاذيب. فأيوب عليه السّلام أكرم على اللّه من أن يلقى على مزبلة ، وأن يصاب بمرض ينفر الناس من دعوته ويقززهم منه .. إلخ كلامه.

انظر :

كتاب الإسرائيليات والموضوعات. فهو كتاب نفيس.

(٤٨٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٨٨

قلت : تسليط الشيطان على بشرية الأنبياء الظاهرة : جائز وواقع. وأما الأمراض المنفرة ، فإن كانت بعد التبليغ وتقرير الشرائع ، فجائز عند بعضهم ، وهو الصواب ، جمعا بين ما ثبت فى الأخبار عن السلف وبين الدلائل العقلية فى تنزيه الأنبياء – عليهم السّلام – ، لأن العلة هى تنفير الخلق عنهم ، وبعد التبليغ فلا يضر ، وقد ورد أن شعيبا عليه السّلام عمى فى آخر عمره ، وكذلك يعقوب ، وكان بعد تبليغ الرسالة ، فلم يضر.

ثم قال تعالى فى حق أيوب عليه السّلام : فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ إنعاما عليه ، فلمّا قام من مرضه جعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان له من الأهل ، والمال ، ثم أحيا اللّه أولاده بأعيانهم ، ورزقه مثلهم ، ورد عليه ماله ، بأن أخلف له مثله ، وذلك قوله تعالى : وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ وقيل : كان ذلك بأن ولد له ضعف ما كان له. وقال عكرمة : آتيناه أهله فى الآخرة ، ومثلهم معهم فى الدنيا ، والأول هو ظاهر الآية ، ردهم اللّه تعالى بأعيانهم إظهارا لكمال قدرته تعالى.

ثم قال رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا : مفعول من أجله ، أي : آتينا ما ذكر لرحمتنا أيوب ، وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ أي : وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر ، ويثابوا كما أثيب ، أو لرحمتنا العابدين ، الذين من جملتهم أيوب ، وذكرنا إياهم بالإحسان ، وعدم نسياننا لهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما ينزل بالمؤمن من الأوجاع والأسقام والشدائد والنوائب ، فى النفس ، أو فى الأهل ، كله رحمة ، عظيمة ، ومنّة جسمية ، ويقاس عليه : مفارقة الأحباب والأوطان ومشاق الأسفار والمتاعب البدنية ، ويسمى عند الصوفية :

التعرفات الجلالية لأن اللّه تعالى يتعرف إليهم بها ليعرفوه عيانا ، ولذلك تجدهم يفرحون بها ، وينبسطون عند ورودها لما يتنسمون فيها ، ويجدون بعدها ، من مزيد الاقتراب وكشف الحجاب ، وطى مسافة البعد بينهم وبين رب الأرباب ، فهم يؤثرونها على الأعمال الظاهرة لما يتحققون بها من وجود

الأعمال الباطنية كالصبر والزهد والرضا والتسليم ، وما ينشأ عنها ، عند ترقيق البشرية ، من تشحيذ الفكرة والنظرة ، وغير ذلك من أعمال القلوب.

وفى الحكم : «إذا فتح لك وجهة من التعرف ، فلا تبالي معها إن قلّ عملك فإنه ما فتحها لك إلّا وهو يريد أن يتعرف إليك منها ، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك ، والأعمال أنت مهديها إليه ، وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك؟». قال الشيخ ابن عباد رضى اللّه عنه : معرفة اللّه تعالى هى غاية المطالب ، ونهاية الأمانى والمآرب ، فإذا واجه اللّه عبده ببعض أسبابها ، وفتح له باب التعرّف له منها ، فذلك من النعم الجزيلة عليه ، فينبغى ألا يكترث بما يفوته بسبب ذلك من أعمال البر ، وما يترتب عليها من جزيل الأجر ، وليعلم أنه سلك به مسلك الخاصة المقرّبين ،

(٤٨٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٨٩

المؤدّى إلى حقائق التوحيد واليقين ، من غير اكتساب من العبد ولا تعمّل ، والأعمال التي من شأنها أن يتلبس بها هى باكتسابه وتعمله ، وقد لا يسلم من دخول الآفات عليها ، والمطالبة بوجود الإخلاص فيها ، وقد لا يحصل له ما أمّله من الثواب عند مناقشة الحساب ، وأين أحدهما من الآخر؟.

ومثاله : ما يصاب به الإنسان من البلايا والشدائد التي تنغّص عليه لذات الدنيا ، وتمنعه من كثير من أعمال البر ، فإنّ مراد العبد أن يستمر بقاؤه فى الدنيا ، طيّب العيش ناعم البال ، ويكون حاله فى طلب سعادة الآخرة حال المترفين فلا تسخو نفسه إلا بالأعمال الظاهرة ، التي لا كثير مؤنة عليه فيها ولا مشقة ، ولا تقطع عنه لذة ، ولا يفوته شهوة ، ومراد اللّه منه أن يطهره من أخلاقه اللئيمة ، ويحول بينه وبين صفاته الذميمة ، ويخرجه من أسر وجوده إلى متسع شهوده ، ولا سبيل إلى الوصول إلى هذا المقام على غاية الكمال والتمام ، إلا بما يضاد مراده ، ويشوش عليه معتاده ، وتكون حاله حينئذ المعاملة بالباطن ، ولا مناسبة بينها وبين الأعمال الظاهرة ، فإذا فهم هذا علم أن اختيار اللّه له ، ومراده منه ، خير من اختياره لنفسه ومراده لها.

وقد روى أن اللّه تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه : «إنى إذا أنزلت بعبدي بلائي ، فدعانى ، فماطلته بالإجابة ، فشكانى ، قلت : عبدى كيف أرحمك من شيء به أرحمك»؟ وفى حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال :

«قال اللّه تعالى : إذا ابتليت عبدى المؤمن فلم يشكنى إلى عوّاده ، أنشطته من عقالى ، وبدّلته لحما خيرا من لحمه ، ودما خيرا من دمه ، ويستأنف العمل» «١».

ثم نقل عن أبى العباس ابن العريف رضى اللّه عنه قال : كان رجل بالمغرب يدعى أبا الخيّار ، وقد عمّ

جسده الجذام ، ورائحة المسك توجد منه على مسافة بعيدة ، لقيه بعض الناس ، فقال له : يا سيدى كأن اللّه تعالى لم يجد للبلاء محلا من أعدائه حتى أنزله بكم ، وأنتم خاصة أوليائه!! فقال لى : اسكت ، لا تقل ذلك لأنا لمّا أشرفنا على خزائن العطاء ، لم نجد عند اللّه أشرف ولا أقرب من البلاء ، فسألناه إيّاه «٢» ، وكيف بك لو رأيت سيّد الزهّاد ، وقطب العباد ، وإمام الأولياء والأوتاد ، فى غار بأرض طرطوس وجبالها ، ولحمه يتناثر ، وجلده يسيل قيحا وصديدا ، وقد أحاط به الذباب والنمل ، فإذا كان الليل لم يقنع بذكر اللّه وشكره على ما أعطاه من الرحمة ، حتى يشدّ نفسه بالحديد ، ويستقبل القبلة عامّة ليله حتى يطلع الفجر. هـ.

---

(١) أخرجه البيهقي فى السنن الكبرى (الجنائز ، بال ما ينبغى لكل مسلم أن يستشعره من الصبر ..) ، والحاكم فى المستدرك (الجنائز ١/ ٣٤٩) عن أبى هريرة ، وصححه الحاكم ، وأقره الذهبي.

(٢) أمرنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالتداوى. وقال : «اسألوا اللّه العافية».

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٩٠

وقد تكلم الصوفية فى قول أيوب عليه السّلام : مَسَّنِيَ الضُّرُّ هل شكى ضرر جسمه ، أو ضرر قلبه من جهة دينه؟

قال بعضهم : قيل : إنه أراد النهوض إلى الصلاة فلم يستطع ، فقال : (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) ، وقيل : إنه أكل الدود جميع جسده ، حتى بقي عظاما ، فلما قصد الدود قلبه ولسانه غار على قلبه لأنه موضع المعرفة والتوحيد ، والنبوة والولاية ، وأسرار اللّه تعالى ، وخاف انقطاع الذكر ، فقال : (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) ، وقيل : خاف تبدد همه وتفرق قلبه ، وليس فى العقوبة شيء أشد من تبدد الهم ، فتارة يقول : لعلى ببلائى معاقب ، وتارة يقول : بضرى مستدرج ، فلما خاف تشتيت خاطره عليه ، قال : (مَسَّنِيَ الضُّرُّ). هـ.

قلت : هذا المقام لا يليق بالأنبياء ، وإنما يجوز على غيرهم إذ الأولياء يترقون عن هذا المقام فكيف بالأنبياء! وقال بعضهم : قال : مسنى الضر من شماتة الأعداء ، واقتصر عليه ابن جزى ، وفيه شيء إذ كثير من الأولياء سقط الناس من عينهم ، فلا يبالون بخيرهم ولا شرهم ، ولا مدحهم ولا ذمهم ، فكيف بالأنبياء – عليهم السّلام – ؟! وقال القشيري : كان ذلك منه إظهارا للعجز ، لا اعتراضا ، فلا ينافى الصبر ، مع ما فيه من التنفيس عن الضعفاء من الأمة ، ليكون أسوة. ويقال : إن جبريل أمره بذلك ، وقال له : إن اللّه يغضب إن لم يسأل ، وسيان عنده البلاء والعافية ، فسله العافية. ويقال : إن أيوب كان مكاشفا بالحقيقة ، مأخوذا عنه ، وكان لا يحس بالبلاء ، فستر عليه ، فردّه إليه ، فقال : مسنى

الضّرّ ، وقيل : أدخل على أيوب تلك الحالة ، فاستخرج منه تلك المقالة ليظهر عليه سمة العبودية «١». هـ.

وقال الورتجبي : سئل الجنيد عن قوله : (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) ، فقال عرّفه فاقة السؤال ، ليمنّ عليه بكرم النوال ، وفى الحديث المروي عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : أنه جاء إليه رجل فسأله عن قول أيوب «مسنى الضر» ، فبكى – عليه الصلاة والسّلام – وقال : والذي بعثني بالحق نبيا ما شكى فقرا نزل من ربه ، ولكن كان فى بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات ، فلما كان فى بعض الساعات وثب ليصلى ، فلم يستطع النهوض ، فقال : (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) إلخ. ثم قال عليه الصلاة والسّلام – : أكل الدود عامة جسد حتى بقي عظاما نخرة «٢» ، فكادت الشمس تطلع من قبله وتخرج من دبره ، وما بقي إلا قلبه ولسانه ، وكان قلبه لا يخلو من ذكر اللّه ، ولسانه لا يخلو من ثنائه على ربه ، فلما أحب اللّه له الفرج ، بعث إليه الدودتين إحداهما إلى لسانه والأخرى إلى قلبه ، فقال : يا رب ما بقي إلا هاتان الجارحتان ، أذكرك بهما ، فأقبلت هاتان الدودتان إليهما ليشغلانى عنك ويطلعان على سرى ، مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين. هـ.

وفى قوله تعالى : (رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ) : تسلية لمن أصيب بشيء من هذه التعرفات الجلالية ، وقد تقدم فى أول الإشارة الكلام على هذا. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) باختصار.

(٢) لم أقف عليه.

ثم ذكر ما بقي من مشاهير الأنبياء ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٨٥ الى ٨٦]

وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِسْماعِيلَ بن إبراهيم ، وكان أكبر من إسحاق ، وَإِدْرِيسَ واسمه : أخنوخ بن شيث بن آدم. قاله النسفي وَذَا الْكِفْلِ وهو إلياس ، أو زكريا ، أو يوشع بن نون ، قلت : كونه زكريا بعيد لأنه سيذكره بخصوصه بعد. وسمى ذا الكفل لأنه ذو حظ من اللّه ، والكفل : الحظ. أو تكفل بضعف عمل أنبياء زمانه ، أو بصيام النهار وقيام الليل. وقال أبو موسى الأشعري : إنّ ذا الكفل لم يكن نبيا ، ولكنه كان عبدا صالحا ، تكفل بعمل رجل صالح عند موته ، وكان يصلى للّه تعالى ، فى كل يوم ،

مائة صلاة ، فأحسن اللّه عليه الثناء. هـ. وقال عمر بن عبد اللّه بن الحارث : إن نبيا من الأنبياء قال : من تكفل لى أن يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب؟ فقال شاب : أنا ، فمات ذلك النبي ، فجلس ذلك الشاب يقضى بين الناس ، فجاءه الشيطان فى صورة إنسان ليغضبه وهو صائم ، فضرب الباب ضربا شديدا ، فقال : من هذا؟ فقال : رجل له حاجة ، فأرسل له رجلا ، فلم يرض ، ثم أرسل معه آخر ، فلم يرض ، فخرج إليه فأخذ بيده فانطلق معه إلى السوق ، ثم خلاه وذهب ، فسمى ذا الكفل. هـ.

كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ أي : كل واحد من هؤلاء موصوف بالصبر التام على مشاق التكليف وشدائد النوب ، وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا فى النبوة ، أو فى الآخرة ، إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ أي : الكاملين فى الصلاح الذي لا تحوم حوله شائبة الفساد ، وهم الأنبياء ، فإن صلاحهم معصوم من كدر الفساد. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد مدح اللّه هؤلاء السادات بخصلتين ، من تحقق بهما : التحق بهم ، وانخرط فى سلكهم : الصبر على مشاق الطاعة ، وعلى ترك المعصية ، وفى حال البلية. والصلاح ، وهو : إصلاح الظاهر بالشريعة ، وإصلاح الباطن بنور الحقيقة. فمن تحقق بهاتين الخصلتين كان من المقربين مع النبيين والصديقين. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر يونس عليه السّلام ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٨٧ الى ٨٨]

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٩٢

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر ذَا النُّونِ أي : صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السّلام ، إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً أي : مراغما لقومه ، فارا عنهم ، وغضب من طول دعوته إياهم ، وشدة شكيمتهم ، وتمادى إصرارهم ، فخرج مهاجرا عنهم ، قبل أن يؤمر ، وقيل : وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم لأجل توبتهم ، ولم يشعر بها ، فظن أنه كذبهم ، فغضب من ذلك ، فهو من باب المغالبة للمبالغة أو لأنه غضب لما رأى منهم من الإصرار ، وغضبوا لمفارقته إياهم ، وكان من حقه عليه السّلام أن يصبر وينتظر الإذن الخاص من اللّه تعالى ، فلما استعجل ابتلى ببطن الحوت ، وقال ابن عباس : قال جبريل ليونس عليه السّلام : انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم ، قال :

ألتمس دابة ، قال : الأمر أعجل من ذلك ، فانطلق إلى السفينة فركبها ، فاحتبست السفينة فساهموا فسهم ، فجاءه الحوت يبصبص بذنبه ، فنودى الحوت : إنا لم نجعل يونس لك رزقا ، إنما جعلناه لك

حرزا ، فالتقمه ، ومرّ به على الأبلة ، ثم على دجلة ، ثم مرّ به حتى ألقاه بنينوى. هـ.

وقال وهب بن منبه رضى اللّه عنه : إنّ يونس كان عبدا صالحا ضيّق الخلق ، «٢» فلما حمل أثقال النبوة تفسخ منها تفسّخ الرّبع «١» تحت الحمل الثقيل ، فقذفها وخرج هاربا عنها ، ولذلك أخرجه اللّه من أولى العزم ، قال لنبيه صلى اللّه عليه وسلم :

فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ «٣» وقال : وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ «٤» أي : لا تلق أمرى كما ألقاه. هـ. وأما قول الحسن : مغاضبا لربه ، فلا يليق بمقام الأنبياء – عليهم السلام – إلا أن يحمل على أن خروجه بلا إذن كأنه مغاضب. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى : فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ أي : لن نضيق عليه ، أو لن نقدر عليه بالعقوبة ، فهو من القدر ، ويؤيده قراءة من شدّد ، وعن ابن عباس رضى اللّه عنه قال : دخلت يوما على معاوية ، فقال : لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة ، فغرقت فيها ، فلا أرى لنفسى خلاصا إلا بك ، قال : وما هى؟ فقرأ الآية ... فقال : أو يظن نبى اللّه ألا يقدر عليه؟ قال : هذا من القدر لا من القدرة. هـ.

وقيل : إنه على حذف الاستفهام. أي : أيظن أن لن نقدر عليه ، وقيل : هو تمثيل لحاله بحال من ظن أن لن يقدر عليه ، أي : تعامل معاملة من ظن أن لن نقدر عليه حيث استعجل الفرار. قلت : لإعلاء مقامه كثرت مطالبته بالأدب ، فحين خرج من غير إذن خاص عدّ خروجه كأنه ظن ألا تنفذ فيه القدرة ، وتمسك عليه السّلام بالإذن العام ، وهو الهجرة من دار الكفر ، وهو لا يكفى فى حق أمثاله ، فعوقب بالسجن فى بطن الحوت.

---

(١) الربع : ولد الناقة أول ما يحمل عليه.

(٢) هذا لا يصح أن يوصف به سيدنا يونس ، الذي قال فيه سيدنا محمد : «لا ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى».

(٣) من الآية ٣٥ من سورة الأحقاف.

(٤) من الآية ٤٨ من سورة القلم. وانظر تفسير الطبري (١٧/ ٧٧) ، والبغوي (٥/ ٣٥٠). [.....]

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٩٣

فَنادى فِي الظُّلُماتِ أي : فى الظلمة الشديدة المتكاثفة كقوله : ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ ... «١» ،

أو فى ظلمة بطن الحوت والبحر والليل : أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ أي : بأنه لا إله إلا أنت ، أو تفسيرية ، أي

: قال لا إله إلا أنت ، سُبْحانَكَ أي : أنزهك تنزيها لائقا بك من أن يعجزك شيء ، أو : تنزيها لك عما ظننت فيك ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ لنفسى بخروجي عن قومى قبل أن تأذن لى ، أو من الظالمين لأنفسهم بتعريضها للهلكة ، وعن الحسن : ما نجاه ، واللّه ، إلا إقراره على نفسه بالظلم.

فَاسْتَجَبْنا لَهُ أي : أجبنا دعاءه الذي دعا فى ضمن الاعتراف بالذنب على ألطف وجه وأحسنه. عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «ما من مكروب يدعو بهذا الدّعاء إلّا استجيب له» «٢». وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ : الذلة والوحشة والوحدة ، وذلك بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات ، وقيل : بعد ثلاثة أيام ، وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ أي : مثل ذلك الإنجاء الكامل ننجى المؤمنين من غمومهم ، إذا دعوا اللّه ، مخلصين فى دعائهم. وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال :

«اسم اللّه الذي إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى : دعوة يونس بن متى ، قيل : يا رسول اللّه ، أليونس خاصة؟

قال : بل هى عامة لكل مؤمن ، ألم تسمع قول اللّه تعالى : وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ». وهنا قراءات فى نُنْجِي ، مذكورة فى كتب القراءات ، تركتها لطول الكلام فيها.

الإشارة : من تحققت له سابقة العناية لا تبعده الجناية ، ولا تخرجه عن دائرة الولاية ، بل يؤدب فى الدنيا بالابتلاء فى بدنه أو ماله ، على قدر الجناية وعلو المقام ، ثم يرد إلى مقامه. وهاهنا حكايات للصوفية – رضى اللّه عنهم – من هذا النوع ، منها : حكاية خير النساج رضى اللّه عنه ، قيل له : أكان النسج صنعتك؟ قال : لا ، ولكن كنت عاهدت اللّه واعتقدت ألا آكل الرطب ، فغلبتنى نفسى واشتريت رطلا منه ، فجلست لآكله ، فإذا رجل وقف علىّ ، وخنقنى ، وقال : يا عبد السوء ، أتهرب من مولاك – وكان له عبد اسمه : «خير» أبق منه ، ألقى اللّه شبهه علىّ – فحملنى إلى حانوته ، وقال : اعمل عملك ، أمرنى بعمل الكرباس – وهو القطن – فدليت رجلى لأنسجه ، فكأنى كنت أعمله سنين ، فبقيت معه أشهرا ، فقمت ليلة إلى صلاة الغداة ، وقلت : إلهى لا أعود ، فأصبحت ، فإذا الشبه قد زال عنى ، وعدت إلى صورتى التي كنت عليها ، فأطلقت ، فثبت علىّ هذا الاسم ، فكان سببه اتباع شهوتى.

ومنها قضية أبى الخير العسقلاني رضى اللّه عنه قال : اشتهيت السمك سنين ، ثم ظهر له من وجه حلال ، فلما مد يده ليأكل ، أخذت شوكة من عظامه إصبعه ، فذهبت فى ذلك ، فقال : إلهى هذا لمن مد يده لشهوة من حلال ، فكيف

---

(١) من الآية ١٧ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الترمذي فى (الداعوة باب ٨٢) ، وأبو يعلى (٢/ ٦٥) ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٠٥) ، وصححه ووافقه الذهبي ، من حديث سعد بن أبى وقاص. وأخرجه أحمد فى قصة (١/ ١٧٠).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٩٤

بمن مد يده لشهوة من حرام. ومنها : قضية إبراهيم الخواص رضى اللّه عنه قال : كنت جائعا فى الطريق ، فوافيت الرّى – اسم بلدة – فخطر ببالي أن لى بها معارف ، فإذا دخلتها أضافونى وأطعمونى ، فلمّا دخلت البلد رأيت فيها منكرا احتجت أن آمر فيه بالمعروف ، فأخذونى وضربونى ، فقلت فى نفسى : من أين أصابنى هذا ، على جوعى؟ فنوديت فى سرى : إنك سكنت إلى معارفك بقلبك ، ولم تسكن إلى خالقك.

وأمثال هذا كثير بأهل الخصوصية ، يؤدبون على أقل شيء من سوء الأدب لشدة قربهم ، ثم يردون إلى مقامهم. ومن هذا النوع قصة سيدنا يونس عليه السّلام حيث خرج من غير إذن خاص ، فأدّبه ، ثم رده إلى النبوة والرسالة ، وقد كنت سمعت من بعض الأشياخ أن أيوب عليه السّلام إنما أصيب فى ماله ، لأنه كان بجوار ماله كافر ، فكان يداريه لأجل ماله ، فأصيب فيه وفى بدنه تأديبا وتكميلا له. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر زكريا عليه السّلام فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٨٩ الى ٩٠]

وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ (٩٠)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر خبر زَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ فى طلب الولد ، وقال : رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وحيدا بلا ولد يرثنى ، ثم ردّ أمره إليه مستسلما ، فقال : وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ ، فحسبى أنت ، وإن لم ترزقنى وارثا فلا أبالى فإنك خير وارث ، فَاسْتَجَبْنا لَهُ دعاءه ، وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى ولدا وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ أي : أصلحناها للولادة بعد عقمها ، أو أصلحناها للمعاشرة بتحسين خلقها. وكانت قبل سيئة الخلق ، إِنَّهُمْ أي : ما تقدم من الأنبياء ، كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ أي : إنما استحقوا الإجابة إلى مطالبهم ، وأسعفناهم فيما أمّلوا لمبادرتهم أبواب الخير ، ومسارعتهم إلى تحصيلها ، مع ثباتهم واستقرارهم فى أصل الخير كله ، وهو السر فى إتيان : «فى» ، دون «إلى» ، المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات ، متوجهين إليها ، كما فى قوله تعالى : وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ «١». وَكانوا يَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً طمعا وخوفا ، وهما مصدران فى موضع الحال ، أو المفعول له ، أي : راغبين فى الثواب أو الإجابة ، وراهبين من العقاب أو الخيبة ، أو للرغبة والرهبة ، وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ :

---

(١) من الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٩٥

متواضعين خائفين ، أي : إنما نالوا هذه المراتب العلية ، واستحقوا هذه الخصوصية لاتصافهم بهذه الأوصاف الحميدة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الغالب فى وراثة الخصوصية الحقيقية أن تكون لغير ورثة النسب ، وأما الخصوصية المجازية ، التي هى مقام الصلاح أو العلم ، فقد تكون لورثة النسب ، وتكون لغيرهم. والخصوصية الحقيقية هى مقام الفناء والبقاء ، والتأهل للتربية النبوية ، ولا بأس بطلب وارث هذه الخصوصية ، لئلا ينقطع النفع بها. وقد قيل ، فى قول الشيخ ابن مشيش رضى اللّه عنه : اسمع نداءى بما سمعت به نداء عبدك زكريا ، إنه أشار إلى طلب الوارث الروحاني. واللّه تعالى أعلم.

وقوله تعالى : إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ ، فيه إشارة إلى بيان سبب حصول الخصوصية لأن بابها هو المسارعة إلى عمل الخيرات وأنواع الطاعات ، وأوكدها ثلاثة : دوام ذكر اللّه ، وحسن الظن باللّه ، وبعباد اللّه. وفى الحديث : «خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير : حسن الظن باللّه ، وحسن الظن بعباد اللّه». وقوله : وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً ، هذه حالة الطالبين المسترشدين المتعطشين إلى اللّه ، يدعونه رغبا فى الوصول ، ورهبا من الانقطاع والرجوع ، وقد تكون للواصلين رغبا فى زيادة الترقي ، ورهبا من الوقوف أو الإبعاد. وقال بعضهم : الرغب والرهب حاصلتان لكل مؤمن ، إذ لو لم تكن رغبة لكان قنوطا ، وهو كفر ، ولو لم تكن رهبة لكان أمنا ، والأمن كفر.

واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر مريم وابنها – عليهما السلام – فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : آية ٩١]

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (٩١)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها على الإطلاق من الحلال والحرام ، والتعبير عنها بالموصول لتفخيم شأنها ، وتنزيهها عما زعموه فى حقها. فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا أي : أجرينا روح عيسى فيه وهو فى بطنها ، أو نفخنا فى درع جيبها من ناحية روحنا ، وهو جبريل عليه السّلام ، فأحدثنا بذلك النفخ عيسى عليه السّلام ، وإضافة الروح إليه تعالى لتشريف عيسى عليه السّلام ، وَجَعَلْناها وَابْنَها أي :

قضيتهما ، أو حالهما ، آيَةً لِلْعالَمِينَ ، فإن من تأمل حالهما تحقق بكمال قدرته تعالى. وإنما لم يقل آيتين ، كما قال : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ «١» لأن مجموعهما آية واحدة ، وهى ولادتها إياه من غير فحل. وقيل :

التقدير : وجعلناها آية وابنها كذلك ، فآية مفعول المعطوف عليه ، فحذف أحدهما لدلالة الآخر عليه. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١٢ من سورة الإسراء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٩٦

الإشارة : من حصّل التقوى فى صغره ، كان آية فى كبره. تقول العامة : الثور الحراث فى الربك يبان ، وتقول الصوفية : البداية مجلاة النهاية. وقالت الحكماء : الصغر يخدم على الكبر. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر اتفاقهم فى التوحيد ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٩٢ الى ٩٤]

إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ (٩٤)

قلت : «أمة» : حال من «أمتكم» أي : متحدة أو متفقة ، والعامل فيه ومعنى الإشارة ، والإشارة إلى طريق الأنبياء المذكورين قبل.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ هذِهِ الطريق والسيرة التي سلكها الأنبياء المذكورون ، واتفقوا عليها ، وهو التوحيد ، هى أُمَّتُكُمْ أي : ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها ، ولا تخرجوا عنها ، حال كونها أُمَّةً واحِدَةً ، غير مختلفة فيما بين الأنبياء – عليهم السّلام – وإن اختلفت شرائعهم. وفى الحديث : «الأنبياء أبناء علّات ، أمهاتهم شتّى ، وأبوهم واحد» والعلات : الضرائر ، أي : شرائعهم مختلفة ، وأبوهم واحد ، وهو التوحيد. قال القشيري : وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ أي : ربيتكم اختيارا ، فاعبدونى شكرا وافتخارا. هـ. والخطاب للناس كافة.

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ ، أصل الكلام : وتقطعتم فى أمر دينكم وتفرقتم. إلّا أن الكلام صرف إلى الغيبة ، على طريقة الالتفات لينعى عليهم ما أفسدوه فى الدين. والمعنى : فجعلوا أمر دينهم فيما بَيْنَهُمْ قطعا ، وصاروا أحزابا متفرقة ، كأنه ينهى إلى أهل التوحيد قبائح أفعالهم ، ويقول : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين اللّه ، الذي أجمعت عليه كافة الأديان؟ ثم توعدهم بقوله : كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ أي : كل واحد ، من الفرق المتقطعة ، راجع إلينا بالبعث ، فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم.

ثم فصّل الجزاء فقال : فَمَنْ يَعْمَلْ شيئا مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ باللّه ورسله وبما يجب الإيمان به. قال القشيري : (و هو مؤمن ، أي : فى المآل بأن يختم له به) ، وكأنه يشير إلى الخاتمة لأن من لم

يختم له بالإيمان لا ثواب لأعماله ، والعياذ باللّه ، فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ أي : لا حرمان لثواب عمله ، بل سعيه مشكور مقبول ، فالكفران مثل فى حرمان الثواب ، كما أن الشكر مثل فى إعطائه ، وعبّر عن ذلك بالكفران ، الذي هو ستر النعمة

(٤٩٦/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٩٧

وجحدها لبيان كمال تنزهه تعالى عنه. وعبّر عن العمل بالسعي لإظهار الاعتداد به ، وَإِنَّا لَهُ أي : لسعيه كاتِبُونَ مثبتون فى صحائف أعمالهم ، نأمر الحفظة بذلك ، لا نغادر من ذلك شيئا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الصوفية – رضى اللّه عنهم – ، فى حال سيرهم إلى الحضرة وسلوكهم فى طريق التربية ، مختلفون بحسب الأزمنة والأمكنة والأشخاص. وفى حال نهايتهم – وهو الوصول إلى حضرة الشهود والعيان ، وإشراق شمس العرفان ، الذي هو مقام الإحسان ، ويعبّرون عنه بالفناء والبقاء ، وهو التوحيد الخاص – متفقون ، وفى ذلك يقول القائل :

عباراتنا شتى ، وحسنك واحد وكلّ إلى ذاك الجمال يشير

لأن ما كان ذوقا ووجدا لا يختلف ، بل يجده كل من له ذوق سليم. نعم تتفاوت أذواقهم على حسب مشاربهم ، ومشاربهم على حسب إعطائهم نفوسهم وبيعها للّه ، وتتفاوت أيضا بحسب التخلية والتفرغ ، وبحسب الجد والاجتهاد ، وكلهم على بصيرة من اللّه وبينة من ربهم. نفعنا اللّه بذكرهم ، وخرطنا فى سلكهم ، آمين.

ثم تمم قوله : كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٩٥ الى ٩٧]

وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ (٩٧)

قلت : «حرام» : مبتدأ ، وفيه لغتان : حرام وحرم ، كحلال وحلّ. و«أنهم ..» إلخ : خبر ، أو فاعل سد مسده ، على مذهب الكوفيين والأخفش. والجملة : تقرير لقوله : (كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ) ، و«لا» نافية ، أي : ممتنع على قرية أهلكناها عدم رجوعهم إلينا بالبعث ، بل كل إلينا راجعون. وقيل : «لا» زائدة ، والتقدير : ممتنع رجوع قرية أردنا إهلاكها عن غيهم ، «فإنهم» : على هذا : فاعل بحرام. قاله القصار. و«حتى» : ابتدائية ، غاية لما يدل عليه ما قبلها ، أي : يستمرون على ما هم عليه من الهلاك ، حتى إذا قامت القيامة يرجعون إلينا ، ويقولون : يا ويلنا. وقال أبو البقاء : «حتى» :

متعلقة فى المعنى بحرام ، أي : يستقر الامتناع ، أي : هذا الوقت. و«فإذا هى» : جواب «إذا». وفى الأزهرى : وقد يجمع بين الفاء وإذا الفجائية تأكيدا ، خلافا لمن منع ذلك. قال تعالى : (فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ) ، فإنه لو قيل : إذا هى ، أو فهى شاخصة لصح. هـ. وقيل : «يا ويلنا» : على حذف القول ، أي : إذا فتحت قالوا : يا ويلهم. و«اقترب» : عطف على «فتحت».

(٤٩٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٩٨

يقول الحق جل جلاله : وَحَرامٌ أي : ممتنع عَلى أهل قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها قدرنا هلاكها ، أو حكمنا بإهلاكها لعتوهم ، أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ بالبعث والحشر ، بل لا بد من بعثهم وحشرهم وجزائهم على أعمالهم. وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع للكل لقوله : كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ لأنهم المنكرون للبعث والرجوع دون غيرهم. وقيل : المعنى : وممتنع على قرية ، أردنا إهلاكها ، رجوعهم إلى التوبة ، أو ممتنع على قرية ، أهلكناها بالفعل ، رجوعهم إلى الدنيا. وفيه رد على مذهب القائلين بالرجعة من الروافض وأهل التناسخ ، على أن «لا» صلة. وقرىء بالكسر «١» ، على أنه تعليل لما قبله ، فحرام ، على هذا ، خبر عن مبتدأ محذوف ، أي : ذلك العمل الصالح حرام على قرية أردنا إهلاكها لأنهم لا يرجعون عن غيهم.

وقال الزجاج : المعنى : وحرام على قرية ، أردنا إهلاكها ، أن يتقبّل منهم عمل لأنهم لا يرجعون ، أي : لا يتوبون ، ويجوز حمل المفتوحة على هذا بحذف اللام ، ويستمرون على ما هم عليه من الهلاك ، أو : فليستمر امتناعهم من الرجوع.

حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ونفخ فى الصور ، وقامت القيامة ، فيرجعون ، ولا ينفعهم الرجوع. ويأجوج ومأجوج قبيلتان ، يقال : الناس عشرة أجزاء ، تسعة منها يأجوج ومأجوج. والمراد بفتحها : فتح سدها ، على حذف مضاف أي : حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج ، وَهُمْ أي : يأجوج ومأجوج ، وقيل : الناس بعد البعث ، مِنْ كُلِّ حَدَبٍ أي : نشز ومرتفع من الأرض ، يَنْسِلُونَ : يسرعون ، وأصل النسل : مقاربة الخطو مع الإسراع. ويدل على عود الضمير ليأجوج ومأجوج : قوله – عليه الصلاة والسّلام – : «ويفتح ردم يأجوج ومأجوج ، فيخرجون على الناس ، كما قال اللّه تعالى : مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ...» الحديث «٢» ، ويؤيد إعادته على الناس قراءة مجاهد : «من كل جدث» بالجيم ، وهو القبر.

ثم قال تعالى : وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ أي : ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب ، فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أي : فإذا القصة أو الشأن ، وهو أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا شاخصة ، أي : مرتفعة الأجفان ، لا تكاد تطرق من شدة الهول ، حال كونهم يقولون : يا وَيْلَنا يا هلكتنا ، هذا أوانك ، فاحضرى ، قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ تامة

مِنْ هذا الذي دهمنا من البعث ، والرجوع إليه تعالى ، للجزاء ، ولم نعلم ، حيث نبّهنا عليه بالآيات والنذر ، أنه حق ، بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ بتلك الآيات والنذر ، مكذبين بها ، أو ظالمين أنفسنا بتعريضها للعذاب

---

(١) فى قوله : «إنهم».

(٢) أخرجه ، مطولا ، مسلم ، فى (الفتن ، وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال) ، من حديث النواس بن سمعان.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٤٩٩

المخلد. وهو إضراب عما قبله ، من وصف أنفسهم بالغفلة ، أي : لم نكن غافلين عنه ، حيث نبّهنا عليه بالآيات والنذر ، بل كنا ظالمين بتكذيبهم ، واللّه تعالى أعلم.

تذييل : روى حذيفة أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «أول الآية : الدّجال ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من قرن عدن ، تسوق الناس إلى المحشر – أي الشام – تقيل معهم إذا قالوا ، والدّخان ، والدّابة ، ثم يأجوج ومأجوج» «١». قلت : وبعد موت يأجوج ومأجوج ، تبقى مدة عيسى عليه السّلام ، فى أمنة ورغد عيش. قيل : سبع سنين ، وقيل : أربعون. ثم يقبض عيسى ، ويدفن فى روضته صلى اللّه عليه وسلم ، ثم تهب ريح تقبض المؤمنين ، فلا يبقى من يقول اللّه اللّه ، قيل : مائة سنة ، وقيل : أقل ، ثم تخرب الكعبة ، ثم ينفخ فى الصور للصعق ، واقترب الوعد الحق. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الحضرة محرمة على قلب خراب ، أهلكه اللّه بالوساوس والخواطر ، وفتحت عليه من الشواغل والشواغب والخواطر يأجوج ومأجوج ، فأفسدته وخربته وجعلته مزبلة للشياطين. فحرام عليه رجوعه إلى الحضرة حتى يتطهر من هذه الوساوس والخواطر ، ومن الشواغل والعلائق. قال بعض الصوفية : (حضرة القدوس محرمة على أهل النفوس). فإذا اقترب وعد الحق ، وهو أجل موته ، قال : يا ويلنا إنا كنا عن هذا غافلين ، لم نتأهب للقاء رب العالمين ، حتى لقيته بقلب سقيم. والعياذ باللّه.

ثم ذكر مآل الكفرة إذا وقع الوعد الحق ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ٩٨ الى ١٠٠]

إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (٩٨) لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّكُمْ ، يا كفار قريش ومن دان دينكم ، وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ من الأصنام

والشياطين لأنهم ، لطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم ، فى حكم عبادتهم ، ويدخل فيه الشمس والقمر والنجوم ، وكل ما عبد من دون اللّه ممن لا يعقل ، للحديث الوارد فى دخولهم النار ، تبكيتا لمن عبدهم لأنهم لا

---

(١) أخرجه مسلم فى (الفتن ، باب الآيات التي تكون قبل قيام الساعة). من حديث حذيفة بن أسيد. ولفظه كاملا : «إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف فى جزيرة العرب ، والدخان ، والدجال ، ودابة الأرض ، ويأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونار تخرج من قعر عدن ترحل الناس».

(٤٩٩/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٠٠

يتضررون بالنار. وأما من يعقل فلا يدخل حيث عبّر بما. وقيل : يدخل ، ثم استثناه بقوله : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى ... ، فكل من عبد شيئا من دون اللّه فهو معه ، حَصَبُ جَهَنَّمَ أي : حطبها ، وقرئ بالطاء ، أي : وقودها أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ أي : فيها داخلون.

لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً كما زعمتم ما وَرَدُوها ما دخلوا النار ، وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ أي : وكل من العابد والمعبود فى النار خالدون. لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ أي : للكفار فى النار أنين وبكاء وعويل ، وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ شيئا لأن فى سماع بعضهم بعضا نوع أنس. قال ابن مسعود رضى اللّه عنه : يجعلون فى توابيت من نار ، ثم جعلت التوابيت فى توابيت أخر لها مسامير من نار ، فلا يسمعون شيئا.

روى أن النبي صلى اللّه عليه وسلم دخل المسجد الحرام ، وصناديد قريش فى الحطيم ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما ، فجلس إليهم ، فعرض له النّضر بن الحارث ، فكلّمه النبي صلى اللّه عليه وسلم حتّى أفحمه ، ثمّ تلا عليه وعليهم : إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ... الآيات الثلاث. ثم أقبل عبد اللّه بن الزبعرى فرآهم يتساهمون ، فقال : فيم خوضكم؟ فأخفى الوليد ما قاله النبي صلى اللّه عليه وسلم ، ثم أخبره بعضهم بما قاله ، عليه الصلاة والسّلام ، فقال ابن الزبعرى للنبى صلى اللّه عليه وسلم : أأنت قلت : إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ؟ قال : نعم ، قال : قد خصمتك ، ورب الكعبة ، أليست اليهود تعبد عزيرا ، والنّصارى تعبد المسيح ، وبنو مليح يعبدون الملائكة؟ فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم :

«بل هم يعبدون الشّياطين الّتى أمرتهم بهذا ، فأنزل اللّه تعالى : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى ..» «١».

قلت : كل من عبد شيئا من دون اللّه فإنما عبد فى الحقيقة الشيطان لأنه أمر به وزينه له ، ويدل على ذلك أنهم يتبرؤون يوم القيامة ، حين تتحقق الحقائق ، من عبادتهم ، كما قال تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ، قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ «٢» مع قوله تعالى : وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ «٣». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه بنحوه الواحدي فى الأسباب (٤١٣). والطبراني فى الكبير (١٢/ ١٥٣ ح ١٢٧٣٩) ، عن ابن عباس وأخرجه ، مختصرا ، الطبري (١٧/ ٩٧) ، والحاكم فى (التفسير ٢/ ٣٨٥) وصححه ، ووافقه الذهبي.

(٢) الآيتان : ١٧ - ١٨ من سورة الفرقان.

(٣) من الآية ٣٨ من سورة العنكبوت.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٠١

الإشارة : من أحب شيئا حشر معه ، من أحب أولياء اللّه حشر معهم ، ومن أحب الصالحين حشر معهم ، ومن أحب الفجار حشر معهم ، ومن أحب الدنيا بعث معها ، ثم بعث إلى النار ، وهكذا .. المرء مع من أحب.

ثم استثنى بذكر حال أهل السعادة ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ١٠١ الى ١٠٣]

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ (١٠٢) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أي : الخصلة الحسنى ، أو المشيئة الحسنى ، وهى السعادة ، أو التوفيق للطاعة ، أو البشرى بالثواب ، أُولئِكَ عَنْها : عن جهنم مُبْعَدُونَ لأنهم فى الجنة ، وشتان ما بينهما. قال القشيري : لم يقل متباعدون ليعلم العابدون أن المدار على التقدير وسبق الحكم من اللّه ، لا على تباعد العبد وتقرّبه. هـ. وكأنه يشير لقوله : «هؤلاء إلى الجنّة ولا أبالى» «١» ، أي : بأعمالهم.

لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها أي : صوتها الذي يحس ، وحركة تلهبها ، وهذه مبالغة فى الإبعاد ، أي : لا

يقربوها حتى لا يسمعوا صوتها أو صوت من فيها. قال الكواشي : لا يسمعون صوت النار وحركة تلهبها إذا نزلوا منازلهم من الجنة. هـ. وقال ابن عطية : وذلك بعد دخولهم الجنة لأن الحديث يقتضى أن فى الموقف تزفر جهنم زفرة لا يبقى نبى ولا ملك إلا خرّ على ركبتيه. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : محمل الحديث ، إن صح فى حق الأنبياء والأكابر ، على شهود الجلال والإجلال للّه تعالى ، ولذلك يقولون : «نفسى نفسى» ، لا من خوف النار. هـ.

قلت : أما كون الناس يصعقون يوم القيامة ، فيكون المصطفى أول من يفيق ، فثابت فى الصحيح ، أما سبب الصعقة فقد ورد فى غير البخاري : «أنه يؤتى بجهنم ، ولها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها ، ثم تزفر زفرة ، فلا يبقى نبى ولا ملك إلا خرّ» «٢» ... الحديث ، ويؤيده

---

(١) بعض حديث ، أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٤/ ١٨٦) والحاكم فى المستدرك (١/ ٣١) ، وابن حبان (١٨٠٦ موارد) ، عن عبد الرحمن بن قتادة السلمى. والحديث ، صححه الحاكم ، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه ، بدون العبارة الأخيرة ، مسلم فى (الجنة وصفه نعيمها ، باب فى شدة حر نار جهنم ..) من حديث ابن مسعود رضى اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٠٢

قوله تعالى : وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ «١» والأنبياء – عليهم السلام – بشر عبيد ، قد تعمهم القهرية ، ولا تقدح فى منصبهم ، وليس صعقهم خوفا ، لكن غلبة ودهشا ، كما صعق موسى – عليه السّلام عند الرؤية ، ونبينا – عليه الصلاة والسلام – حين تجلى له جبريل على صورته. واللّه أعلم. وقال جعفر الصادق : وكيف يسمعون حسيسها ، والنار تخمد بمطالعتهم ، وتتلاشى برؤيتهم؟ ثم ذكر حديث قول النار للمؤمن : جز .. إلخ.

ويدل على أن هذه الحالة إنما هى بعد دخولهم الجنة ، قوله تعالى : وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ من النعيم خالِدُونَ : دائمون ، والشهوة : طلب النفس للذة. وهو بيان لفوزهم بالمطالب ، إثر بيان خلاصهم من المهالك والمعاطب ، أي : دائمون فى غاية التنعم ، لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ، وهو القيام من القبور عند صيحة البعث ، بدليل قوله : وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ. قال ابن عباس : «تتلقاهم الملائكة بالرحمة ، عند خروجهم من القبور» ، قائلين : هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ بالكرامة والثواب ، والنعيم المقيم فيه ، أي : بعد دخولكم الجنة.

وقال الحسن : الفزع الأكبر : الانصراف إلى النار. وعن الضحاك : حين يطبق على أهل النار. وقيل : حين نفخة الصعق ، وقيل : حين يذبح الموت. قلت : من سبقت له الحسنى ينجو من جميعها. وقيل : تتلقاهم الملائكة على أبواب الجنة ، مهنئين لهم قائلين : (هذا يومكم الذي كنتم توعدون) فى الدنيا ، ويبشرون بما فيه من فنون المثوبات على الإيمان والطاعات. وهذا ، كما ترى ، صريح فى أن المراد بالذين سبقت لهم الحسنى : كافة المؤمنين الموصوفين بالإيمان والأعمال الصالحة ، لا من ذكر من المسيح ، وعزير ، والملائكة ، كما قيل. قاله أبو السعود ، قلت : وقد يجاب بأنها نزلت فى شأنهم وتعم غيرهم لأن سبب النزول لا يخصص. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال الجنيد رضى اللّه عنه : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أي : سبقت لهم منا العناية فى البداية ، فظهرت لهم الولاية فى النهاية. هـ. (أُولئِكَ عَنْها) أي : عن نار القطيعة ، وهى أغيار الدنيا ، مبعدون ، لا يسمعون حسيسها ، ولا ما يقع فيها من الهرج والفتن ، لغيبتهم عنها بالكلية فى الشغل باللّه تعالى ، فهم فيما اشتهت أنفسهم من لذة الشهود ، والقرب من الملك الودود ، خالدون دائمون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر فى الدنيا والآخرة ، وتتلقاهم الملائكة بالبشرى بالوصول ، هذا يومكم الذي كنتم توعدون ، وهو يوم ملاقاة الحبيب والعكوف فى حضرة القريب ، عند مليك مقتدر. منحنا اللّه من ذلك الحظ الأوفر بمنّه وكرمه.

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الفجر.

ثم ذكر أوصاف ذلك اليوم ، فقال :

[سورة الأنبياء (٢١) : آية ١٠٤]

يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (١٠٤)

قلت : «يوم» : ظرف لاذكر ، أو لقوله : «لا يحزنهم الفزع» ، أو لتتلقاهم. والسجل : الصحيفة ، والكتاب : مصدر ، و«كما بدأنا» : منصوب بمضمر ، يفسره ما بعده ، و«ما» : موصولة.

يقول الحق جل جلاله : واذكر يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ وذلك يوم الحشر والناس فى الموقف ، فتجمع وتكوّر وتطوى كَطَيِّ السِّجِلِّ الصحيفة لكتاب أي : لأجل الكتابة فيها لأن الكاتب يطوى الصحيفة على اثنين ليكتب فيها. فاللام للتعليل ، أو بمعنى «على» ، أي : كطى الصحيفة على الكتابة التي فيها ، لتصان ، وقرأ أبو جعفر : «تطوى» بالبناء للمفعول. وذلك بمحو رسومها وتكوير نجومها وشمسها

وقمرها. وأصل الطى : الدرج ، الذي هو ضد النشر. وقرأ الأخوان وحفص : (لِلْكُتُبِ) بالجمع ، أي : للمكتوبات ، أي : كطى الصحيفة لأجل المعاني الكثيرة التي تكتب فيها ، أو كطيها عليها لتصان.
فالكتاب أصله مصدر ، كالبناء ، ثم يوقع على المكتوب. وقيل :
السجل : ملك يطوى كتب ابن آدم ، إذا رفعت إليه ، فالكتاب ، على هذا ، اسم للصحيفة المكتوب فيها ، والطى مضاف إلى الفاعل ، وعلى الأول : إلى المفعول.
كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ أي : نعيد ما خلقنا حين نبعثهم ، كما بدأناهم أول مرة ، فالتنوين فى «خلق» مثله فى قولك : أول رجل جاءنى ، تريد أول الرجال. والتقدير : كما بدأنا أول الخلائق ، نعيدهم حفاة عراة غرلا.
قال صلى اللّه عليه وسلم : «إنّكم تحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا. وأول من يكسى إبراهيم خليل اللّه»»
، أي : لأنه جرد فى ذات اللّه ، فقالت عائشة – رضى اللّه عنها – : واسوءتاه! فلا يحتشم الناس بعضهم من بعض؟ فقال : «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه» «٢». ثم قرأ – عليه الصلاة والسلام – : كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ.

---

(١) أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب قول اللّه تعالى : «واتخذ اللّه إبراهيم خليلا») ومسلم فى (الجنة وصفه نعيمها ، باب فناء الدنيا) ، عن ابن عباس رضي اللّه عنه. ، [.....]
(٢) هذا ليس من الحديث السابق. بل هو حديث آخر ، أخرجه مسلم فى الموضع السابق ، عن السيدة عائشة ، بلفظ : «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، قلت : يا رسول اللّه النساء والرجال جميعا ، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال : «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

كما بدأناه من الماء نعيده كيوم ولدته أمه. قلت : قد استدل بعضهم ، بظاهر الآية والحديث ، أن أهل الجنة ليس لهم أسنان ، ولا دليل فيه لأن المقصود من الآية : الاستدلال على كمال قدرته تعالى ، وعلى البعث الذي تنكره الكفرة ، لا بيان الهيئة ، وعدم وجودها نقصان ، ولا نقص فى الجنة.
ثم أكد الإعادة بقوله : وَعْداً عَلَيْنا أي : نعيده وعدا ، فهو مصدر مؤكد لغير فعله بل لما فى «نعيده» من معنى العدة ، أي : وعدنا ذلك وعدا واجبا علينا إنجازه لأنا لا نخلف الميعاد ، إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ لما ذكرنا لا محالة ، فاستعدوا له ، وقدّموا صالح الأعمال للخلاص من هذه الأهوال. وباللّه التوفيق.

الإشارة : إذا أشرقت على القلب شموس العرفان ، انطوت عن مشهده وجود الأكوان ، وأفضى إلى فضاء العيان ، فلا سماء تظله ولا أرض تحمله ، وفى ذلك يقول الششترى رضى اللّه عنه :

لقد تجلى ما كان مخبى والكون كلّ طويت طى

وهذا غاية من سبقت له من اللّه الحسنى ، فأشرقت عليه أنوار التوجه فى البداية ، وأنوار المواجهة فى النهاية ، فزاحت عنه الأكوان ، وفاضت عليه بحار أسرار العرفان ، فصار يتصرف بهمته فى الوجود بأسره ، كما قال تعالى :

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ١٠٥ الى ١٠٦]

وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ (١٠٦)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ كتاب داود عليه السّلام ، مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ : التوراة ، أو اللوح المحفوظ ، أَنَّ الْأَرْضَ أي : جنس الأرض ، يعنى : مشارقها ومغاربها ، يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ وهم أمة نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ففى الآية ثناء عليهم وبشارة لهم ، وإخبار بظهور غيب تحقق ظهوره فى الوجود من فتح اللّه على هذه الأمة مشارق الأرض ومغاربها ، كقوله : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ «١». وقال القشيري : على قوله : عِبادِيَ الصَّالِحُونَ : هم أمة محمد – عليه الصلاة والسلام – وهم بجملتهم قوم صالحون لنعمته ، وهم المطيعون ، وآخرون صالحون لرحمته وهم العاصون. هـ.

قال فى الحاشية الفاسية : والظاهر أن حديث : «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر اللّه» ، مفسر للآية ، وموافق لوعدها. قيل : وهذه الطائفة مفترقة من أنواع المؤمنين ، ممن فيه عائدة على الدين ونفع له من شجعان مقاتلين ، وفقهاء ومحدّثين ، وزهاد وصالحين ، وناهين وآمرين

---

(١) من الآية ٥٥ من سورة النور.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٠٥

بالمعروف. هـ. قلت : وعارفين متمكنين ، علماء باللّه ربانيين. ثم قال : وغير ذلك من أنواع أهل الحسنى ، ولا يلزم اجتماعهم ، بل يكونون متفرقين فى أقطار. هـ. قلت : وفيه نظر لأن مراد الآية الأمة كلها ، كما قال القشيري ، ومراد الحديث بعضها ، فلا يليق أن يكون تفسيرا لها ، وهى أعم منه. وقيل

: المراد بالأرض : أرض الشام ، وقيل :
أرض الجنة.
ثم قال تعالى : إِنَّ فِي هذا أي : ما ذكر فى السورة الكريمة من الأخبار والمواعظ البالغة ، والوعد والوعيد ، والبراهين القاطعة الدالة على التوحيد وصحة النبوة ، لَبَلاغاً أي : كفاية ، أو سبب بلوغ إلى البغية ، من رضوان اللّه تعالى ، ومحبته ، وجزيل ثوابه ، فمن تبع القرآن وعمل به ، وصل إلى ما يرجو من الثواب العظيم ، فالقرآن زاد الجنة كبلاغ المسافر ، فهو بلاغ وزاد لِقَوْمٍ عابِدِينَ أي : لقوم همتهم العبادة دون العادة. وباللّه التوفيق.
الإشارة : قد أورث اللّه أرضه وبلاده لأهل التوجه إلى اللّه ، والإقبال عليه. فوراثة كل أحد على قدر توجهه وإقباله على مولاه. والمراد بالوراثة : التصرف بالهمة ونفوذ الكلمة فى صلاح الدين وهداية المخلوقين ، وهم على قسمين :
قسم يتصرف فى ظواهر الخلق بإصلاح ظواهرهم ، وهم العلماء الأتقياء ، فهم يبلغون الشرائع والأحكام ، لإصلاح نظام الإسلام ، وقد تقدم تفصيلهم فى سورة التوبة عند قوله تعالى : فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ... «١» إلخ ، وقسم يتصرفون فى بواطنهم وهم أهل التصرف العارفون باللّه ، على اختلاف مراتبهم من غوث وأقطاب وأوتاد ، وأبدال ، ونجباء ، ونقباء ، وصالحين ، وشيوخ مربين ، فهم يعالجون بواطن الناس بالتربية بالهمة والحال والمقال ، حتى يتطهر من يصحبهم من الرذائل ، ويتحلي بأنواع الفضائل ، فيتأهل لحضرة القدس ومحل الأنس. وهؤلاء حازوا الوراثة النبوية كلها ، كما قال ابن البنا فى مباحثه :
تبعه العالم فى الأقوال والعابد الزاهد فى الأفعال
وبهما الصوفي فى السباق لكنه قد زاد بالأخلاق.
ثم ختم ذكر الأنبياء – عليهم السلام – بذكر سيد الوجود ، وعين الرحمة ، ومنبع الكرم والجود ، وهو نبينا – عليه الصلاة والسلام – فقال :
[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ١٠٧ الى ١١٢]
وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (١١١)
قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (١١٢)

---

(١) الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

قلت : رَحْمَةً : مفعول لأجله ، أو حال.

يقول الحق جل جلاله : وَما أَرْسَلْناكَ يا محمد إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ أي : ما أرسلناك بما ذكر من الشرائع والأحكام ، وغير ذلك مما هو مناط سعادة الدارين ، لعلة من العلل ، إلا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة. أو ما أرسلناك فى حال من الأحوال ، إلا حال كونك رحمة لهم ، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ، ومنشأ لانتظام مصالحهم فى النشأتين ، ومن لم يضرب له فى هذه المغانم بسهم فإنما أوتى من قبل نفسه ، حيث فرط فى اتباعه ، وقيل : إنه رحمة حتى فى حق الكفار فى الدنيا بتأخير عذاب الاستئصال ، والأمن من المسخ والخسف والغرق ، حسبما نطق به قوله تعالى : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ «١».

قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ أي : ما يوحى إلىّ إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد لأنه المقصود الأصلى من البعثة ، وأما ما عداه فإنما هو من الأحكام المتفرعة عليه ، لا يصح بدونه. و«إنما» الأولى : لقصر الحكم على الشيء ، كقولك : إنما يقوم زيد ، والثانية : لقصر الشيء على الحكم ، كقولك : إنما زيد قائم ، أي : إنما يوحى إلىّ وحدي أنما إلهكم واحد. فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أي : مخلصون العبادة للّه وحده ، أو منقادون لما أمركم به من الإسلام؟ والاستفهام بمعنى الأمر ، أي : أسلموا. فَإِنْ تَوَلَّوْا عن الإسلام ، ولم يلتفتوا إلى ما يوجبه من استماع الوحى ، فَقُلْ آذَنْتُكُمْ أي : أعلمتكم ما أمرت به ، أو بمحاربتى لكم ومخالفتى لدينكم ، لتكونوا عَلى سَواءٍ ، أو كائنين على سواء فى الإعلام به ، لم أطوه عن أحد منكم ، أو مستوين أنا وأنتم فى العلم بما أعلمتكم به من الشرائع ، لم أظهر بعضكم على شيء كتمته عن غيره. وفيه دليل بطلان مذهب الباطنية. قيل : وهذه من فصاحة القرآن وبلاغته. وَإِنْ أَدْرِي أي : ما أدرى أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ من البعث والحساب متى يكون لأن اللّه تعالى لم يطلعنى عليه ، ولكن أنبأنى أنه آت لا محالة ، وكل آت قريب. ولذلك قال : وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ «٢» ، أو : لا أدرى متى يحل بكم العذاب ، أو ما توعدون من إظهار المسلمين وظهور الدين ، إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ أي : إنه عالم بكل شيء ، يعلم ما تجهرون به من الطعن فى الإسلام وتكذيب الآيات ، وما تكتمونه فى صدوركم من الأحقاد للمسلمين ، فيجازيكم عليه نقيرا وقطميرا. وَإِنْ أَدْرِي

---

(١) الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

(٢) من الآية ٩٧ من سورة الأنبياء.

لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ أي : ما أدرى لعل تأخير العذاب عنكم فى الدنيا امتحان لكم لينظر كيف تعملون ، أو استدراج لكم ، وزيادة فى افتتانكم ، وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ أي : تمتع لكم إلى حين موتكم ليكون حجة عليكم ، أو إلى أجل مقدر تقتضيه المشيئة المبنية على الحكم البالغة.

قالَ «١» رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ أي : اقض بيننا وبين كفار مكة بالعدل ، المقتضى لتعجيل العذاب. فهو كقول شعيب عليه السّلام : رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ «٢» ، أو بما يحق عليهم من العذاب ، واشدد عليهم ، كقوله صلى اللّه عليه وسلم :

«اللّهمّ اشدد وطأتك على مضر» «٣» ، وقد استجيب دعاؤه – عليه الصلاة والسلام – ، حيث عذبوا ببدر أىّ تعذيب. وقرأ الكسائي وحفص : قالَ حكاية لدعائه صلى اللّه عليه وسلم. ثم استعان باللّه على إبطال ما كانوا يؤملون من النصرة لهم ، وتكذيبهم فى ذلك ، فقال : وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ كثير الرحمة على عباده ، الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ من كون الغلبة لكم. كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه ، وكانوا يطمعون أن تكون الشوكة والغلبة لهم ، فكذب اللّه ظنونهم ، وخيّب آمالهم ، وغيّر أحوالهم ، ونصر رسوله صلى اللّه عليه وسلم عليهم ، وخذلهم لكفرهم. وباللّه التوفيق.

الإشارة : قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه : الأنبياء – عليهم السلام – خلقوا من الرحمة ، ونبينا صلى اللّه عليه وسلم هو عين الرحمة ، قال تعالى : وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ. هـ. وقال أيضا : الأنبياء – عليهم السلام – لأممهم صدقة ، ونبينا صلى اللّه عليه وسلم لنا هدية. قال صلى اللّه عليه وسلم : «وأنا النعمة المهداة» ، فالصدقة للفقراء ، والهدية للكبراء. ثم إن غاية الرحمة : الوصول إلى التوحيد الخاص لأنه سبب الزلفى من اللّه والاختصاص ، ولذلك أمره به ، بعد أن جعله رحمة ، فقال :

قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ ... إلخ. فمن أعرض عنه فقد أوذن بالبعد والطرد. ولعل تأخير العقوبة عنه ، فى الدنيا ، استدراج ومتاع إلى حين.

ثم إن الصارف عن الدخول إلى التوحيد الخاص – وهو توحيد العيان – : القواطع الأربع : النفس ، والشيطان ، والدنيا ، والهوى. زاد بعضهم : الناس – أي : عوام الناس ، فإذا حكم اللّه بين العبد وبين هذه القواطع ، وصل إلى صريح المعرفة. قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ أي : احكم بينى وبين عدوى بحكمك الحق ، حتى تدفعه عنى وتدمغه ، وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ به عَلى ما تَصِفُونَ من التعويق والتشغيب. واللّه المستعان ، وعليه أتوكل ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم. وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) قرأ حفص (قال) بصيغة الماضي – وقرأ الباقون (قل) ، انظر الإتحاف (٢/ ٢٦٨).

(٢) من الآية ٨٩ من سورة الأعراف.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري فى (الدعوات ، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة) ، ومسلم فى (المساجد ، باب استحباب القنوت فى جميع الصلاة) عن أبى هريرة رضى اللّه عنه.

(٥٠٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٠٨

(٥٠٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٠٩

سورة الحجّ

مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة ، وهى : هذانِ خَصْمانِ ... إلى : صِراطِ الْحَمِيدِ. وهى ثمان وسبعون آية.

ومناسبتها لما قبلها : قوله : وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ «١» من قيام الساعة ، وهى التي خوّف بها فى قوله :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)

قلت : زلزلة : مصدر مضاف إلى فاعله على المجاز ، أو إلى الظرف ، وهى الساعة. و(يَوْمَ) : منصوب بتذهل.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، الخطاب عام لجميع المكلفين ممن وجد عند النزول ، وينخرط فى سلكهم من سيوجد إلى يوم القيامة. ولفظ «الناس» يشمل الذكور والإناث. والمأمور به مطلق التقوى ، الذي هو امتثال الأوامر واجتناب النواهي ظاهرا وباطنا ، والتعرض لعنوان الربوبية ، مع إضافتها لضمير المخاطبين لتأكيد الأمر ، وتأكيد إيجاب الامتثال به لأن الربوبية دائمة ، والعبودية واجبة بدوامها ، أي : احذروا عقوبة مالك أموركم ومربيكم.

ثم علل وجوب التقوى بذكر بعض عقوبته الهائلة عند قيام الساعة ، فقال : إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ، فإن ملاحظة عظمها وهولها وفظاعة ما هى من مبادئه ومقدماته ، مما يوجب مزيد اعتناء بملابسة

التقوى والتدرع بها. والزلزلة : التحرك الشديد والإزعاج العنيف ، بطريق التكرير ، بحيث تزيل الأشياء من مقارها ، وتخرجها عن مراكزها ، وهى الزلزلة المذكورة فى قوله تعالى : إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها الآية «٢».

واختلف فى هذه الزلزلة وما ذكر بعدها ، هل هى قيام الساعة عند نفخة الصعق ، أو بعدها عند الحشر؟ فقال الحسن رضى اللّه عنه : إنها تكون يوم القيامة. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : زلزلة الساعة : قيامها. وعن علقمة والشعبي : أنها قبل طلوع الشمس من مغربها ، فإضافتها إلى الساعة لكونها من أشراطها. قال الكواشي : وهذه الزلزلة تكون قبل قيام الساعة

---

(١) من الآية ١٠٩ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية الأولى من سورة الزلزلة.

من أشراطها. قالوا : ومن أشراط الساعة ، قبل قيامها ، ست آيات : بينما الناس فى أسواقهم ، إذ ذهب ضوء الشمس ، ثم تناثرت النجوم ، ثم وقعت الجبال على وجه الأرض ، فتحركت واضطربت الأرض ، ففزع الإنس والجن ، وماج بعض فى بعض خوفا ودهشا ، فقالت الجن للإنس : نحن نأتيكم بالخبر ، فذهبوا ، فرأوا البحار تأجّج نارا ، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض إلى الأرض السابعة ، ثم جاءتهم الريح فماتوا. هـ. وانظر ابن عطية. قاله المحشى.

والتحقيق : ما قدمناه عند قوله : وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ «١» ، وأنّ الريح إنما تقبض أرواح المؤمنين ، وهذه الزلزلة إنما تقع عند نفخة الصعق. واللّه تعالى أعلم. وفى التعبير ب (شىء عظيم) إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها ، والعبارة ضيقة ، لا تحيط بها إلا على وجه الإبهام.

ثم هوّل شأنها ، فقال : يَوْمَ تَرَوْنَها

أي : الزلزلة ، وتشاهدون هول مطلعها ، تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ

أي :

مباشرة للإرضاع ، عَمَّا أَرْضَعَتْ

أي : تغفل وتغيب ، من شدة الدهش عما هى بصدد إرضاعه من طفلها ، الذي ألقمته ثديها. فالمرضعة ، بالتاء ، هى المباشرة الإرضاع بالفعل ، والمرضع – بلا تاء – لمن شأنها ترضع ، ولو لم تباشر الإرضاع. والتعبير عنه «بما» ، دون «من» لتأكيد الذهول ، كأنها من شدة الهول لا تدرى من هو

بخصوصه ، وقيل : «ما» مصدرية ، أي : تذهل عن إرضاعها. والأول أدل على شدة الهول وكمال الانزعاج.

وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها

أي : تلقى جنينها من غير تمام ، كما أن المرضعة تذهل عن ولدها قبل الفطام. وهذا على قول من يقول : إنها قبل نفخة الصعق ظاهر ، وأما على من يقول ، إنها بعد قيام الساعة ، فقد قيل : إنه تمثيل لتهويل الأمر وشدته. وَتَرَى النَّاسَ سُكارى

أي : وترى أيها الناظر الناس سكارى ، على التشبيه ، من شدة الهول ، كأنهم سكارى لمّا شاهدوا بساط العزة وسلطنة القهرية ، حتى قال كلّ نبى : نفسى نفسى. وَما هُمْ بِسُكارى

على التحقيق ، وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ

، فخوف عذابه هو الذي أذهل عقولهم ، وطيّر تمييزهم ، وردهم فى حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه. وعن الحسن : وترى الناس سكارى من الخوف ، وما هم بسكارى من الشراب. وقرئ : (سُكارى)

كعطشى. والمعنى واحد ، غير أن فعلى يختص بما فيه آفة ، كجرحى وقتلى ومرضى. والله تعالى أعلم.

الإشارة : يا أيها الناس اتقوا ربكم وتوجهوا إليه بكليتكم ، حتى تشرق على قلوبكم أنوار ربكم ، فتزلزل أرض نفوسكم ، وتدك جبال عقولكم ، عند سطوع شمس العرفان ، والاستشراف على مقام الإحسان. إن زلزلة الساعة ، التي تشرف فيها على أسرار الذات ، شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، لو كانت أنثى ،

---

(١) الآية ٩٧ من سورة الأنبياء.

وتضع كل ذات حمل حملها كذلك ، أو تضع كل ذات حمل أثقالها بالغيبة فى ربها ، وترى الناس سكارى من خمر المحبة ، وما هم بسكارى من شراب الدّوالى «١» ، لكن من خمر الكبير المتعالي ، كما قال الششترى فى الخمرة الأزلية – بعد كلام :

لا شراب الدّوالى إنّها أرضيّة خمرها دون خمرى ، خمرتى أزليّة.

ولكن عذاب اللّه – الذي قدمه قبل دخول جنته المعنوية وحفت به ، وهى جنه المعارف – شديد ، ولكنه يحلو فى جانب ما ينال بعده ، كما قال الشاعر :

والنّفس عزّت ، ولكن فيك أبذلها والذّل مرّ ، ولكن فى رضاك حلا
يا من عذابى عذب فى محبته لا أشتكى منك لا صدا ولا مللا.
ثم ذكر حال من أنكرها ، «٢» ولم يتأهب للقائها ، فقال :
[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٣ الى ٤]
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (٤)
قلت : (وَ مِنَ النَّاسِ) : خبر ، و(من يجادل) : مبتدأ ، و(بِغَيْرِ عِلْمٍ) : حال من ضمير «يجادل» ، و(أَنَّهُ) : نائب فاعل (كُتِبَ) ، أي : كتب عليه إضلال من تولاه ، و(فأنه) : من فتح : عنده خبر عن مبتدأ مضمر ، أي : فشأنه أن يضله ، والجملة جواب «من» ، إن جعلتها شرطية ، وخبر ، إن جعلتها موصولة متضمنة لمعنى الشرط ، ومن كسر : فخبر ، أو جواب «من».
يقول الحق جل جلاله : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ ويخاصم فِي اللَّهِ أي : فى شأنه ، ويقول مالا يليق بجلال كبريائه وكمال قدرته ، ملابسا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، بل بجهل عظيم حمله على ما فعل. نزلت فى النضر ابن الحارث ، وكان جدلا ، يقول : الملائكة بنات اللّه ، والقرآن أساطير الأولين ، ولا بعث بعد الموت ، واللّه غير قادر على إحياء من بلى وصار رميما «٣». وهى عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين ، وكل من يخاصم فى الدين بالهوى. وَيَتَّبِعُ فى ذلك كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ عات متمرد ، مستمر فى الشر. قال الزجاج : المريد والمارد : المرتفع الأملس ، أي : الذي لا يتعلق به شيء من الخير ، والمراد : إما رؤساء الكفرة الذين يدعونهم إلى الكفر ، وإما إبليس وجنوده.

---

(١) أي : العنب. وراجع التعليق على إشارة الآية ٢١٩ من سورة البقرة.
(٢) أي : الساعة.
(٣) ذكره البغوي فى تفسيره (٥/ ٣٦٥). [.....]

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥١٢
ثم وصف الشيطان المريد بقوله : كُتِبَ عَلَيْهِ أي : قضى على ذلك الشيطان أَنَّهُ أي : الأمر والشأن مَنْ تَوَلَّاهُ أي : اتخذه وليّا وتبعه ، فَأَنَّهُ أي : الشيطان يُضِلُّهُ عن سواء السبيل ، وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ أي : النار. والعياذ بالله.
الإشارة : ومن الناس من تنكبت عنه سابقة الخصوصية ، فجعل يجادل فى طريق اللّه ، وينكر على

المتوجهين إلى الله ، إذا خرقوا عوائد أنفسهم ، وسدّ الباب فى وجوه عباد اللّه ، فيقول : انقطعت التربية النبوية ، وذلك منه بلا علم تحقيق ولا حجة ولا برهان ، وإنما يتبع فى ذلك كلّ شيطان مريد ، سوّل له ذلك وتبعه فيه. كتب عليه أنه من تولاه ، وتبعه فى ذلك ، فأنه يضله عن طريق الخصوص ، الذين فازوا بمشاهدة المحبوب ، ويهديه إلى عذاب السعير ، وهو غم الحجاب والحصر فى سجن الأكوان ، وفى أسر نفسه وهيكل ذاته ، عائذا بالله من ذلك.

ثم برهن على قيام الساعة ، التي خوّف منها ، ورد من يجادل فيها ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٥ الى ٧]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ أي : إن شككتم فى أمر البعث ، فمزيل ريبكم أن تنظروا فى بدء خلقكم ، وقد كنتم فى الابتداء ترابا وماء ، وليس سبب إنكاركم البعث إلا هذا ، وهو صيرورة الخلق ترابا وماء ، فكما بدأكم منه يعيدكم منه ، كما قال تعالى : فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ أي : أباكم مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ خلقناكم مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ أي : قطعة دم جامدة ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ أي : لحمة صغيرة ، بقدر ما يمضغ ، مُخَلَّقَةٍ أي : مصورة الخلقة ، وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ أي : لم يتبين خلقها وصورتها بعد.

(٥١٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥١٣

والمراد : تفصيل حال المضغة من كونها أولا مضغة ، لم يظهر فيها شيء من الأعضاء ، ثم ظهرت بعد ذلك شيئا فشيئا. وكان مقتضى الترتيب أن يقدم غير المخلقة على المخلقة ، وإنما أخرت عنها لأنها عدم الملكة ، والملكة أشرف من العدم.

وإنما فعلنا ذلك لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ، بهذا التدريج ، كمال قدرتنا وحكمتنا لأن من قدر على خلق البشر من تراب أولا ، ثم من نطفة ثانيا ، وقدر على أن يجعل النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاما ، قدر على إعادة ما بدأ ، بل هو أهون فى القياس وَنُقِرُّ أي : نثبت فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ ثبوته إِلى أَجَلٍ

مُسَمًّى : وقت الولادة ، ومالم نشأ ثبوته أسقطته الأرحام. ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ من الرحم طِفْلًا ، أي : حال كونكم أطفالا.

والإفراد باعتبار كل واحد منهم ، أو بإرادة الجنس ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ أي : ثم نربيكم لتبلغوا كمال عقلكم وقوتكم. والأشد : من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل له واحد. ووقته : قيل : ثلاثون سنة ، وقيل : أربعون.

وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى قبل بلوغ الأشد أو بعده ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ أي : أخسه ، وهو الهرم والخرف ، لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً أي : لكيلا يعلم شيئا من بعد ما كان يعلمه من العلوم ، مبالغة فى انتقاص علمه ، وانتكاس حاله ، أي : ليعود إلى : ما كان عليه فى أوان الطفولية ، من ضعف البنية ، وسخافة العقل ، وقلة الفهم ، فينسى ما علمه ، وينكر ما عرفه ، ويعجز عما قدر عليه. قال ابن عباس : من قرأ القرآن ، وعمل به ، لا يلحقه أرذل العمر. ثم ذكر دليلا آخر على البعث ، فقال : وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً : ميته يابسة ، فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ تحركت بالنبات وَرَبَتْ انتفخت وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ : صنف بَهِيجٍ : حسن رائق يسر ناظره.

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ أي : ذلك الذي ذكرنا من خلق بنى آدم ، وإحياء الأرض ، مع ما فى تضاعيف ذلك من أصناف الحكم ، حاصل بهذا ، وهو أن اللّه هو الحق ، أي : الثابت الوجود. هكذا للزمخشرى ومن تبعه ، وقال ابن جزى : والظاهر : أن الباء ليسست سببية ، كما قال الزمخشري ، وهو أيضا مقتضى تفسير ابن عطية ، وإنما يقدر لها فعل يتعلق به ويقتضيه المعنى ، وذلك أن يكون التقدير : ذلك الذي تقدم من خلق الإنسان والنبات ، شاهد بأن الله هو الحق ، وبأنه يحيى الموتى ، وبأن الساعة آتية ، فيصح عطف وَأَنَّ السَّاعَةَ على ما قبله ، بهذا التقدير ، وتكون هذه الأشياء المذكورة ، بعد قوله : (ذلك) ، مما استدل عليه بخلقة الإنسان والنبات. هـ.

قال المحشى الفاسى : ويرد عليه : أن تقديره عاملا خاصا يمنع حذفه ، وإنما يحذف إذا كان كونا مطلقا ، فلا يقال : زيد فى الدار ، وتريد ضاحك مثلا ، إلا أن يقال فى الآية : دل عليه السياق ، فكأنه مذكور. وعند الكواشي :

(٥١٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥١٤

ليعلموا بأن الله هو الحق. وقال القرطبي : قوله : ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، لمّا ذكر افتقار الموجودات إليه ، وتسخيرها على وفق اقتداره واختياره ، قال بعد ذلك : ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، نبه بهذا على أن كل ما سواه ، وإن كان موجودا فإنه لا حقيقة له من نفسه لأنه مسخر ومصرف ، والحق الحقيقي هو

الموجود المطلق ، الغنى المطلق ، وإنّ وجود كل موجود من وجوب وجوده ، ولهذا قال فى آخر السورة : وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ «١» ، والحق هو الوجود الثابت ، الذي لا يزول ولا يتغير ، وهو اللّه تعالى. ثم قال عن الزجاج : (ذلك) فى موضع رفع ، أي : الأمر ما وصف لكم وبيّن لأن اللّه تعالى هو الحق ، ويجوز كونه فى موضع نصب ، أي : فعل ذلك بأن اللّه هو الحق ، قادر على ما أراد. هـ.

وذلك أيضا شاهد بأنه يُحْيِيَ الْمَوْتى كما أحيا الأرض ، مرة بعد أخرى ، وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أي : مبالغ فى القدرة ، وإلّا لما أوجد هذه الموجودات الفائتة الحصر. وتخصيص إحياء الموتى بالذكر ، مع كونه من جملة الأشياء المقدور عليها للتصريح بما فيه النزاع ، وللطعن فى نحور المنكرين. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ : قادمة عليكم ، لا رَيْبَ فِيها ، وإيثار اسم الفاعل على الفعل للدلالة على تحقق إتيانها وتقريره البتّة. ومعنى نفى الريب عنها : أنها ، فى ظهور أمرها ووضوح دلائلها ، بحيث ليس فيها مظنة الريب ، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ لأنه تعالى حكم بذلك ووعد به ، وهو لا يخلف الميعاد ، والتعبير ب «من فى القبور» : خرج مخرج الغالب ، وإلّا فهو يبعث كل من يموت. واللّه تعالى أعلم وأحكم.

الإشارة : يا أيها الناس المنكرون لوجود التربية النبوية ، وظهور أهل الخصوصية فى زمانهم ، الذين يحيى اللّه الأرواح الميتة ، بالجهل والغفلة ، على أيديهم إن كنتم فى ريب من هذا البعث فانظروا إلى أصل نشأتكم وتنقلات أطواركم ، فمن فعل ذلك وقدر عليه ، قدر أن يحيى النفوس الميتة بالغفلة فى كل زمان. وفى الحكم : «من استغرب أن ينقذه اللّه من شهوته ، وأن يخرجه من وجود غفلته ، فقد استعجز القدرة الإلهية ، وكان اللّه على كل شىء مقتدرا». وجرت عادته أنه لا يحييها فى الغالب إلا على أيدى أهل الخصوصية. وترى أرض النفوس هامدة ميتة بالغفلة ، فإذا أنزلنا عليها ماء الحياة ، وهى الواردات الإلهية ، وأسقيناها الخمرة القدسية ، اهتزت فرحا باللّه ، وربت ، وارتفعت بالعلم باللّه ، وأنبتت من أصناف العلوم والحكم ، ما تبهج منه العقول ، ذلك شاهد بوحدانية الحق ، وأن ما سواه باطل. وباللّه التوفيق.

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة الحج.

ثم ذكر نوعا آخر من أهل الإنكار والجدل ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٨ الى ١٠]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (٨) ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ (٩) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠)

يقول الحق جل جلاله : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ أي : فى شأنه ، فيصفه بغير ما هو أهله ، وهو أبو جهل ، كما قال ابن عباس رضى اللّه عنه ، وقيل : هو من يتصدى لإضلال الناس ، كائنا من كان. حال كونه بِغَيْرِ عِلْمٍ ، بل بجهل وهوىّ. والمراد بالعلم : الضروري ، كما أن المراد بالهدى فى قوله : وَلا هُدىً : هو الاستدلال والنظر الصحيح ، الهادي إلى المعرفة. وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ أي : وحي يستند إليه ، والحجة إنما تقوم بأحد هذه الثلاثة ، أي : يجادل فى شأنه تعالى ، من غير تمسك بمقدمة ضرورية ، ولا بحجة نظرية ، ولا ببرهان سمعى.

حال كونه ثانِيَ عِطْفِهِ أي : لاويا عنقه عن طاعة اللّه كبرا وعتوا ، أو عاطفا بجانبه ، وطاويا كشحه «١» ، معرضا متكبرا ، فثنى العطف كناية عن التكبر. وقرأ الحسن بفتح العين ، أي : مانعا تعطفه على المساكين قسوة. فعل ذلك الجدال لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي : ليضل الناس عن سبيل اللّه فإنّ غرضه بالمجادلة إضلال المؤمنين ، أو جميع الناس ، وقرأ الملكي وأبو عمر : بفتح الياء ، أي : ليصير ضالا عن سبيل اللّه. وجعل ضلاله غاية لجداله ، من حيث إن المراد به الضلال المبين ، الذي لا هداية بعده ، مع تمكنه منها قبل ذلك ، أي : ليرسخ فى الضلالة أىّ رسوخ ، لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ : هوان وذل ، وهو القتل يوم بدر ، وهو بيان نتيجة ما سلكه من الطريقة ، أي : يثبت له ، بسبب ما فعل ، خزى وصغار ، وهو ما أصابه ببدر ، وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ أي : النار المحرقة.

ذلِكَ أي : ما ذكر من العذاب الدنيوي والأخروى. وما فى الإشارة من البعد للإيذان بكونه فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة ، أي : ذلك العذاب الهائل بِما قَدَّمَتْ يَداكَ أي : بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي. وإسناده إلى يديه لأن الاكتساب فى الغالب بهما. والالتفات لتأكيد الوعيد وتشديد التهديد. أو يقال له يوم القيامة : ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ، فلا يأخذ أحدا بغير ذنب ولا بذنب غيره. وهو خبر عن مضمر ، أي : والأمر أنّ اللّه ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب ، وأما عطفه على «بما» فغير سديد ، ولفظ المبالغة لاقترانه بلفظ الجمع فى العبيد ، ولأن قليل الظلم منه ، مع علمه بقبحه واستغنائه عنه ، كالكثير منا. قاله النسفي.

---

(١) الكشح : الخصر.

وقيل : «ظلام» : بمعنى : ذى ظلم ، فتكون الصيغة للنّسب. والتعبير عن ذلك بنفي الظلم ، مع أن تعذيبهم بغير ذنب ، ليس بظلم قطعا ، على ما تقرر فى مذهب أهل السنة ، فضلا عن كونه ظلما بالغا لأن الحق تعالى إنما يظهر لنا كمال العدل ، وغاية التنزيه ، وإن كان فى نفس الأمر جائز أن يعذب عباده بلا ذنب ، ولا يسمى ظلما لأنه تصرف فى ملكه ، لكنه تعالى لم يظهر لنا فى عالم الشهادة إلا كمال العدل. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من يخاصم فى طريق القوم ، وينفيها عن أهلها ، إما أن يكون تقليدا ، وهو ما تقدم ، أو يكون تكبرا وعتوا ، بحيث لم يرض أن يحط رأسه لهم ، وهو ما أشير إليه هنا. ولا شك أن المتكبر لا بد أن يلحقه ذل ، ولو عند الموت. ويوم القيامة يحشر صاغرا كالذر ، كما فى الحديث. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر حال المذبذبين ، بعد ذكر حال المجادلين المصمّمين ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ١١ الى ١٣]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)

قلت : (لَمَنْ ضَرُّهُ) : قال ابن عطية : جرى فيه إشكال وهو دخول اللام على «من» ، وهو فى الظاهر مفعول ، واللام لا تدخل على المفعول. وأجيب بثلاثة أوجه أحدها : أن اللام متقدمة على موضعها ، والأصل أن يقال :

يدعو من لضرّه أقرب ، فموضعها الدخول على المبتدأ ، وثانيها : أنّ «يدعو» تأكيد ليدعو الأول ، وتم الكلام عنده ، ثم ابتدأ قوله : (لَمَنْ ضَرُّهُ) ، فمن مبتدأ ، وخبره : (لَبِئْسَ الْمَوْلى) – قلت : وإياه اعتمد الهبطى فى وقفه ، وثالثها : أن معنى «يدعو» : يقول يوم القيامة هذا الكلام ، إذا رأى مضرة الأصنام ، فدخلت اللام على مبتدأ فى أول الكلام. هـ.

قلت : والأقرب ما قاله الزجاج ، وهو : أن مفعول (يدعو) محذوف ، ويكون ضميرا يعود على الضلال ، وجملة :

(يَدْعُوا) : حال ، والمعنى : ذلك هو الضلال البعيد يدعوه ، أي : حال كونه مدعوا له ، ويكون قوله : (لَمَنْ ضَرُّهُ) مستأنفا مبتدأ ، خبره : «لبئس المولى». نقله المحشى. وحكم المحلى بزيادة اللام.

يقول الحق جل جلاله : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ أي : على طرف من الدين لاثبات له فيه ، كالذى ينحرف إلى طرف الجيش ، فإن أحس بظفر قرّ ، وإلا فر. وفى البخاري عن ابن عباس : «كان الرجل

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥١٧

يقدم المدينة ، فإن ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله ، قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله ، قال :

هذا الدين سوء» «١». وكأن الحق تعالى سلك فى الآية مسلك التدلي ، بدأ بالكافر المصمم ، يجادل جدالا مجملا ، يتبع فيه كل شيطان مريد. والثاني : مقلد مجادل ، من غير دليل ولا برهان ، والثالث : كافر أسلم إسلاما ضعيفا. ثم قابل الأقسام الثلاثة بضدهم ، بقوله : إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا ... الآية.

ثم كمّل حال المذبذب بقوله : فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ أي : دنيوى من الصحة فى البدن ، والسعة فى المعيشة ، اطْمَأَنَّ بِهِ أي : ثبت على ما كان عليه ظاهرا ، لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين ، الذين لا يلويهم عنه صارف ، ولا يثنيهم عنه عاطف. وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ : بلاء فى جسده ، وضيق فى معيشته ، أو شىء يفتتن به ، من مكروه يعتريه فى بدنه أو أهله أو ماله ، انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ أي : ارتد ورجع إلى الكفر ، كأنه تنكس بوجهه إلى أسفل. أو انقلب على جهته التي كان عليها. وتقدم عن ابن عباس أنها نزلت فى أعاريب قدموا المدينة ، مهاجرين ، فكان أحدهم إذا صحّ بدنه ونتجت فرسه مهرا سريا ، وولدت امرأته غلاما سويا ، وكثر ماله وماشيته ، قال : ما أصبت ، مذ دخلت فى دينى هذا ، إلا خيرا ، واطمأن ، وإن كان الأمر خلافه ، قال : ما أصبت إلا شرّا ، وانقلب عن دينه. وعن أبى سعيد رضى اللّه عنه : أنّ يهوديا أسلم فأصابته مصائب ، وتشاءم بالإسلام ، فأتى النّبى صلى اللّه عليه وسلم فقال : أقلنى ، فقال : «إنّ الإسلام لا يقال» ، فنزلت «٢».

خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ : فقدهما ، وضيعهما بذهاب عصمته ، وحبوط عمله بالارتداد. وقرأ يعقوب : خاسر ، على الحال. ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ الواضح ، الذي لا يخفى على أحد أنه لا خسران مثله. ثم بيّن وجه خسرانه بقوله : يَدْعُوا أي : يعبد مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : متجاوزا عنه تعالى ، ما لا يَضُرُّهُ إذا لم يعبده ، وَما لا يَنْفَعُهُ إذا عبده. ذلِكَ الدعاء هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ أي : التلف البعيد عن الحق.

يَدْعُوا أي : يعبد لَمَنْ ضَرُّهُ أي : الصنم الجامد الذي ضرره أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ. وقرأ ابن مسعود : «يدعو من ضره» ، بحذف اللام. أو : ذلك هو الضلال البعيد يدعوه هذا المذبذب المنقلب على وجهه. قال ابن جزى : وهنا إشكال : وهو أنه تعالى وصف الأصنام بأنها لا تضر ولا تنفع ، ثم وصفها بأن ضررها أكثر من نفعها ، فنفى الضر ثم أثبته؟ والجواب : أن الضر المنفي أولا يراد به ما يكون من فعلها ، وهى لا تفعل شيئا ، والضر الثاني ، الذي أثبته لها ، يراد به ما يكون بسببها من العذاب وغيره. هـ. لَبِئْسَ الْمَوْلى أي : الناصر ، وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ أي : الصاحب. أو : يدعو ويصرخ يوم القيامة ، حين

يرى استضراره بالأصنام ، ولا يرى لها أثر الشفاعة ، ويقول لمن ضره أقرب من نفعه : لبئس المولى هو ولبئس العشير. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري فى (التفسير ، سورة الحج) عن ابن عباس رضى اللّه عنه.
(٢) ذكره الواحدي فى الأسباب (٣١٧) ، بدون إسناد ، عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدري.

الإشارة : ومن الناس من يعبد اللّه على حرف على طرف من الدين ، غير متمكن فيه ، فإنه أصابه خير ، وهو ما تسر به النفس من أنواع الجمال ، اطمأن به ، وإن أصابته فتنة ، وهو ما يؤلم النفس وينغص عليها مرادها وشهوتها من أنواع الجلال ، انقلب على وجهه. أو : ومن الناس من يعبد اللّه على طمع فى الجزاء الدنيوي أو الأخروى ، فإن أصابه خير فرح واطمأن به ، وإن أصابته فتنة سخط وقنط وانقلب على وجهه. أو : ومن الناس من يعبد اللّه ويسير إليه على حرف ، أي : حالة واحدة ، فإن أصابه خير كقوة ونشاط وورود حال اطمأن به وفرح ، وإن أصابته فتنة كضعف وكسل وذهاب حال ، انقلب على وجهه ، ورجع إلى العمومية ، أو وقف عن السير ، خسر الدنيا والآخرة. خسران الدنيا : ما يفوته من عز اللّه ونصره لأوليائه ، وحلاوة برد الرضا والتسليم ، ولذيذ مشاهدته. وخسران الآخرة : ما يفوته من درجة المقربين ، ودوام شهود رب العالمين. فالواجب على العبد أن يكون عبدا للّه فى جميع الحالات ، لا يختار لنفسه حالا على حال ، ولا يقف مع مقام ولا حال ، بل يتبع رياح القضاء ، ويدور معها حيث دارت ، ويسير إلى اللّه فى الضعف والقوة.

قال بعضهم : سيروا إلى اللّه عرجى ومكاسير. وفى الحكم : «إلهى قد علمت ، باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار ، أن مرادك منى أن تتعرف إلىّ فى كل شىء ، حتى لا أجهلك فى شى ء». وقال أيضا : «لا تطلبن بقاء الواردات ، بعد أن بسطت أنوارها ، وأودعت أسرارها ، فلك فى اللّه غنى عن كل شىء ، وليس يغنيك عنه شى ء».

فكن عبد المحوّل ، ولا تكن عبد الحال ، فالحال تحول وتتغير ، واللّه تعالى لا يحول ولا يزول ، فكن عبدا للّه ، ولا تكن عبدا لغيره.

لكلّ شىء ، إن فارقته ، عوض وليس للّه ، إن فارقت من عوض

ثم شفع الحق تعالى بضد ما ذكره قبل ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : آية ١٤]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وتمكنوا من الإيمان ، وعبدوا اللّه وحده فى جميع الحالات ، ولم يعبدوه على حرف ، وَعَمِلُوا الأعمال الصَّالِحاتِ ، جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أي : من تحت قصورها الْأَنْهارُ الأربعة. وهذا بيان حال المؤمنين العابدين له تعالى فى جميع الحالات ، وأنّ اللّه تفضل عليهم ، بما لا غاية وراءه ، إثر بيان سوء حال الكفرة ، من المجاهرين والمذبذبين ، وأنّ معبودهم لا ينفعهم ،

(٥١٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥١٩

بل يضرهم مضرة عظيمة. ثم قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ من الأفعال المتقنة ، المبنية على الحكم البالغة الرائقة ، التي من جملتها : إثابة من آمن به ، وصدّق رسوله ، وعبده على كل حال ، وعقاب من أشرك به ، وكذب رسول اللّه ، أو عبده على حرف. وباللّه التوفيق.

الإشارة : إن اللّه يدخل الذين آمنوا ، واطمأنوا به ، وعبدوه فى جميع الحالات ، وقاموا بعمل العبودية فى كل الأوقات ، جنات المعارف ، تجرى من تحتها أنهار العلوم والحكم ، إن اللّه يفعل ما يريد فيقرب هذا ، ويبعد هذا ، بلا سبب «جلّ حكم الأزل أن يضاف إلى العلل». وباللّه التوفيق.

ولمّا كان نفوذ هذا الوعيد فى المشركين ، وإنجاز وعد المؤمنين تصديقا لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ، ونصرة له ، ذكر حال من غاظه ذلك وكرهه ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ١٥ الى ١٦]

مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ (١٥) وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦)

يقول الحق جل جلاله : لا تظنوا أن اللّه غير ناصر لرسوله صلى اللّه عليه وسلم بل هو ناصر له فى الدنيا والآخرة لا محالة ، فمن كان يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، ويغيظه ذلك من أعاديه وحساده ، ويفعل ما يدفع ذلك من الخدع والمكائد ، فليبالغ فى استفراغ المجهود ، وليجاوز كل حد معهود ، فعاقبة أمره أن يختنق خنقا من ضلال مساعيه ، وعدم إنتاج مقدماته ومبادئه. فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ أي : فليمدد حبلا إلى سقف بيته ، ثُمَّ لْيَقْطَعْ أي : ليختنق ، من قطع : إذا اختنق لأنه يقطع نفسه بحبس مجاريه. أو : ليقطع من الأرض ، بعد ربط الحبل فى العنق وربطه فى السقف. فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ أي : فليصور فى نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر اللّه الذي يغيظه

بسبب فعله ، وسمى فعله كيدا ، على سبيل الاستهزاء لأنه لم يكد به محسوده ، إنما كاد به نفسه.
والمراد : ليس فى يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه ، فتحصّل أن الضمير فى (ينصره) يعود على النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وإن لم يتقدم ذكره صراحة ، لكنه معهود إذ الوحى إنما ينزل عليه. وقيل : يعود على «من» ، والمعنى على هذا : من ظن – بسبب ضيق صدره ، وكثرة غمه – أن لن ينصره اللّه ، فليختنق وليمت بغيظه ، فإنه لا يقدر على غير ذلك ، فموجب الاختناق ، على هذا ، القنوط والسخط من القضاء ، وسوء الظن باللّه تعالى ، حتى يئس من نصره.

(٣/٥١٩)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٢٠
قال ابن جزى : وهذا القول أرجح من الأول لوجهين : أحدهما : أن هذا القول مناسب لمن يعبد اللّه على حرف لأنه ، إذا أصابته فتنة ، انقلب وقنط ، حتى ظنّ أن لن ينصره اللّه. ويؤيده من فسّر (أن لن ينصره اللّه) أي : لن يرزقه إذ لا خير فى حياة تخلو من عون اللّه عز وجل ، فيكون الكلام ، على هذا ، متصلا بما قبله.
ويؤيده أيضا : قوله تعالى ، قبله : إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ أي : الأمور بيد اللّه ، فلا ينبغى لأحد أن يسخط من قضاء اللّه ، ولا ينقلب إذا أصابته فتنة ، والوجه الثاني : أن الضمير فى «ينصره» ، على هذا ، يعود على ما تقدّمه ذكر ، دون الأول. هـ. وانظر ابن عطية والكواشي ، ففيهما ما يدفع درك ابن جزى ، ورده للأول ، بما فى سبب الآية ونزولها من المناسبة.
ثم قال تعالى : وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ أي : ومثل ذلك الإنزال البديع ، المنطوى على الحكم البالغة ، أنزلناه ، أي : القرآن الكريم كله ، حال كونه آياتٍ بَيِّناتٍ : واضحات الدلالة على معانيها الرائقة ، وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي به مَنْ يُرِيدُ هدايته ابتداء ، أو يثبته على الهدى دواما ، ومحل «أن» : إما الجار ، أي : ولأن اللّه يهدى ، أو الرفع ، أي : والأمر أن اللّه يهدى من يريد.
الإشارة : من غلبته نفسه ، وملكته وأسرته فى يدها فدواؤه : الفزع إلى اللّه ، والاضطرار إليه آناء الليل والنهار ، والمنهاج الواضح فى علاجها وقهرها : هو الفزع إلى أولياء اللّه ، العارفين به ، الذين سلكوا طريق التربية على يد شيخ كامل ، فإذا ظفر بهم ، فليلزم صحبتهم ، وليتبع طريقهم ، وليسارع إلى فعل كل ما يشيرون به إليه ، من غير تردد ولا توقف ، فهم معناه ، شرعا ، أم لا ، فلا شك أن اللّه ينصره ويؤيده ، ويظفر بنفسه فى أسرع مدة. وليس الخبر كالعيان ، وجرّب .. ففى التجريب علم الحقائق ، وكذلك من ابتلى بالوسواس وخواطر السوء فى أمر التوحيد ، فليفزع إليهم ، حتى يقلعوا من قلبه عروق الشكوك والأوهام ، وتذهب عنه الأمراض والأسقام ، بإشراق شمس العرفان على قلبه ، ويفضى إلى

طريق الذوق والوجدان ، وغير هذا عناء وتعب ، ولو فرض أنه يسكن عنه ذلك ، فلا يذهب عنه بالكلية ، فربما يهيج عليه فى وقت الضعف عند الموت ، فلا يستطيع دفعه ، فيلقى اللّه بقلب سقيم. والعياذ باللّه.

فإن قلت : هذا الذي دللتنى عليه عزيز غريب ، فقد دللتنى على عنقاء مغرب؟ قلت : واللّه ، إن حسنت الظن باللّه وبعباد اللّه ، واضطررت إليه اضطرار الظمآن إلى الماء ، لوجدته أقرب إليك من كل شيء. واللّه ، لقد وجدناهم وظفرنا بهم ، على مناهج الجنيد وأضرابه ، يغنون بالنظر ، ويسيرون بالمريد حتى يقول له : ها أنت وربك. والمنة للّه.

فمن ترك ما قلنا له ، وآيس من الدواء ، وظن أن لن ينصره اللّه فى الدنيا والآخرة ، فليمت غيظا وقنطا ، فلا يضر إلا نفسه لأن اللّه يهدى من يريد ، فيوفقه للدواء ، ومن يرد اللّه فتنته فلن تملك له من اللّه شيئا. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر مآل من آمن بالقرآن ، الذي هو آيات بينات ، ومآل من أعرض عنه ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : آية ١٧]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٢١

قلت : إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ : خبر «إنّ» الأولى.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بما ذكر من الآيات البينات ، أو بكل ما يجب الإيمان به – فيدخل ما ذكر دخولا أوليا – أي : آمنوا بذلك ، بهداية اللّه وإرادته ، وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ ، وهم قوم من النصارى ، اعتزلوهم ، ولبسوا المسوح ، وقيل : أخذوا من دين النصارى شيئا ، ومن دين اليهود شيئا ، وهم القائلون بأن للعالم أصلين : نورا وظلمة ، ويعتقدون تأثير النجوم. وَالْمَجُوسَ وهم الذين يعبدون النار ، ويقولون : إن الخير من النور ، والشر من الظلمة ، وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وهم عبدة الأصنام من العرب وغيرهم ، فهذه ستة أديان ، خمسة للشيطان ، وواحد للرحمن. إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فى الأحوال والأماكن ، فلا يجازيهم جزاء واحدا ، ولا يجمعهم فى موطن واحد. أو يحكم بين المؤمنين ، وبين الفرق الخمسة المتفقة على ملة الكفر ، بإظهار المحق من المبطل ، فيكرم المحق ويهين المبطل ، إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أي : عالم بكل شيء ، مراقب لأحواله ، حافظ له ، مطلع على سره وعقده. ومن قضية الإحاطة بتفاصيل كل فرد من أفراد الفرق المذكورة :

إجراء جزائه اللائق عليه ، وهو أبلغ وعيد. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كما يفصل اللّه يوم القيامة بين الملل المستقيمة والفاسدة يفصل أيضا بين أرباب القلوب المستقيمة الصحيحة المعمورة بنور اللّه ، وبين أرباب القلوب السقيمة الخاربة من النور ، المعمورة بالظلمة من الوساوس والخواطر ، فيرفع الأولين مع المقربين الصديقين ، ويسقط الآخرين فى أسفل سافلين ، أو مع عامة أهل اليمين.

وباللّه التوفيق ، ثم برهن على كونه شهيدا على الأشياء بسجودها له ، وخضوعها من هيبته ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : آية ١٨]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (١٨)

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ ، أيها السامع ، أو من يتأتى منه الرؤية ، أي : رؤية علم واستبصار ، أو :

يا محمد ، علما يقوم مقام العيان ، أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ أي : ينقاد إليه انقيادا تامّا مَنْ فِي السَّماواتِ من الملائكة ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ من الإنس والجن والملائكة. ويحتمل أن تكون «من» : عامة للعاقل وغيره ،

فيدخل كل ما فى السموات من عجائب المصنوعات ، وكل ما فى الأرض من أنواع المخلوقات. ويكون قوله :

وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ، من عطف الخاص على العام لاستبعاد ذلك منها عادة. ويحتمل أن يكون السجود على حقيقته ، ولكن لا نفقه ذلك ، كما لا نفقه تسبيحهم.

ونقل الكواشي عن أبى العالية : (ما فى السماء نجم ، ولا شمس ، ولا قمر ، إلا يقع ساجدا حين تغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له). وذكر فى صحيح البخاري : «أن الشمس لا تطلع حتى تسجد وتستأذن» «١». وقال مجاهد : (سجود الجبال والشجر والدواب : تحوّل ظلالها). أو سجودها : طاعتها فإنه ما من جماد إلا وهو مطيع للّه تعالى ، خاشع ، يسبح له. شبّه طاعتها له وانقيادها لأمره بسجود المكلف الذي كلّ خضوع دونه.

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يسجد للّه تعالى سجود طاعة وعبادة ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ حيث امتنع من هذا

السجود ، الذي هو سجود عبادة لكفره وعتوه. قال ابن عرفة : قوله : «وكثير» : يحتمل كونه مبتدأ ، ويكون فى الآية حذف المقابل ، أي : وكثير من الناس مثاب ، وكثير حق عليه العذاب. فلا يرد سؤال الزمخشري. هـ. وقدّره غيره : وكثير من الناس يسجدون ، وكثير يأبى السجود فحق عليه العذاب. وقيل : وكثير حق عليه العذاب بإنكاره النبوة ، وإن سجد للصانع كالفلاسفة واليهود والنصارى. هـ.

وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ بأن صرفته الشقاوة عن الانقياد لأمره الشرعي ، فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ بالسعادة ، أو يوم القيامة ، بل يذل ويهان ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ فى ملكه يكرم من يشاء بفضله ، ويهين من يشاء بعدله ، لا معقب لحكمه. اللهم أكرمنا بطاعتك ومحبتك ، واجعلنا منقادين لأمرك وحكمك ، ونعّمنا بحلاوة شهودك ومعرفتك ، إنك على كل شيء قدير. هكذا يدعى فى هذه السجدة. وباللّه التوفيق.

الإشارة : قد تجلى الحق جل جلاله بأسرار ذاته لباطن الأشياء ، وبأنوار صفاته لظاهرها ، فتعرف لكل شيء بأسرار ذاته وأنوار صفاته ، فعرفه كلّ شيء ، ولذلك سجد له وسبح بحمده. وفى الحكم : «أنت الذي تعرّفت لكل شيء ، فما جهلك شي ء». فظواهر الأوانى ساجدة لأسرار المعاني ، وخاضعة للكبير المتعالي ، ولا يفقه هذا إلا من خاض بحر المعاني ، ولم يقف مع حس الأوانى ، ولم يمتنع من الانقياد والخضوع لجلال الحق وكبريائه فى الظاهر والباطن ، إلا من أهانه اللّه من عصاة بنى آدم. ومن يهن اللّه فماله من مكرم ، إن اللّه يفعل ما يشاء.

---

(١) أخرج البخاري فى (التوحيد باب : وكان عرشه على الماء) ، ومسلم فى (الإيمان ، باب : الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان) ، عن أبى ذر قال : دخلت المسجد ، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جالس ، فلما غابت الشمس قال : «يا أبا ذر تدرى أين تذهب هذه؟» قال : قلت : اللّه ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب ، وتستأذن فى السجود ، فيؤذن لها ...» الحديث.

ثم بيّن الفصل ، الذي يفصل به يوم القيامة بين المؤمنين والكفرة بفرقها الخمس ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ١٩ الى ٢٤]

هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (٢٣)

وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ (٢٤)

قلت : خَصْمانِ : صفة لمحذوف ، أي : فريقان خصمان ، والمراد : فريق المؤمنين ، وفريق الكفرة بأقسامه الخمسة. وقيل : اسم يقع على الواحد والاثنين والجماعة ، والمراد هنا : الجماعة ، بدليل قوله : (اختصموا) بالجمع.

يقول الحق جل جلاله : هذانِ خَصْمانِ أي : مختصمان اخْتَصَمُوا أي : فريق المؤمنين والكافرين. وقال ابن عباس رضى اللّه عنه : (راجع إلى أهل الأديان المذكورة) فالمؤمنون خصم ، وسائر الخمسة خصم ، تخاصموا فِي رَبِّهِمْ أي : فى شأنه تعالى ، أو فى دينه ، أو فى ذاته وصفاته. والكل من شؤونه تعالى ، فكل فريق يصحح اعتقاده ، ويبطل اعتقاد خصمه. وقيل : تخاصمت اليهود والمؤمنون فقالت اليهود : نحن أحق باللّه وأقدم منكم كتابا ، ونبيّنا قبل نبيّكم. وقال المؤمنون : نحن أحق باللّه منكم ، آمنا بنبينا ونبيكم ، وبما أنزل اللّه من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ، ثم كفرتم به حسدا «١». وكان أبو ذر يقسم أنها نزلت فى ستة نفر من قريش ، تبارزوا يوم بدر حمزة وعليّ ، وعبيدة بن الحارث ، مع عتبة ، وشيبه ابني ربيعة ، والوليد «٢»

. وقال علىّ رضى اللّه عنه :

إنى لأوّل من يجثو بين يدى اللّه يوم القيامة للخصومة «٣»

. هـ.

---

(١) أخرجه الطبري فى التفسير (١٧/ ١٣٢) عن ابن عباس رضى اللّه عنه.

(٢) أخرجه البخاري فى (المغازي باب قتل أبى جهل) ، وفى (تفسير سورة الحج. ، باب هذان خصمان اختصموا فى ربهم) ، ومسلم فى (التفسير ، باب فى قوله تعالى : هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ).

(٣) أخرجه البخاري فى الموضعين السابق ذكرهما ، وفى التفسير ، عن قيس بن عبادة ، عن سيدنا علىّ – كرم اللّه وجهه – .

ثم بيّن الفصل بينهم ، المذكور فى قوله : إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، فقال : فَالَّذِينَ كَفَرُوا بما أنزل على محمد صلى اللّه عليه وسلم ، قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ أي : فصّلت وقدرت على مقادير جثثهم ، تشتمل عليهم ، كما تقطع الثياب للبوس. وعبّر بالماضي لتحقق وقوعه. يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ

رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ أي : الماء الحار. عن ابن عباس رضى اللّه عنه : «لو سقطت منه نقطة على الجبال الدنيا لأذابتها». يُصْهَرُ : يذاب بِهِ أي : بالحميم ، ما فِي بُطُونِهِمْ من الأمعاء والأحشاء ، وَالْجُلُودُ تذاب أيضا ، فيؤثر فى الظاهر والباطن ، كلما نضجت جلودهم بدلت.

وتقديم ما فى الباطن للإيذان بأن تأثيرها فى الباطن أقوى من تأثيرها فى الظاهر ، مع أن ملابستها على العكس.

وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ أي : ولتعذيب الكفرة ، أو لأجلهم ، مقامع : جمع مقمعة ، وهى آلة القمع ، أي : سياط من حديد ، يضربون بها. كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أي : أشرفوا على الخروج من النار ، ودنوا منه ، حسبما روى : أنها تضربهم بلهبها فترفعهم ، حتى إذا كانوا بأعلاها ضربوا بالمقامع ، فهووا فيها سبعين خريفا. وقوله :

مِنْ غَمٍّ : بدل اشتمال من ضمير (منها) بإعادة الجار ، والعائد : محذوف ، أي : كلما أرادوا أن يخرجوا من غم شديد من غمومها أُعِيدُوا فِيها أي : فى قعرها ، بأن ردوا من أعاليها إلى أسافلها ، من غير أن يخرجوا منها ، وَقيل لهم : ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ أي : الغليظ من النار ، العظيم الإحراق.

ثم ذكر جزاء الخصم الآخر ، وهم أهل الحق ، فقال : إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، وغيّر الأسلوب فيه ، بإسناد الإدخال إلى اللّه عز وجل ، وتصدير الجملة بحرف التأكيد إيذانا بكمال مباينة حالهم لحال الكفرة ، وإظهارا لمزيد العناية بحال المؤمنين ، يُحَلَّوْنَ فِيها من التحلية ، وهو التزين ، أي : تحليهم الملائكة بأمره تعالى مِنْ أَساوِرَ أي : بعض أساور : جمع سوار ، مِنْ ذَهَبٍ للبيان ، أي : يلبسون أساور مصنوعة من ذهب ، وَلُؤْلُؤاً ، من جرّه : عطفه على «ذهب» ، أو «أساور» ، ومن نصبه :

فعلى محل «من أساور» ، أي : ويحلّون لؤلؤا ، أو بفعل محذوف ، أي : ويؤتون لؤلؤا. وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ :

أبريسم ، وغيّر الأسلوب ، فلم يقل : ويلبسون حريرا لأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنيّ عن البيان ، إذ لا يمكن عراؤهم عنه ، وإنما المحتاج للبيان : أىّ لباس هو ، بخلاف الأساور واللؤلؤ ، فإنها ليست من اللوازم الضرورية ، فجعل بيان حليتهم بها مقصودا بالذات. انظر أبا السعود.

وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ، وهو كلمة التوحيد : لا إله إلا اللّه أو : الحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، بدليل قوله : إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ «١»

. وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ أي : المحمود ، وهو الإسلام. أو :

---

(١) من الآية ١٠ من سورة فاطر.

ألهمهم اللّه فى الآخرة أن يقولوا : الحمد للّه الذي صدقنا وعده ، وهداهم فيها إلى طريق الجنة. وقيل : إلى طريق الوصول إلى اللّه العزيز الحميد ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد اختصم أهل الظاهر مع أهل الباطن فى شأن الربوبية ، فقال أهل الظاهر : الحق تعالى لا يرى فى دار الدنيا ، ولا تمكن معرفته ، إلا من جهة الدليل والبرهان ، على طريق الإيمان بالغيب. وقال أهل الباطن من أكابر الصوفية : الحق تعالى يرى فى هذه الدار ، كما يرى فى تلك الدار ، من طريق العرفان ، على نعت الشهود والعيان ، لكن ذلك بعد موت النفوس وحط الرؤوس لأهل التربية النبوية ، فلا يزال يحاذيه ويسير به ، حتى يقول : ها أنت وربك ، فحينئذ تشرق عليه شموس العرفان ، فتغطى عنه وجود حس الأكوان ، فلا يرى حينئذ إلا المكون ، حتى لو كلف أن يرى غيره لم يستطع إذ لا غير معه حتى يشهده.

وقال بعضهم : (محال أن تشهده ، وتشهد معه سواه). وفى مناجاة الحكم العطائية : «إلهى ، كيف يستدلّ عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت ، حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التي توصل إليك؟!». وقال الشيخ أبو الحسن رضى اللّه عنه : (أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان). وهذه الطريق هى طريق التربية ، لا تنقطع أبدا ، فمن كفر بها وجحدها قطعت له ثياب من نار القطيعة ، فيبقى مسجونا بسرادقات محيطاته ، محصورا فى هيكل ذاته ، لا يرى إلا ظلمة الأكوان ، يصب من فوق رأسه ، إلى قلبه ، حرّ التدبير والاختيار ، وكلما أراد أن يخرج من سجن الأكوان وغم الحجاب ردته حيرة الدّهش ، وهيبة الكبرياء والعظمة والإجلال لأن فكرته مسجونة تحت أطباق الكائنات ، مقيدة بعلائق العوائد والشواغل والشهوات. ويقال له : ذق عذاب الحريق ، وهو حرمانك من شهود التحقيق.

إن اللّه يدخل الذين آمنوا بطريق الخصوص ، جنات المعارف ، تجرى من تحتها أنهار العلوم ، يحلون فيها بأنواع المحاسن والفضائل ، ويتطهرون من جميع المساوئ والرذائل ، وهدوا إلى الطيب من القول ، وهو الذكر الدائم بالقلب الهائم ، والمخاطبة اللينة من القلوب الصافية ، وهدوا إلى طريق التربية والترقية ، حتى وصلوا إلى شهود الحبيب ، الحامد المحمود ، القريب المجيب. حققنا اللّه بمقامهم بمنّه وكرمه.

ثم شرع فى المقصود من السورة ، وهو أحكام الحج ، وبدأ بتعظيم البيت تشويقا وترغيبا فى حجه ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٢٥ الى ٢٦]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ

وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)

(٥٢٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٢٦

قلت : خبر «إن» : محذوف ، يدل عليه ما بعده ، أي : الذين كفروا نذيقهم من عذاب أليم لأنه إذا كان الملحد فى الحرم معذّبا فالجامع بين الكفر والصد أولى. ومن رفع «سواء» جعله خبرا مقدما. و«العاكف» :

مبتدأ. ومن نصبه : جعله مفعول «جعل» ، و«العاكف» فاعل به.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ الناس عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، أي : واستمروا على الصد ، ولذلك حسن عطفه على الماضي ، وَيصدون أيضا عن الْمَسْجِدِ الْحَرامِ والدخول فيه ، كأهل مكة مع المسلمين ، الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ أي : مقاما ومسكنا للناس ، كائنا من كان ، لا فرق فيه بين مكى وآفاقى ، وضعيف وقوى ، حاضر وباد. فإن أريد بالمسجد الحرام «مكة» ، ففيه دليل على أن دور مكة لا تباع ، وأن الناس فيها سواء ، فيجوز للقادم أن ينزل منها حيث شاء ، وليس لأحد فيها ملك. وبه قال أبو حنيفة. وقال مالك وغيره : ليست الدور فيها كالمسجد ، بل هى متملّكة. وإن أريد به البيت كان نصا فى إباحته لجميع المؤمنين. وهو مجمع عليه.

سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ أي : مستو المقيم فيه وَالْبادِ ، أي : المسافر من أهل البادية ، وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ أي : فى المسجد ، إحداث شىء بِإِلْحادٍ أي : بسبب ميل عن القصد ، بِظُلْمٍ ، وهما حالان مترادفان ، أي : ومن يرد فيه إحداث شىء مائلا عن الحق ، ظالما فيه ، نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ فى الآخرة.

وكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك.

وَاذكر يا محمد إِذْ بَوَّأْنا : حين هيأنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ وعيناه له ، حتى بناه فى مكانه مسامتا للبيت المعمور ، حيث كان بناه آدم عليه السّلام ، وقد كان رفع إلى السماء الرابعة ، أيام الطوفان ، وكان من ياقوتة حمراء ، فأعلم اللّه إبراهيم مكانه ، بريح أرسلها ، يقال لها : الخجوج ، فكنست مكان البيت ، وقيل : سحابة على قدر البيت ، وقيل : كلمته ، وقالت له : ابن على قدرى. هـ. فبناه على أساسه القديم «١»

، وفى ابن حجر : أنه جعل طوله فى السماء تسعة أذرع ، ودوره فى الأرض ثلاثين ذراعا بذراعه.

وأدخل الحجر فى البيت ، وكان قبل ذلك لغنم

(١) راجع هذه الأقوال فى تفسير الطبري (١٧/ ١٤٣) ، والبغوي (٥/ ٣٧٨).

(٥٢٦/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٢٧

إسماعيل. وبنى الحجارة بعضها على بعض ، أي : بلا تراب ، ولم يجعل له سقفا ، وحفر له بئرا ، عند بابه خزانة للبيت ، يلقى ما يهدى له. هـ.

روى أن الكعبة الشريفة بنيت خمس مرات ، إحداها : بنتها الملائكة ، وكانت من ياقوتة حمراء ، ثم رفعت أيام الطوفان. والثانية : بناها إبراهيم عليه السّلام ، وقيل : إن جرهم كانت بنتها قبله ، ثم هدمت ، ويدل عليه : التجاء عاد إليها ، حين نزل بهم القحط. فأرسل اللّه عليهم الريح ، وكان ذلك قبل إبراهيم عليه السّلام ، والثالثة : بنتها قريش ، وقد حضرها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قبل النبوة. والرابعة : بناها ابن الزبير ، والخامسة : الحجاج.

ثم قال تعالى : أَنْ لا تُشْرِكْ أي : وقلنا له : ألا تشرك بِي شَيْئاً ، بل خلص عملك فى بنائها وغيره ، من شوائب حظ النفس ، عاجلا وآجلا ، لا طمعا فى جزاء ، ولا خوفا من عقوبة ، بل محبة وشكرا وعبودية. قال القشيري : أي : لا تلاحظ البيت ولا بنيانك. هـ. وقيل : فى الآية طعن على من أشرك من قطّان البيت ، أي : هذا الشرط كان على أبيكم فمن بعده وأنتم ، فلم تقبلوه ، بل أشركتم وصددتم وألحدتم ، فاستحققتم التوبيخ والذم على سلوككم على غير طريق أبيكم.

وَطَهِّرْ بَيْتِيَ من الأصنام والأقذار ، لِلطَّائِفِينَ به وَالْقائِمِينَ للصلاة فيه ، أو المقيمين فيه ، وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ أي : المصلين ، جمعا من راكع وساجد. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إن الذين كفروا بطريق الخصوصية ، ويصدون الناس عن الدخول فيها ، ويعوقونهم عن مسجد الحضرة ، الذي جعله للناس محلا تسكن فيه قلوبهم ، وتعشش فيه أرواحهم. فكل من قصده وباع نفسه وقلبه للّه ، وصله ودخله ، وهو محل المشاهدة والمكالمة ، والمسارة والمناجاة ، محل شهود الحبيب والمسارة مع القريب ، محل نزهة الأفكار فى فضاء الشهود والاستبصار ، فمن عاق عنها نذقه من عذاب أليم. وقوله تعالى : سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ ، قال القشيري : فيه إشارة إلى أن التفاوت إنما يكون فى الطريق ، وأما بعد الوصول ، فلا تفاوت. ثم إذا اجتمعت النفوس ، فالموضع الواحد مجمعها ، ولكن لكلّ حال يعرف به «١»

. هـ. قلت : مقام التوحيد الخاص ، وهو الفناء ، هو محل الاجتماع ، وتتفاوت بعد ذلك أذواقهم ومواجيدهم ، وازدياد كشوفاتهم وترقياتهم ، تفاوتا بعيدا ، على حسب التفرغ والانقطاع ، والتأهب

والاتباع ، حسبما سبقت به القسمة الأزلية.
وقال الورتجبي ، على قوله تعالى : (و إذ بوأنا ...) الآية : هيأ لخليله وجميع أحبائه بيته ، ودلّه إلى ما فيه من الكرامات والآيات ، وما ألبسه من أنوار حضرته ليكون وسيلة لعبادته ، ومرآة لأنوار آياته. هـ.
قلت : الإشارة بالبيت

---

(١) بالمعنى.

إلى القلب لأنه بيت الرب ، أي : هيأنا لإبراهيم مكان قلبه لمشاهدة أسرار جبروتنا وأنوار ملكوتنا ، ليكون من الموقنين بشهود ذاتنا ، وقلنا له : لا تشرك بنا شيئا من السّوى ، ولا ترى معنا غيرنا ، وطهّر بيتي ، الذي هو القلب ، من الأغيار والأكدار ، ليكون محلا للطائفين به من الواردات والأنوار ، والعاكفين فيه من المشاهدات والأسرار ، والركع السجود من القلوب التي تواجهك بالتعظيم والانكسار ، فإنّ قلب العارف كعبة للواردات والأسرار ، ومحل حج قلوب الصالحين والأبرار. وفى بعض الأثر : «يا داود طهر لى بيتا أسكنه ، فقال : يا رب .. وأىّ بيت يسعك؟ فقال :
لم يسعنى أرضى ولا سمائى ، ووسعني قلب عبدى المؤمن». وفيه عند أهل الحديث كلام. ووسعه للربوبية بالعلم والمعرفة الخاصة. واللّه تعالى أعلم.
ولمّا فرغ إبراهيم عليه السّلام من بناء البيت ، أمره ربه أن يؤذن فى الناس بالحج ، كما قال :
[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٢٧ الى ٢٩]
وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)
قلت : وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ : حال معطوفة على حال ، أي : يأتوك حال كونهم رجالا وركبانا. و(يأتين) : صفة لكل ضامر لأنه فى معنى الجمع. وقرأ عبد اللّه : «يأتون» ، صفة لرجال. و(رجال) : جمع راجل كقائم وقيام.
يقول الحق جل جلاله لإبراهيم عليه السّلام : وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ أي : ناد فيهم ليحجوا. روى : أنه عليه السّلام صعد أبا قبيس ، فقال : يا أيها الناس ، حجوا بيت ربكم ، فأسمعه اللّه تعالى الأرواح ، فأجاب من قدّر له أن يحج من الأصلاب والأرحام بلبيك اللهم لبيك. يَأْتُوكَ إن أذنت رِجالًا أي : مشاة

وَرِكبانا عَلى كُلِّ ضامِرٍ أي : بعير مهزول ، أتعبه بعد الشقة ، فهزّله ، أو زاد هزاله. وقدّم الرجال على الركبان لفضيلة المشاة ، كما ورد فى الحديث يَأْتِينَ تلك الضوامر بركبانها ، مِنْ كُلِّ فَجٍّ طريق عَمِيقٍ بعيد. قال محمد بن

(٥٢٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٢٩

ياسين : قال لى شيخ فى الطواف : من أين أنت؟ فقلت : من خراسان. فقال : كم بينك وبين البيت؟ فقلت : مسيرة شهرين أو ثلاثة. قال : فأنتم جيران البيت. فقلت : وأنت من أين سعيت؟ فقال : من مسيرة خمس سنوات ، وخرجت وأنا شاب ، فاكتهلت. فقلت : هذه واللّه هى الطاعة الجميلة ، والمحبة الصادقة ، فضحك. وقال :

زر من هويت ، وإن شطت بك الدار وحال من دونه حجب وأستار

لا يمنعنك بعد عن زيارته إنّ المحب لمن يهواه زوّار

لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ أي : يأتوك ليحضروا منافع لهم ، دنيوية ودينية ، لا توجد فى غير هذه العبادة كالطواف ونظر الكعبة ، وتضعيف أمر الصلاة لأن العبادة شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة والصوم ، أو بالمال ، وقد اشتمل الحج عليهما ، مع ما فيه من تحمل الأثقال وركوب الأهوال ، وقطع الأسباب وقطيعة الأصحاب ، وهجرة البلاد والأوطان ، ومفارقة الأهل والولدان. ولذلك ورد أنه يكفر الذنوب كلها ، كما فى الحديث : «من حجّ هذا البيت فلم يرفث ، ولم يفسق ، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمّه» «١»

.

وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عند ذبح الضحايا والهدايا فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ ، وهى أيام النحر عند مالك ، وعند الشافعي : اليوم الأول والثاني والثالث لأن هذه هى أيام الضحايا عنده. ولم يجز ذبحها بالليل لقوله : فِي أَيَّامٍ.

وقال أبو حنيفة : الأيام المعلومات : عشر ذى الحجة ويوم النحر ، وهو قول ابن عباس رضى اللّه عنه ، وأما الأيام المعدودات ، فهى : الثلاثة بعد يوم النحر – فيوم النحر معلوم لا معدود ، ورابعه : معدود لا معلوم ، واليومان بعده : معلومان ومعدودان. فيذكروا اسم اللّه عَلى ما رَزَقَهُمْ أي : على ذبح ما رزقهم مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ ، وهى الإبل والبقر والغنم ، فَكُلُوا مِنْها من لحومها ، والأمر : للإباحة ، ولإزاحة ما كانت عليه الجاهلية من التحرج.

قال ابن جزى : ويستحب أن يأكل الأقل من الضحايا ، ويتصدق بالأكثر. هـ. وقال النسفي : ويجوز

الأكل من هدى التطوع والمتعة والقران لأنه دم نسك لأنه أشبه الأضحية ، ولا يجوز الأكل من بقية الهدايا. هـ. وهو حنفى ، وفى مذهب مالك تفصيل يطول ذكره.

وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ ، وهو الذي أصابه البؤس ، أي : ضرر الحاجة ، وقيل : المتعفف ، وقيل : الذي يظهر عليه أثر الجوع ، الْفَقِيرَ : المحتاج الذي أضعفه الإعسار.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الحج ، باب فضل الحج المبرور) ، ومسلم فى (الحج ، باب فى فضل الحج والعمرة ويوم عرفة) ، عن أبى هريرة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٣٠

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ أي : ليزيلوا عنهم أدرانهم ، قاله نفطويه. وقيل : قضاء التفث : قص الشارب والأظافر ، ونتف الإبط ، والاستحداد ، وسائر خصال الفطرة. وهذا بعد أن يحلوا من الحج التحلل الأصغر بالنحر. وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ أي : ما ينذرونه من البر فى الحج وغيره ، وقيل : مواجب حجهم من فعل أركانه ، وَلْيَطَّوَّفُوا طواف الإفاضة ، الذي هو ركن لا يجبر بالدم ، وبه يتم الحج ، ويكون بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ : القديم لأنه أول بيت وضع للناس ، بناه آدم ثم جدّده إبراهيم ، أو الكريم ، ومنه : عتاق الخيل لكرائمها ، أو : لأنه عتق من الغرق ، أو من أيدى الجبابرة ، فكم من جبار رام هدمه فمنعه اللّه منه. وقيل : عتيق لم يملكه أحد قطّ ، وهو مطاف أهل الغبراء ، كما أن البيت المعمور مطاف أهل السماء.

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٣٠ الى ٣١]

ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلاَّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ (٣١)

ذلِكَ أي : الأمر ذلك ، وهذا من فضل الكلام ، كما يقدم الكاتب جملة من الكلام ، ثم يقول : هذا ، وقد كان كذا وكذا وكذا ، إذا أراد أن يخرج من كلام إلى كلام آخر ، وإن كان له تعلق بما قبله. والكلام هنا متصل بتعظيم حرمات البيت ، فقال : وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ ، جمع حرمة ، وهو ما لا يحل هتكه من الشريعة ، فيدخل ما يتعلق بالحج دخولا أوليا ، وقيل : حرمات اللّه : البيت الحرام ، والمشعر الحرام ، والبلد الحرام ، والشهر الحرام. وقيل : المحافظة على الفرائض والسنن واجتناب المعاصي ، فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ أي : فالتعظيم خير له ثوابا عِنْدَ رَبِّهِ ، ومعنى التعظيم : العلم بوجوب مراعاتها ، والعمل

بموجبه ، والاهتمام بشأنه ، والتأديب معه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قوله تعالى : ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ، قال القشيري : أي : حوائجهم ، ويحققوا عهودهم ، ويوفوا نذورهم فيما عقدوه مع اللّه بقلوبهم ، فمن كان عقده التوبة فوفاؤه ألّا يرجع إلى العصيان ، ومن كان عهده اعتناق الطاعة ، فشرط وفائه ترك تقصيره ، ومن كان عهده ألّا يرجع إلى طلب مقام وتطلع إكرام ، فوفاؤه استقامته على الجملة ، التي دخل عليها فى هذه الطريق ، بألا يرجع إلى استعجال نصيب واقتضاء حظ. هـ. قلت : ومن كان عقده الوصول إلى حضرة القدس ومحل الأنس ، فوفاؤه ألا يرجع عن صحبة من سقاه خمرة المحبة ، وحمله إلى درجة المعرفة. ثم قال : ومن عاهد اللّه بقلبه ، ثم لا يفى بذلك ، فهو من جملة قول الزور. هـ. وهو أيضا ليس بمعظّم لحرمات اللّه ، حيث طلبها ثم تهاون وتركها. واللّه تعالى أعلم.

(٣/٥٣٠)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٣١

ولمّا كان الإحرام يحرم لحوم الصيد ، فربما يتوهم أن اللحوم كلها تجتنب ، رفع ذلك الإيهام ، فقال : وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ ...

يقول الحق جل جلاله : وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ أي : أكلها ، إِلَّا ما يُتْلى أي : سيتلى عَلَيْكُمْ منها فى آية المائدة «١»

، كالميتة والموقوذة وأخواتهما. والمعنى : إن اللّه قد أحل لكم الأنعام إلّا ما بيّن فى كتابه ، فحافظوا على حدوده ، ولا تحرّموا شيئا مما أحلّ لكم ، كتحريم البحيرة وما معها ، ولا تحلوا ما حرّم ، كإحلال المشركين الميتة والموقوذة وغيرهما.

ثم نهى عن الأوثان التي كانوا يذبحون لها ، فقال : فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ لأن ذلك من تعظيم حرمات اللّه ، و«من» : للبيان ، أي : فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان. والرجس : كل ما يستقذر من الخبث ، وسمى الأوثان رجسا على طريقة التشبيه ، أي : فكما تنفرون بطباعكم من الرجس ، فعليكم أن تنفروا عنها. والمراد : النهى عن عبادتها ، أو عن الذبح تقربا لها. وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ، وهو تعميم بعد تخصيص ، فإنّ عبادة الأوثان رأس الزور ، ويدخل فيه الكذب والبهتان وشهادة الزور. وقيل : المراد شهادة الزور فقط ، لما روى أنه – عليه الصلاة والسلام – قال : «عدلت شهادة الزّور الإشراك باللّه تعالى» ثلاثا ، وتلى هذه الآية «٢»

. والزور من الزّور ، وهو الانحراف والميل لأن صاحبه ينحرف عن الحق ، ولا شك أن الشرك داخل فى الزور لأن المشرك يزعم أن الوثن تحق له العبادة ، وهو باطل وزور.

ثم قال تعالى : حُنَفاءَ لِلَّهِ : مائلين عن كل دين زائغ إلى دين الحق ، مخلصين لله ، غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ شيئا من الأشياء ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ ، أظهر الاسم الجليل لإظهار كمال قبح الشرك ، فَكَأَنَّما خَرَّ : سقط

---

(١) الآية الثالثة.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٤/ ٣٢١) ، وأبو داود فى (الأقضية : باب فى شهادة الزور) ، والترمذي فى (الشهادات ، باب ما جاء فى شهادات الزور) ، وابن ماجة فى (الأحكام ، باب شهادة الزور) ، عن خريم بن فاتك. [.....]

مِنَ السَّماءِ إلى الأرض لأنه يسقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر. وقيل : هو إشارة إلى ما يكون له حين يصعد بروحه عند الموت ، فتطرح من السماء إلى الأرض. قاله ابن البنا. فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أي : تتناوله بسرعة ، فالخطف والاختطاف : تناول الشيء بسرعة لأن الأهواء المردية كانت توزع أفكاره ، أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ أي : تسقطه وتقذفه. والهوى : السقوط. فِي مَكانٍ سَحِيقٍ : بعيد لأن الشيطان قد طرحه فى الضلال والتحير الكبير. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : جعل الحقّ تعالى شكر النعم أمرين : طهارة الباطن من شرك الميل إلى السّوى ، ولسانه من زور الدعوى ، وهو الترامي على مراتب الرجال قبل التحقق بها ، حنيفا موحدا ، شاكرا لأنعمة يجتبيه ربه ، ويهديه إلى صراط مستقيم. ومن يشرك باللّه بأن يحب معه غيره ، فقد سقط عن درجة القرب والتحقيق ، فتخطفه طيور الحظوظ والشهوات ، وتهوى به ريح الهوى ، فى مكان سحيق. والعياذ باللّه.

ثم حضّ على الاعتناء بشأن الهدايا ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٣٢ الى ٣٧]

ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦)

لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ

وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)
يقول الحق جل جلاله : ذلِكَ أي : الأمر ذلك ، أو امتثلوا ذلك ، وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ أي : الهدايا ، فإنها معالم الدين وشعائره تعالى ، كما ينبىء عنه : وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ وتعظيمها : اعتقاد التقرب بها ، وأن يختارها سمانا حسانا غالية الأثمان ، روى «أنه صلى اللّه عليه وسلم أهدى مائة بدنة ، فيها جمل لأبى جهل ، فى

(٥٣٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٣٣
أنفه برة من ذهب «١»
». وأن عمر رضى اللّه عنه – أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار «٢»
.
وقيل : شعائر اللّه : مواضع الحج ، كعرفة ومنى والمزدلفة. وتعظيمها : إجلالها وتوقيرها ، والتقصد إليها. وقيل : الشعائر : أمور الدين على الإطلاق ، وتعظيمها : القيام بها ومراعاة آدابها ، فَإِنَّها أي : فإن تعظيمها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ أي : من أفعال ذوى تقوى القلوب ، فحذفت هذه المضافات. أو فإن تعظيمها ناشىء من تقوى القلوب لأنها مراكز التقوى.
لَكُمْ فِيها مَنافِعُ من الركوب عند الحاجة ، ولبنها عند الضرورة ، إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إلى أن تنحر. ومن قال : شعائر اللّه : مواضع الحج ، فالمنافع : التجارة فيها والأجر ، والأجل المسمى : الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة.
ثُمَّ مَحِلُّها منتهية إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، قال ابن جزى : من قال : إن الشعائر الهدايا ، فمحلها موضع نحرها ، وهى منى ومكة. وخصّ البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم ، وهو المقصود بالهدى. و«ثم» ، على هذا ، ليست للترتيب فى الزمان لأن محلها قبل نحرها ، وإنما هى لترتيب الجمل. ومن قال : إن الشعائر مواضع الحج ، فمحلها مأخوذ من إحلال المحرم ، أي : آخر ذلك كله : الطواف بالبيت ، أي : طواف الإفاضة إذ به يحل المحرم. هـ. أي :
محل شعائر الحج كلها تنتهى إلى الطواف بالبيت ، طواف الإفاضة. ومثله فى الموطأ.
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جماعة مؤمنة قبلكم ، جَعَلْنا مَنْسَكاً أي : متعبّدا وقربانا يتقربون به إلى اللّه – عز وجل – والمنسك – بالفتح : مصدر ، وبالكسر : اسم موضع النسك ، أي : لكلّ جعلنا عبادة يتعبدون بها ، أو موضع قربان ، يذبحون فيه مناسكهم ، لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ دون غيره ، عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ أي : عند نحرها وذبحها ، فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ أي : اذكروا على الذبائح اسم اللّه وحده فإن إلهكم إله

واحد ، فَلَهُ أَسْلِمُوا أي :
فإذا كان إلهكم إلها واحدا فأخلصوا له التقرب ، أو الذكر خاصة ، واجعلوه له سالما ، لا تشوبوه بإشراك.
وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ المطمئنين بذكر اللّه ، أو المتواضعين ، أو المخلصين ، فإن الإخبات من الوظائف الخاصة بهم.
والخبت : المطمئن من الأرض. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : هم الذين لا يظلمون ، وإذا ظلموا لم ينتصروا. وقيل :
تفسيره ما بعده ، وهو قوله : الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ : خافت منه هيبة لإشراق أشعة جلاله عليها. وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ من مشاق التكاليف ومصائب الزمان والنوائب ، وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ فى أوقاتها ، وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ فى وجوه الخيرات.

---

(١) البرة – بضم الموحدة – : الحلقة تجعل فى أنف الجمل ، وكانوا يتخذونها من نحاس أو غيره ، انظر اللسان (برى ١/ ٢٧٢) ، والحديث : أخرجه البيهقي فى دلائل النبوة (باب عدد حجات النبي صلى اللّه عليه وسلم ٥/ ٤٥٤) عن جابر رضى اللّه عنه. وفيه : «من فضة» ، بدلا من ذهب».
(٢) أخرجه أبو داود فى (المناسك ، باب تبديل الهدى) عن سالم عن أبيه.

وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ أي : من أعلام دينه ، وأضافها إلى نفسه تعظيما لها ، وهى : جمع بدنة ، سميت به لعظم بدنها ، ويتناول الإبل والبقر والغنم. لَكُمْ فِيها خَيْرٌ أي : منافع دينية ودنيوية ، النفع فى الدنيا ، والأجر فى العقبى. فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها بأن تقولوا عند ذبحها : بسم اللّه ، اللهم منك وإليك. حال كونها صَوافَّ أي : قائمات ، قد صففن أيديهن وأرجهلن. فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها : سقطت على الأرض ، وسكنت حركتها ، من وجب الحائط وجبة : سقط ، وهى كناية عن الموت.
فَكُلُوا مِنْها إن شئتم وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ : السائل ، من : قنع إليه قنوعا : إذا خضع ، وَالْمُعْتَرَّ الذي يعرّض ولا يسأل. وقيل : القانع : الراضي بما عنده وبما يعطى من غير سؤال ، والمعترّ : المتعرض للسؤال.
كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ أي : كما أمرناكم بنحرها سخرناها لكم ، أي : ذللناها لكم ، مع قوتها وعظم أجرامها لتتمكنوا من نحرها ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أي :
لكى تشكروا إنعام اللّه عليكم.

لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها المتصدّق بها ، وَلا دِماؤُها المهراقة بالنحر ، أي : لن يصل إلى اللّه اللحم والدم ، وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ فإنه هو الذي طلب منكم ، وعليه يحصل الثواب. والمراد : لن تصلوا إلى رضا اللّه باللحوم ولا بالدماء ، وإنما تصلون إليه بالتقوى ، أي : الإخلاص للّه ، وقصد وجه اللّه ، بما تذبحون وتنحرون من الهدايا. فعبر عن هذا المعنى بلفظ (ينال) مبالغة وتأكيدا ، كأنه قال : لن تصل لحومها ولا دماؤها إلى اللّه ، وإنما يصل إليه التقوى منكم ، وقيل : كان أهل الجاهلية يلطخون الكعبة بدماء قربانهم ، فهمّ المسلمون أن يفعلوا مثل ذلك ، فنزلت الآية.

كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ أي : البدن ، وهو تكرير للتذكير والتعليل ، لقوله : لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ أي : لتعرفوا عظمة اللّه ، باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره ، فتوحدوه بالكبرياء شكرا على هدايته لكم. وقيل : هو التكبير عند الذبح. وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ : المخلصين فى كل ما يأتون ويذرون فى أمور دينهم. وباللّه التوفيق.

الإشارة : أعظم شعائر اللّه التي يجب تعظيمها أولياء اللّه ، الدالين على اللّه ، ثم الفقراء المتوجهون إلى اللّه ، ثم العلماء المعلمون أحكام اللّه ، ثم الصالحون المنتسبون إلى اللّه ، ثم عامة المؤمنين الذين هم من جملة عباد اللّه.

ويجب تعظيم من نصبه اللّه لقيام خطة من الخطط لإصلاح العباد كالسلاطين ، ولو لم يعدلوا ، والقضاة والقواد ، والمقدمين لأمور العامة ، فتعظيم هؤلاء كله من تقوى القلوب. ويدخل فى ذلك : الأماكن المعظمة كالمساجد والزوايا ، وأما الفقير فيعظّم كل ما خلق اللّه حتى الكلاب ، ويتأدب مع كل مخلوق.

(٣/٥٣٤)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٣٥

وقوله تعالى : لَكُمْ فِيها مَنافِعُ أي : لكم فى هذه التجليات ، إن عظمتموها وعرفتم اللّه فيها ، منافع ، ترعون من أنوارها وتشربون من خمرة أسرارها ، فتزدادوا معرفة وتكميلا ، إلى أجل مسمى ، وهو مقام التمكين ، فحينئذ تواجهه أنوار المواجهة ، فتكون الأنوار له ، لا هو للأنوار ، لأنه للّه لا لشيء دونه ، قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ «١»

.

ثم محل هذه الأنوار إلى بيت الحضرة ، فحينئذ يستغنى باللّه عن كل ما سواه. وقوله تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً أي : لكل عصر جعلنا تربية مخصوصة ، والوصول واحد ولذلك قال : (فإلهكم إله واحد). وقال القشيري : الشرائع مختلفة فيما كان من المعاملات ، متفقة فيما كان من جملة المعارف.

ثم قال : ذكّرهم اللّه بأنه هو الذي أمرهم ويثيبهم ، (فله أسلموا) : استسلموا لحكمه ، من غير استكراه من داخل القلب ولا من اللفظ. هـ.

وقوله تعالى : (وَ الْبُدْنَ ...) الآية. قال الورتجبي : فيه إشارة إلى ذبح النفس بالمجاهدات ، وزمها بالرياضات عن المخالفات ، وفناء الوجود للمشاهدات ، حتى لا يبقى للعارف فى طريقة حظ من حظوظه ، ويبقى للّه مفردا من جميع الخلائق. هـ.

وفى قوله تعالى : فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ ، إشارة إلى أن النفس لا تموت إلا بصحبة من ماتت نفسه ، فلا تموت النفس مع صحبة أهل النفوس الحية أبدا. فإذا ماتت وسقطت جنوبها ، وظفرتم بها فكلوا من أنوار أسرارها وعلومها لأن النفس ، إذا ماتت ، حييت الروح ، وفاضت عليها العلوم اللدنية ، فكلوا منها ، وأطعموا السائل والمتعرض لنفحاتكم. وقوله تعالى : لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها .. الآية ، قال الورتجبي : الإشارة فيه إلى جميع الأعمال الصالحة من العرش إلى الثرى ، لا يلحق الحق بحق المراد منه ، ولكن يصل إليه قلب جريح من محبته ، ذبح بسيف شوقه ، مطروح على باب عشقه. قال سهل فى قوله : (وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى) : هو التبري والإخلاص. هـ.

قال القشيري : لا عبرة بإظهار الأفعال ، سواء كانت بدنية أو مالية صرفا ، أو مما يتعلق بالوجهين ، ولكن العبرة بقرائنها من الإخلاص ، فاذا انضاف إلى الجوارح إخلاص القصود ، وتجرّدت عن ملاحظة أصحابها الأغيار ، صلحت للقبول ، وينال صاحبها القرب ، بشهود الحق بنعت التفرد. ثم قال : (لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ) وأرشدكم إلى القيام بحقّ العبودية على قضية الشرع ، (وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) ، الإحسان ، كما فى الخبر : «أن تعبد اللّه كأنك تراه». وأمارة صحته : سقوط تعب القلب عن صاحبه ، فلا يستثقل شيئا ولا يتبرم بشيء. هـ. قلت : خواطر الاستثقال والتبرم لا تضر لأنه طبع بشرى ، وإنما يضر ما سكن فى القلب.

---

(١) من الآية ٩١ من سورة الأنعام.

وقال فى الإحياء : ليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم ، بل ميل القلب عن حب الدنيا ، وبذلها إيثارا لوجه اللّه تعالى ، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة ، وإن عاق عن العمل عائق. فلن ينال اللّه لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم ، والتقوى هاهنا عمل القلب ، من نية القربة ، وإرادة الخير ، وإخلاص القصد لله ، وهو المقصود ، وعمل الظاهر مؤكد له ، ولذلك كانت

نية المؤمن أبلغ من عمله فإنّ الطاعات غذاء القلوب ، والمقصود : لذة السعادة بلقاء اللّه تعالى ، والتنعم بها ، وذلك فرع محبته والأنس به ، ولا يكون إلّا بذكره ، ولا يفرغ إلا بالزهد فى الدنيا ، وترك شواغلها ، والانقطاع عنها. هـ.

ومن كانت هذه صفته كان من المحسنين ، الذين يدفع اللّه عنهم المكارة والعوائق ، كما قال تعالى :

[سورة الحج (٢٢) : آية ٣٨]

إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ يدفع غائلة المشركين عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا فلا يقدرون أن يعوقوهم عن شىء من عبادة اللّه ، بل ينصرهم ويؤيدهم كما قال تعالى : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا» ، وصيغة المفاعلة : إمّا للمبالغة ، أو للدلالة على تكرير الدفع ، فإنها قد تجرد عن وقوع الفعل المتكرر من الجانبين ، فيبقى تكرره من جانب واحد ، كما فى المحارسة ، أي : يبالغ فى دفع ضرر المشركين وشوكتهم ، التي من جملتها صدهم عن سبيل اللّه ، مبالغة من يغالب فيه ، أو يدفعها عنهم مرة بعد أخرى ، بحسب تجرد قصد الإضرار بالمسلمين ، كما فى قوله : كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ «٢»

. وقرأ المكي والبصري : «يُدافِعُ».

ثم علل ذلك الدفع بقوله : إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ أي : لأنّ اللّه يبغض كل خوان فى أمانة اللّه تعالى ، وهى : أوامره ونواهيه ، ومن أعظمها : الإيمان باللّه ورسوله. أو فى جميع الأمانات ، كفور لنعم اللّه. والمعنى : إن اللّه يدافع عنهم لأنه يبغض أعداءهم ، وهم : الخونة الكفرة ، الذين يخونون اللّه والرسول ، ويخونون أماناتهم. وصيغة المبالغة فيها لبيان أنهم كذلك فيهما ، لا لتقييد البعض بغاية الجناية فإن الخائن ممقوت مطلقا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إن اللّه يدفع عن أوليائه ، والمتوجهين إليه ، كل عائق وشاغل ، وغائلة كل غائل ، الذين حازوا ذروة الإيمان ، وقصدوا تحقيق مقام الإحسان. فمن رام صدّهم عن ذلك فهو خائن كفور ، (إن اللّه لا يحب كل خوّان كفور).

---

(١) من الآية ٥١ من سورة غافر.

(٢) من الآية ٦٤ من سورة المائدة.

ثم أمر بجهاد من صدهم وعاقهم عن سبيل اللّه ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٣٩ الى ٤١]

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)

قلت : (إلا أن يقولوا) ، قيل : منقطع. وقال الزمخشري : فى محل الجر ، بدل من حق. هـ. وهو على طريق قول الشاعر :

لا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

يقول الحق جل جلاله : أُذِنَ أي : رخص وشرع ، أو أذن اللّه لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ أي : يقاتلهم الكفار المشركون ، وحذف المأذون فيه لدلالة «يقاتلون» عليه ، أي : فى قتالهم ، بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا أي : بسبب كونهم مظلومين ، وهم أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديدا ، وكانوا يأتون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج ، فيتظلمون إليه ، فيقول لهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «اصبروا فإنى لم أومر بالقتال». حتى هاجر ، فنزلت هذه الآية «١»

. وهى أول آية نزلت فى الجهاد ، بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية.

وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. وعد لهم بالنصر ، وتأكيد لما مرّ من العدة الكريمة بالدفع ، وتصريح بأن المراد ليس مجرد تخليصهم من يد المشركين ، بل بغلبتهم وإظهارهم عليهم. وتأكيده بكلمة التحقيق. واللام لمزيد تحقيق مضمونه ، وزيادة توطين نفوس المؤمنين.

ثم وصف الذين أذن لهم ، أو فسرهم ، أو مدحهم بقوله : الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ ، يعنى مكة : بِغَيْرِ حَقٍّ بغير ما يوجب إخراجهم إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ أي : بغير موجب سوى التوحيد ، الذي ينبغى أن يكون موجبا للإقرار لا للإخراج. ومثله : هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ «٢»

.

وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ : لو لا أن يدفع اللّه الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ بتسليط المؤمنين على الكافرين فى كل عصر وزمان ، وإقامة الحدود وكف الظالم ، لَهُدِّمَتْ أي : لخربت باستيلاء الكفرة على الملل ، صَوامِعُ :

---

(١) عزاه الواحدي فى الأسباب (٣١٨) والبغوي فى التفسير (٥/ ٣٨٨) للمفسرين.

(٢) من الآية ٥٩ من سورة المائدة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٣٨

جمع صومعة – بفتح الميم ، وهى : متعبد النصارى والصابئين منهم ، ويسمى أيضا الدير. وسمى بها موضع الأذان فى الإسلام : وَبِيَعٌ : جمع بيعة – بكسر الباء – : كنائس النصارى ، وَصَلَواتٌ : كنائس اليهود ، سميت بما يقع فيها ، . وأصلها : صلوتا بالعبرانية ، ثم عربت ، وَمَساجِدُ للمسلمين ، يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً أي : ذكرا كثيرا ، أو وقتا كثيرا ، صفة مادحة للمساجد ، خصت بها دلالة على فضلها وفضل أهلها. وقيل يرجع للأربع ، وفيه نظر فإنّ ذكر اللّه تعالى فى الصوامع والبيع والكنائس قد انقطع بظهور الإسلام ، فقصد بيانه ، بعد نسخ شرائعها مما لا يقتضيه المقام ، ولا ترتضيه الأفهام. وقدمت الثلاثة على المساجد لتقدمها وجودا ، أو لقربها من التهديم.

وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ أي : وتاللّه ، لينصرن اللّه من ينصر دينه ونبيه – عليه الصلاة والسلام – وأولياءه. ومن نصره : إشهاره وإظهاره ، وتعليمه لمن لا يعلمه ، وإعزاز حامل لوائه من العلماء والأولياء. وقد أنجز اللّه وعده ، حيث سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم ، وأورثهم أرضهم وديارهم ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ : غالب على كل ما يريد ، ومن جملته : نصرهم وإعلاؤهم.

ثم وصف الذين أخرجوا من ديارهم بقوله : الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ قلت : الصواب ما قاله مكى : أنه بدل من : «من ينصره» ، فى محل نصب.

قيل : المراد بهم : الصحابة – رضى اللّه عنهم – ، وقيل : الأمة كلها. وقيل : الخلفاء الأربعة لأنهم هم الذين مكّنوا فى الأرض بالخلافة ، وفعلوا ما وصفهم اللّه به. وفيه دليل صحة أمر الخلفاء الراشدين لأن اللّه – عز وجل – أعطاهم التمكين ، ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة. وعن عثمان رضى اللّه عنه : (هذا ، واللّه ، ثناء قبل بلاء) ، يعنى : أن اللّه تعالى أثنى عليهم قبل ظهور الشر من الهرج والفتن فيهم. وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ فإنّ مرجعها إلى حكمه وتقديره فقط.

وفيه تأكيد للوعد بإظهار أوليائه وإعلاء كلمته.

الإشارة : إذا اتصل الإنسان بشيخ التربية فقد أذن له فى جهاد نفسه ، إن أراد الوصول إلى حضرة ربه لأنها ظالمة تحول بينه وبين سعادته الأبدية. وإن اللّه على نصرهم لقدير لأن همّة الشيخ تحمله وتنصره بإذن اللّه. وأما إن لم يتصل بشيخ التربية ، فإن مجاهدته لنفسه لا تصيب مقاتلها لدخولها تحت الرماية ، فلا يصيبها ضربه ، وأما الشيخ فلأنه يريه مساوئها ويعينه على قتلها.

وقوله تعالى : الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ هم الذين أمروا بقتل نفوسهم ، فإنهم إذا خرقوا عوائد

نفوسهم ، وخرجوا عن عوائد الناس ، رفضوهم وأنكروهم ، وربما أخرجوهم من ديارهم ، فقلّ أن تجد وليا بقي فى وطنه الأول ، وما نقموا منهم وأخرجوهم إلا لقصدهم مولاهم ، وقولهم : ربّنا اللّه دون شيء سواه ، فحيث خرجوا عن

(٥٣٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٣٩

عوائدهم وقصدوا مولاهم ، أنكروهم وأخرجوهم من أوطانهم ، ولو لا دفع الناس بعضهم ببعض بأن شفع خيارهم فى شرارهم ، لهدمت دعائم الوجود لأنّ من آذى وليا فقد آذن بالحرب.

قال القشيري : (وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ) ، أي : يتجاوز عن الأصاغر لقدر الأكابر استبقاء لمنازل العبادة ، تلك سنّة أجراها. ثم قال : (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ) ، أي : لم يشتغلوا فى ذلك بحظوظ ، ولكن قاموا لأداء حقوقنا. هـ.

ولمّا بشّر نبيّه – عليه الصلاة والسلام – مع المؤمنين ، بالدفع والنصر على سائر الملل ، سلّاه عن تكذيب قومه بقوله :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٤٢ الى ٤٥]

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ يا محمد ، أي : أهل مكة ، فلا تحزن فلست بأول من كذب ، فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ أي : قبل قومك قَوْمُ نُوحٍ نوحا ، وَعادٌ هودا ، وَثَمُودُ صالحا ، وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ إبراهيم ، وَقَوْمُ لُوطٍ لوطا ، وَأَصْحابُ مَدْيَنَ شعيبا ، وَكُذِّبَ مُوسى كذّبه فرعون والقبط. ولم يقل : وقوم موسى لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل ، وإنما كذبه القبط. أو : كأنه لمّا ذكر تكذيب كلّ قوم رسولهم ، قال : وكذّب موسى ، مع وضوح آياته وظهور معجزاته ، فما ظنك بغيره؟ فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ :

أمهلتهم وأخرت عقوبتهم ، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ : عاقبتهم على كفرهم ، أي : أخذت كل فريق من فرق المكذبين ، بعد انقضاء مدة إملائه وإمهاله ، فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ أي : إنكارى وتغييرى حيث أبدلتهم بالنعم نقما ، وبالحياة هلاكا ، وبالعمارة خرابا ، فكان ذلك فى غاية ما يكون من الهول والفظاعة.

فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أي : كثيرا من القرى أهلكناها وخربناها بإهلاك أهلها ، وَهِيَ ظالِمَةٌ أي : والحال أنها ظالمة بالكفر والمعاصي ، فَهِيَ خاوِيَةٌ : ساقطة على عُرُوشِها ، من خوى النجم : سقط. والمعنى أنها ساقطة على سقوفها ، أي : خربت سقوفها على الأرض ، ثم تهدمت حيطانها فسقطت

فوق السقوف. ويجوز أن يكون «على عروشها» : خبرا بعد خبر ، أي : فهى خالية من السكان ، وهى على عروشها ، أي : قائمة مشرفة على السقوف الساقطة. وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ أي : وكم من بئر متروكة مهملة فى البوادي والحواضر ، لا يستسقى منها

(٣/٥٣٩)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٤٠

لهلاك أهلها مع توفير مائها ، وَقَصْرٍ مَشِيدٍ : مرفوع البنيان ، من شاد البنيان : إذا رفعه ، أو مجصّص بالشيد ، أي : الجص ، أي : مبنيا بالشيد والجندل.

وقال الضحاك : كانت هذه البئر المعطلة بحضر موت ، فى بلدة يقال لها : حاضوراء ، وذلك أن أربعة آلاف ممن آمن بصالح ، ونجوا من العذاب ، أتوا حضر موت ، ومعهم صالح ، فلما حضروا ذلك الموضع ، مات صالح ، فسمى حضر موت لأن صالحا لما حضره مات ، فبنوا حاضوراء ، وقعدوا على هذه البئر ، فأقاموا دهرا طويلا ، وتناسلوا حتى كثروا ، ثم عبدوا الأصنام وكفروا ، فأرسل اللّه إليهم نبيا يقال له : «حنظلة بن صفوان» ، فقتلوه فأهلكهم اللّه ، وعطلت بئرهم وخربت قصورهم «١»

. هـ.

وحاصل المعنى : وكم قرية أهلكناها ، وكم بئر عطلناها عن سقاتها ، وقصر مشيد أخليناه عن ساكنه ، أي ، أهلكنا البادية والحاضرة جميعا ، فخلت القصور عن أربابها ، والآبار عن روادها. فالأظهر أن البئر والقصر على العموم.

الإشارة : ما سلّى به الرسل – عليهم السلام – تسلى به الأولياء – رضوان اللّه عليهم – فتكذيب أهل الخصوصية سنّة ماضية ، غير أن مكذبى الرسل يعاجلون بالعقوبة ، ومكذبى الأولياء يعاقبون بالبعد والحجاب. وقال القشيري :

(و بئر معطلة) ، الإشارة إلى العيون المفجرة من بواطنهم ، (و قصر مشيد) الإشارة إلى تعطيل أسرارهم عن ساكنيها ، من الهيبة والأنس وسائر المواجيد. هـ. قلت : وكأنه فسر القرية بالقلب ، وهلاكه : خلاؤه من نور التوحيد ، فقلوب الغافلين خاوية على عروش عقولهم ، المطموس نورها ، وعيون بواطنهم معطلة من الفكرة ، وأسرارهم خاربة من نور النظرة. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمر بالاعتبار بمن سلف من القرون المهلكة والآبار المعطلة ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٤٦ الى ٤٨]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ

رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨)

---

(١) ذكر البغوي في التفسير (٥/ ٣٩٠).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٤١

قلت : (أ فلم) : الفاء عطف على مقدر أي أغفلوا فلم يسيروا فيعتبروا ، (فإنها) : ضمير القصة ، أو مبهم يفسره ما بعده. و(لن يخلف اللّه وعده) : حالية ، أي : ينكرون مجيء العذاب الموعود ، والحال : أنه تعالى لا يخلف وعده ، أو اعتراضية مبينة لما ذكر ، و(إنّ يوما) : استئنافية ، إن كانت الأولى حالية ، ومعطوفة ، إن كانت اعتراضية سيقت لبيان خطأهم.

يقول الحق جل جلاله : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فيروا مصارع من أهلكهم اللّه بكفرهم ، ويشاهدوا آثارهم الدارسة وقصورهم الخالية ، وديارهم الخربة ، فيعتبروا. وهو حث لهم على السفر ليشاهدوا ذلك. فَتَكُونَ لَهُمْ بسبب ما شاهدوه من مظان الاعتبار ومواطن الاستبصار قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها ما يجب أن يعقل من التوحيد ونحوه ، أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها ما يجب أن يسمع من الوحى أو من أخبار الأمم المهلكة ممن يجاورهم من الناس فإنهم أعرف بحالهم. قال ابن عرفة : لما تضمن الكلام السابق إهلاك الأمم السالفة ، وبقيت آثارهم خرابا ، عقبه بذم هؤلاء فى عدم اتعاظهم بذلك. والسير فى الأرض : إمّا حسى ، أو معنوى باعتبار سماع أخبارها من الغير ، أو قراءتها فى الكتب. فقوله : (فتكون لهم قلوب) : راجع للسير الحسى ، وقوله : (أو آذان) للسير المعنوي. هـ.

فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ الحسية ، وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ عن التفكر والاعتبار ، أي : ليس الخلل فى مشاعرهم ، ولكن الخلل فى عقولهم ، باتباع الهوى والانهماك فى الغفلة. وذكر الصدور للتأكيد ، ونفى توهم التجوز لأن قلب الشيء : لبه ، فربما يقال : إن القلب يراد به غير هذا العضو ، ولكل إنسان أربع أعين : عينان فى رأسه ، وعينان فى قلبه ، وتسمى البصيرة ، فإن انفتح ما فى القلب ، وعمى ما فى الرأس فلا يضر ، وإن انفتح ما فى الرأس وانطمس ما فى القلب لم ينفع ، والتحق بالبهائم ، بل هو أضل.

ثم ذكر علامة عمى القلوب ، وهو الاستهزاء بالوعد الحق ، فقال : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ المتوعد به استهزاء وإنكارا وتعجيزا ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ أي : يستعجلون به ، والحال أنه تعالى لا يخلف وعده أبدا ، وقد سبق الوعد به ، فمن لا يخلف وعده فلا بد من مجيئه ، ولو بعد حين. وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ أي : كيف يستعجلونك بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه فى طول ألف سنة

من سنيكم لأن أيام الشدة طوال. وقيل : تطول حقيقة ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : «يدخل الفقراء الجنّة قبل الأغنياء بنصف يوم ، وذلك خمسمائة سنة» «١»

.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الزهد ، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم) ، وابن ماجة فى (الزهد ، باب منزلة الفقراء) ، من حديث أبى هريرة ، وأبى سعيد الخدري رضى اللّه عنهما. وبنحوه أخرجه أبو داود فى (العلم ، باب فى القصص) من حديث أبى سعيد الخدري.

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها أي : كثيرا من أهل قرية كانوا ظالمين مثلكم ، قد أمهلتهم حينا وأمليت لهم ، كما أمليت لكم ، ثم أخذتهم بالعذاب والنكال بعد طول الإملاء والإمهال. والإملاء هو الإمهال مع إرادة المعاقبة. وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ أي : المرجع إلىّ ، فلا يفوتنى شىء من أمر المستعجلين وغيرهم ، أو : إلى حكمى مرجع الكل ، لا إلى غيرى ، لا استقلالا ولا شركة ، فأفعل بهم ما يليق بأعمالهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : عمى القلوب هو انطماس البصيرة ، وعلامة انطماسها أمور : إرسال الجوارح فى معاصى اللّه ، والانهماك فى الغفلة عن اللّه ، والوقيعة فى أولياء اللّه ، والاجتهاد فى طلب الدنيا مع التقصير فيما طلبه منه اللّه.

وفى الحكم : «اجتهادك فيما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منك ، دليل على انطماس البصيرة منك». وعلامة فتحها أمور : المسارعة إلى طاعة اللّه ، واستعمال المجهود فى معرفة اللّه ، بصحبة أولياء اللّه ، والإعراض عن الدنيا وأهلها ، والأنس باللّه ، والغيبة عن كل ما سواه. واعلم أن البصر والبصيرة متقابلان فى أصل نشأتهما ، فالبصر لا يبصر إلا الأشياء الحسية الحادثة ، والبصيرة لا تبصر إلا المعاني القديمة الأزلية ، فإذا انطمست البصيرة كان العبد مفروقا عن اللّه ، لا يرى إلا الأكوان الظلمانية الحادثة. وفى ذلك يقول المجذوب رضى اللّه عنه :

من نظر الكون بالكون غرّه : فى عمى البصيرة. ومن نظر الكون بالمكون : صادق ، علاج السريرة

وإذا انفتحت البصيرة بالكلية استولى نورها على نور البصر ، فانعكس نور البصر إلى البصيرة ، فلا يرى العبد إلا أسرار المعاني الأزلية ، المفنية للأوانى الحادثة ، فيغيب عن رؤية الأكوان بشهود المكون. وعلاج انفتاحها يكون على يد طبيب ماهر عارف باللّه ، يقدحها له بمرود التوحيد ، فلا يزال يعالجها

بإثمد توحيد الأفعال ، ثم توحيد الصفات ، ثم توحيد الذات ، حتى تنفتح. فتوحيد الأفعال والصفات يشهد قرب الحق من العبد ، وتوحيد الذات يشهد عدمه لوجود الحق ، وهو الذي أشار إليه فى الحكم بقوله : «شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق ، لا عدمك ولا وجودك. كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان». فيرى حينئذ من أسرار الذات وأنوار الصفات ما لا يراه الناظرون ، ويشاهد ما لا يشاهده الجاهلون. وفى ذلك يقول الحلاج :

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يرى للنّاظرينا
وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت ربّ العالمينا
وألسنة بأسرار تناجى تغيب عن الكرام الكاتبينا

(٥٤٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٤٣

وقال الورتجبي : الجهال يرون الأشياء بأبصار الظواهر ، وقلوبهم محجوبة عن رؤية حقائق الأشياء ، التي هى تلمع منها أنوار الذات والصفات ، وأعماهم اللّه بغشاوة الغفلة وغطاء الشهوة. هـ.

ثم أمر نبيه بالجواب عن استعجالهم العذاب ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٤٩ الى ٥١]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (٥١)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أي : أنذركم إنذارا مبينا بما أوحى إليّ من أخبار الأمم المهلكة ، من غير أن يكون لى دخل فى الإتيان بما توعدونه من العذاب الذي تستعجلونه .. وإنما لم يقل : نذير وبشير ، مع ذكر الفريقين بعده لأن الحديث مسوق إلى المشركين فقط. والمراد بالناس : الذين قيل فيهم : (أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) ، ووصفوا بالاستعجال ، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم زيادة فى غيظهم. فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لذنوبهم ، وَرِزْقٌ كَرِيمٌ أي : حسن ، وهى الجنة.

والكريم من كل نعيم : ما يجمع فضائله ويحوز كمالاته.

وَالَّذِينَ سَعَوْا ، يقال : سعى فى أمر فلان : إذا أفسده بسعيه ، أي : أفسدوا فِي آياتِنا أي : القرآن بسعيهم فى إبطاله ، مُعاجِزِينَ أي : مسابقين. وقرأ المكي والبصري : «معجّزين». بالشد ، أي : مثبّطين الناس عن الإيمان. يقال : عاجزه : سابقه لأنّ كل واحد منهما يطلب عجز الآخر ، واللحوق به ، فإذا

غلبه ، قيل : أعجزه وعجزه. والمعنى : سعوا فى معناها بالفساد من الطعن فيها ، حيث سمّوها سحرا وشعرا وأساطير الأولين ، مسابقين فى زعمهم وتقديرهم ، طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم. أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ أي : ملازموا النار الموقودة. وقيل : هو اسم دركة من دركاتها.

الإشارة : الدعاة إلى اللّه تعالى إنما شأنهم التحذير والتبشير ، ثم ينظرون ما يفعل اللّه فى ملكه وخلقه ، من هداية أو إضلال ، وليس من شأنهم طلب ظهور المعجزات ، أو الكرامات ، ولا الحرص على هداية الخلق بالكد والاجتهاد ، إنما شأنهم التذكير ، ويردون الأمر إلى الملك القدير ، فلا يتأسفون على من تخلف عنهم.

وكان عليه الصلاة والسلام – يحرص على هداية قومه ، فلما نهاه الحق تعالى عن ذلك ، رجع وتأدب بكمال العبودية ، وبه اقتدى خلفاؤه من بعده ، فكان صلى اللّه عليه وسلم فى أول أمره يتمنى أن ينزل عليه ما يقارب بينه وبين قومه ، لعلهم يتدبرون فيما ينزل عليه فيسلموا ، فقرأ يوما سورة النّجم ، فألقى فى مسامعهم ما يدل على مدح آلهتهم ، فحزن

(٥٤٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٤٤

– عليه الصلاة والسلام – حين نسبوا ذلك له ، فسلّاه اللّه تعالى بقوله :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٥٢ الى ٥٤]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤)

قال ابن عباس وغيره من المفسرين الأولين – رضى اللّه عنهم – : لما رأى النبي صلى اللّه عليه وسلم مباعدة قومه وتوليهم ، وشق عليه ذلك تمنى أن يأتيه من اللّه تعالى ما يقارب بينه وبين قومه ، فجلس يوما فى جمع لهم ، فنزلت سوة النجم ، فقرأها عليهم ، فلما بلغ : أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى «١»

، ألقى الشيطان على لسانه «٢»

:

تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهم لترجى هـ. قلت : بلى ، ألقى ذلك فى مسامعهم فقط ، ولم ينطق بذلك – عليه الصلاة والسلام – فلما سمعت ذلك قريش فرحوا ، ثم سجد النبي صلى اللّه عليه وسلم

فى آخر السورة ، وسجد المسلمون والمشركون ، إلا الوليد بن المغيرة ، رفع حفنة من التراب وسجد عليه ، فقالت قريش : ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر ، وقالوا : قد عرفنا أن اللّه يحيى ويميت ، ويخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، فإذا جعل محمد لها نصيبا فنحن معه ، فلما أمسى أتاه جبريل. فقال يا محمد ما صنعت فقد تلوت على الناس ما لم آتك به؟ فحزن النبي صلى اللّه عليه وسلم حزنا شديدا ، فنزلت الآية تسلية له عليه الصلاة والسلام.

فقال جل جلاله : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ، يوحى إليه بشرع ، ويؤمر بالتبليغ ، وَلا نَبِيٍّ يوحى إليه ، ولم يؤمر بالتبليغ ، فالرسول مكلف بغيره ، والنبي مقتصر على نفسه ، أو الرسول : من بعث بشرع جديد ، والنبي : من قرر شريعة سابقة ، ولذلك شبه صلى اللّه عليه وسلم علماء أمته بهم ، فالنبى أعم من الرسول ، وقد سئل – عليه

---

(١) الآيتان : ١٩ – ٢٠ من سورة النجم.

(٢) النبي صلى اللّه عليه وسلم معصوم من مثل ما جاء فى قصة الغرانيق ، ونسبة هذا إلى سيدنا ابن عباس وغيره – رضى اللّه عنهما – لا يصح. وقد رد المحققون من المحدثين والمفسرين ، القصة أصلا ، وبينوا زيفها ، ونقدوها سندا ومتنا. يقول القاضي عياض فى الشفاء (٢/ ٧٥٠) : يكفيك فى توهين هذا الحديث أنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم متصل. وإنما أولع به وبمثله المفسرون.

للمزيد راجع : تفسير القرطبي (١٢/ ٧٩) الآلوسى (١٧/ ١٧٥ – ١٨٤) وكتاب الشفاء للقاضى عياض (٢/ ٧٥٠) والإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير : ص ٣١٤ وما بعدها.

الصلاة والسلام – عن الأنبياء ، فقال : «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، قيل : فكم الرّسل منهم؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر ، جمّا غفيرا» «١»

.

إِلَّا إِذا تَمَنَّى هيأ فى نفسه ما يهواه كهداية قومه ومقاربتهم له ، أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فى تشهيه ما يوجب حصول ما تمناه ، أو مقاربته ، كما ألقى فى مسامع قريش ما يوجب مقاربتهم له – عليه الصلاة والسلام – ثم ينسخ اللّه ذلك. أو (إذا تمنى) : قرأ ، كما قال الشاعر :

تمنّى كتاب اللّه أوّل ليلة تمنّى داود الزّبور على رسل

أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ : فى قراءته ، حين قرأ سورة النجم بعد قوله : (وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى) ، تلك الغرانيق العلى ، كما تقدم.

قال القشيري : كانت لنبينا صلى اللّه عليه وسلم سكتات ، فى خلال قراءته عند قراءة القرآن ، عند انقضاء كل آية ، فتلفظ الشيطان ببعض الألفاظ ، فمن لم يكن له تحصيل توهم أنه من ألفاظ الرسول. هـ. وقال ابن البنا : التمني هو التلاوة التي يتمنى فيها ، فيتلو النبي وهو يريد أن يفهم عنه معناها ، فيلقى الشيطان فى فهوم السامعين غير المعنى المراد ، وما قال الزمخشري : قرأ تلك الغرانيق العلى ، على جهة السهو والغلط ، فباطل ، لقول اللّه العظيم : وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى «٢» ، فهو معصوم من السهو والغلط فى تبليغ الوحى هـ.

قلت : فتحصل أنه – عليه الصلاة والسلام – لم ينطق بتلك الكلمات قط ، لا سهوا ولا عمدا ، وإنما ألقيت فى مسامع الكفار ليحصل ما تمناه – عليه الصلاة والسلام – من المقاربة. ويدل على هذا أن من حضر من المسلمين لم يسمعوا من ذلك شيئا ، فإذا تقرر هذا علمت أن ما حكاه السلف الصالح من المفسرين وأهل السّير من أصل القصة فى سبب نزول الآية صحيح ، لكنه يحتاج إلى نظر دقيق وتأويل قريب ، فلا تحسن المبادرة بالإنكار والرد عليهم ، وهم عدول ، لا سيما حبر هذه الأمة ، وإنما يحتاج اللبيب إلى التطبيق بين المنقول والمعقول ، فإن لم يمكن ، قدّم المنقول ، إن ثبتت صحته ، وحكم على العقل بالعجز. هذا مذهب المحققين من الصوفية – رضى اللّه عنهم – ونسبة الإلقاء إلى الشيطان أدب وتشريع إذ لا فاعل فى الحقيقة سواه تعالى.

فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ أي : يذهب به ويبطله ، أو يرشد إلى ما يزيحه ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ أي :

يثبتها ويحفظها عن لحوق الزيادة من الشيطان ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ أي : عليم بما يوحى إلى نبيه ، حكيم فى وحيه ، لا يدع الباطل يأتيه من بين يديه ولا من خلفه.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٢٦٥) ، والطبراني فى الكبير (٨/ ٢٥٩) ، عن أبى أمامة ، أن أبا ذر سأل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ... الحديث ، وفيه : «وخمسة عشر» ، وأخرجه ، بلفظ المفسر ، ابن حبان فى (العلم ، باب السؤال للفائدة ، ح ٩٤ موارد) ، والبيهقي فى السنن الكبرى (٩/ ٤) عن أبى ذر.

(٢) الآيتان : ٣ – ٤ فى سورة النجم.

ثم ذكر حكمة ذلك الإلقاء ، فقال : لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً أي : محنة وابتلاء لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : شك وشرك ، وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ البعيدة من الخير ، الخاربة من النور ، واليابسة الصلبة ، لا رحمة فيها ولا شفقة وهم المشركون المكذبون ، فيزدادون به شكا وظلمة. وَإِنَّ الظَّالِمِينَ وهم الكفرة المتقدمة ، ووضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالظلم ، لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ أي : عداوة شديدة ومخالفة تامة بعيدة عن الحق.

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ باللّه أَنَّهُ أي : القرآن الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ أي : النازل من عنده فَيُؤْمِنُوا بِهِ أي : بالقرآن فَتُخْبِتَ : تطمئن ، أو تخشع لَهُ قُلُوبُهُمْ بالانقياد إليه والإذعان لما فيه ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ بالنظر الموصل إلى الحق الصريح ، فيتأولوا ما تشابه فى الدين بالتأويلات الصحيحة ، ويطلبوا ، لما أشكل منه ، المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة ، حتى لا يلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا وقع التعبير من جانب الحق فكل واحد من المستمعين يسمع ما يليق بمقامه ويقويه فيه. فأهل الباطل يسمعون ما يليق بباطلهم ويمدهم فيه ، وأهل الحق يسمعون ما يليق بحقهم ويرقيهم ، فأهل الإيمان يسمعون ما يقوى إيمانهم ويزيدهم يقينا ، وأهل الوصول يسمعون ما يليق بمقامهم ويرقيهم فيه ، وهكذا. وتأمل قضية الثلاثة الذين سمعوا قائلا يقول : يا سعترا برى. فسمع أحدهم : اسع تر برى ، وسمع الآخر : الساعة ترى برى ... وسمع الثالث : ما أوسع برى ، فالأول : طالب للوصول ، فقال له : اسع تر برى ، والثاني : سائر مستشرف على الوصول ، فقال له : الساعة ترى برى ، والثالث : واصل قد اتسع عليه ميدان النعم ، فقال له : ما أوسع برى. وكل من قدم على الأولياء فإنما يسمع بحسب ما عنده فمن قدم عليهم بالميزان لا يسمع إلا ما يبعده ، ومن قدم بالتصديق والتعظيم لا يسمع ولا يرى إلا ما يقربه من الكمالات والأنوار. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر ضد الذين أوتوا العلم الذين تحققوا بحقية القرآن ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٥٥ الى ٥٩]

وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (٥٧) وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩)

يقول الحق جل جلاله : وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ : شك مِنْهُ من القرآن ، أو الصراط المستقيم ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً : فجأة ، أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ، وهو عذاب يوم القيامة ، كأنه قيل : حتى تأتيهم الساعة أو عذابها ، فزاد «اليوم العقيم» لمزيد التهويل. واليوم العقيم : الذي لا يوم بعده ، كأنّ كل يوم يلد ما بعده من الأيام ، فما لا يوم بعده يكون عقيما. وقيل : اليوم العقيم : يوم بدر ، فهو عقيم عن أن يكون للكافرين فيه فرح أو راحة ، كالريح العقيم لا تأتى بخير ، أو لأنه لا مثل له فى عظم أمره لقتال الملائكة فيه ، ولكن لا يساعده ما بعده ، من قوله : الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ أي : السلطان القاهر ، والتصرف التام ، يومئذ لله وحده ، ولا منازع له فيه ، ولا تصرف لأحد معه ، لا حقيقة ولا مجازا ، ولا صورة ولا معنى ، كما فى الدنيا ، فإنّ للبعض فيه تصرفا مجازيا صوريا. يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أي : بين فريق أهل المرية وأهل الإيمان.

ثم بيّن حكمه فيهم ، فقال : فَالَّذِينَ آمَنُوا بالقرآن الكريم ولم يماروا فيه ، وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ امتثالا لما أمر به فى تضاعيفه فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بالقرآن وشكوا فيه ، أو بالبعث والجزاء ، وَكَذَّبُوا بِآياتِنا الدالة على كمال قدرتنا أو القرآن ، فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ ، يهينهم ويخزيهم.

ثم خص قوما من الفريق الأول بفضيلة ، فقال : وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ : خرجوا من أوطانهم مجاهدين ، ثُمَّ قُتِلُوا فى الجهاد ، أَوْ ماتُوا حتف أنفهم ، لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً ، وهو ما لا ينقطع من نعيم الجنان. ومراتب الحسن متفاوته ، فيجوز تفاوت حال المرزوقين ، حسب تفاوت أرزاق الجنة. روى أن بعض أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم قالوا : يا نبى اللّه هؤلاء الّذين قتلوا فى سبيل اللّه قد علمنا ما أعطاهم اللّه من الخير ، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا ، فما لنا معك؟ فنزلت : (وَ الَّذِينَ هاجَرُوا ...) الآيتين. وقيل : نزلت فى طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة ، فتبعهم المشركون فقتلوهم. ثم قال تعالى : وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ، فإنه يرزق بغير حساب ، مع أنّ ما يرزقه لا يقدر عليه غيره ، لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ، وهو الجنة لأنّ فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، قيل : لمّا ذكر الرزق ذكر المسكن ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ، عليم بأحوال من قضى نحبه مجاهدا ، وآمال من مات وهو ينتظره معاهدا ، حليم بإمهال من قاتلهم معاندا.

الإشارة : من لم يصحب العارفين أهل الرسوخ واليقين ، لا يمكن أن تنقطع عنه خواطر الشكوك والأوهام ، حتى يلقى اللّه بقلب سقيم ، فيفضى إلى الهوان المقيم. والذين هاجروا فى طلب محبوبهم لتكميل يقينهم ، ثم قتلوا قبل الوصول ، أو ماتوا بعد الوصول ، ليرزقنهم اللّه جميعا رزقا حسنا ، وهو لذة الشهود والعيان ، فى مقعد صدق مع

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٤٨

المقربين ، (وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ). والمدخل الذي يرضونه : هو القرب الدائم ، والشهود المتصل. جعلنا اللّه من خواصهم بمنّه وكرمه.

ولمّا ذكر ثواب من هاجر وقتل فى سبيل اللّه ، أو مات ، أخبر أنه لا يدع نصرتهم فى الدنيا على من بغى عليهم ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٦٠ الى ٦٢]

ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)

قلت : (ذلك) : خبر ، أي : الأمر ذلك. و(من عاقب) : شرط سدّ مسد جوابه ، أي : من عاقب بمثل ما عوقب به ينصره اللّه.

يقول الحق جل جلاله : ذلِكَ أي : الأمر ذلك ، كما أخبرتك فى بيان الفريقين ، ثم استأنف فقال : وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ أي : لم يزد فى القصاص على ما فعل به ، وسمى الابتداء عقابا للمشاكلة ولملابسته له ، من حيث إنه سبب له وهو مسبب عنه. ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ أي : من جازى بمثل ما فعل به من الظلم ، ثم ظلم ، بعد ذلك ، وبغى عليه بعد ذلك ، فحق على اللّه أن ينصره إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ يمحو آثار الذنوب ، غَفُورٌ يستر أنواع العيوب.

ومناسبة الوصفين لما قبلهما : أن المعاقب مأمور بالعفو من عند اللّه ، بقوله : فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ «١»

، وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ «٢»

، فحين لم يفعل ذلك ، وانتصر لنفسه ، فكأنه مذنب ، فمعنى العفو فى حقه أنه لا يلزمه على ترك الفضل شيء ، وأنه ضامن لنصره فى الكرة الثانية ، إذا ترك العفو وانتقم من الباغي عليه ، وعرّض ، مع ذلك ، بما كان أولى به من العفو بذكر هاتين الصفتين.

---

(١) من الآية ٤٠ من سورة الشورى. [.....]

(٢) الآية ٤٣ من سورة الشورى.

ثم ذكر دلائل قدرته على النصر وغيره بقوله : ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ أي : ذلك النصر للمظلوم بسبب أنه قادر على ما يشاء. ومن آيات قدرته أنه (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أي : يدخل أحدهما فى الآخر ، فيدخل الليل فى النهار إذا طال النهار ، ويدخل النهار فى الليل إذا طال الليل ، فيزيد فى أحدهما ما ينقص من الآخر. أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما ، بإدخال أحدهما على الآخر ، فلا يخفى عليه ما يجرى فيهما على أيدى عباده من الخير والشر ، والبغي والإنصاف. وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لما يقولون ، لا يشغله سمع عن سمع ، وإن اختلفت فى النهار الأصوات بفنون اللغات ، بَصِيرٌ بما يفعلون ، فلا يستتر عنه شيء بشيء فى الليالى ، وإن توالت الظلمات.

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الواجب لذاته ، الثابت فى نفسه ، الواحد فى صفاته وأفعاله ، فإن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان كونه مبديا لكل ما يوجد من الموجودات ، عالما بكل المعلومات. وإذا ثبت أنه الحق فدينه حق ، وعبادته حق ، وَأَنَّ ما يَدْعُونَ «١»

مِنْ دُونِهِ إلها هُوَ الْباطِلُ أي : المعدوم فى حد ذاته. أو الباطل ألوهيته ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أي : المتعالي عن مدارك العقول ، وعن سمات الحدوث ، أو المرتفع على كل شيء بقهريته ، أو المتعالي عن الأنداد والأشباه ، الكبير شأنا وعظمة وكبرياء إذ كل شيء يصغر دون كبريائه ، فلا شيء أعلى منه شأنا وأكبر سلطانا لأن له الوجود المطلق. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ومن عاقب نفسه وجاهدها وأدّبها فى أيام اليقظة ، بمثل ما عاقبته وجنت عليه وطغت فى أيام الغفلة ، ثم صرعته بعد ذلك وغلبته لينصرنه اللّه عليها ، حتى يغلبها ويملكها ، فكلما هاجت عليه هجم عليها ، حتى يملكها ذلك بأن اللّه يولج ليل المعصية فى نهار الطاعة ، ويولج نهار الطاعة فى ليل المعصية ، أي : يدخل أحدهما على الآخر ، فلا يزال العبد يعصى ويطيع حتى يمنّ عليه بالتوبة النصوح. أو يولج ليل المعصية فى نفس الطاعة ، فتنقلب الطاعة معصية ، إذا صحبها علو واستكبار. ويولج نهار الطاعة فى عين المعصية ، فتنقلب طاعة إذا صحبها ذل وافتقار. ذلك بأن اللّه هو الحق ، وأن ما دونه باطل.

---

(١) قرأ أبو عمرو ، وحمزة والكسائي وحفص ويعقوب ، بالياء ، على الغيب. وقرأ الباقون بالتاء ، على الخطاب .. انظر الإتحاف (٢/ ٢٧٩).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٥٠

ثم ذكر دليلا آخر على قدرته ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٦٣ الى ٦٥]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٦٥)

قلت : (فتصبح) : عطف على «أنزل» ، والعطف بالفاء أغنى عن الضمير ، وإيثار صيغة الاستقبال للإشعار بتجدد أثر الإنزال ، وهو الاخضرار واستمراره ، أو لاستحضار صورة الاخضرار ، وإنما لم ينصب جوابا للاستفهام لأنه لو نصب لبطل الغرض لأن معناه فى الرفع إثبات الاخضرار ، فينقلب فى النصب إلى نفيه ، كما تقول لصاحبك : ألم تر أنى أنعمت عليك فتشكر ، إن نصبته نفيت شكره ، وشكوت من تفريطه ، وإن رفعته أثبت شكره.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد ، أو يا من يسمع ، أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً مطرا فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً بالنبات ، بعد ما كانت مسودة يابسة ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ بعباده ، أو فى ذاته لا يدرك ، خَبِيرٌ بمصالح خلقه ومنافعهم ، أو اللطيف المختص بدقائق التدبير ، الخبير بكل جليل وحقير ، قليل وكثير. لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ملكا وملكا ، قد أحاط بهم قدرة وعلما ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ عن كل شىء ، المفتقر إليه كل شىء ، الْحَمِيدُ : المحمود بنعمته ، قبل ثناء من فى السموات والأرض عليه ، أو المستحق للحمد ، أعطى أو لم يعط.

ثم ذكر موجب الحمد من عباده ، فقال : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ من الأنعام لتأكلوا منها ، ومن البهائم لتركبوها فى البر ، وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ : بقدرته وإذنه ، أي : وسخر لكم المراكب حال كونها جارية فى البحر بإذنه ، وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ أي : يحفظها من السقوط ، بأن خلقها على هيئة متداعية إلى الاستمساك ، إِلَّا بِإِذْنِهِ : إلا بمشيئته ، وذلك يوم القيامة ، وفيه رد لا ستمساكها بذاتها فإنها مساوية لسائر الأجسام فى الجسمية ، فتكون قابلة للميل الهابط قبول غيرها. إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ حيث هيأ لهم هذه الأسباب لقيام معاشهم ، وفتح لهم أبواب المنافع ، ودفع عنهم أنواع المضار ، فأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية ، فله الحمد وله الشكر.

الإشارة : ألم تر أن اللّه أنزل من سماء المعاني ماء علم الغيوب ، وهو علم أسرار الذات وأنوار الصفات ، أعنى :

التوحيد الخاص ، فإذا نزل على أرض النفوس ، اهتزت وربت ، واخضرت بالعلوم والمعارف ، إن اللّه لطيف خبير ، لطيف لسريان معانيه اللطيفة فى كل شىء ، خبير ببواطن كل شىء ، فمن كوشف بلطيف معانيه وإحاطة علمه فى كل شىء ، وبكل شىء ، حيى قلبه بمعرفة اللّه ، واخضرت أرض نفسه بأنواع العلوم والمعارف ، ألم تر أن اللّه سخر لكم ما فى الأرض ، يكون عند أمركم ونهيكم ، وفلك الفكرة تجرى فى بحر التوحيد بأمره ، ويمسك سماء الأرواح أن تقع على أرض الحظوظ إلا بإذنه ، بعد الرسوخ فى معرفته ، والتمكين من الفهم عنه ، إن اللّه بالناس لرؤوف رحيم حيث فتح لهم باب العلوم ، وهيأ لهم أسباب الفهوم ، وهى الرياضة والتأديب.

ثم ذكر دليلا آخر على قدرته ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : آية ٦٦]

وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ (٦٦)

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ بعد أن كنتم جمادا ، عناصر ونطفا فى الأصلاب والأرحام ، حسبما فصل فى صدر السورة ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ عند مجىء آجالكم ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ عند البعث ، لإيصال جزائكم ، إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ : لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم ، ودفع عنه من صنوف النقم ، أو لا يعرف نعمة الإيجاد المظهرة للوجود ، ولا نعمة الإمداد الممدة بعد الوجود ، ولا نعمة الإفناء المقربة إلى الموعود ، ولا نعمة الإحياء الموصلة إلى المقصود ، وهو التنعم فى جوار الملك الودود ، فله الحمد دائما وله الشكر.

الإشارة : وهو الذي أحياكم باليقظة بعد الغفلة ، وبالعلم بعد الجهل ، ثم يميتكم عن حظوظ نفوسكم وهواها ، ثم يحييكم بالمعرفة به ، حياة لا موت بعدها ، فمن لم يعرف هذا فهو كنود.

ولا يمكن الوقوف على هذه النعم والقيام بشكرها ، إلا بالتمسك بالشرع والوحي الإلهى ، الذي أنزل اللّه على كل أمة ، كما أبان ذلك بقوله :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٦٧ الى ٧١]

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٥٢

يقول الحق جل جلاله : لِكُلِّ أُمَّةٍ من الأمم الخالية والباقية جَعَلْنا أي : وضعنا ، وعيّنا مَنْسَكاً : شريعة خاصة يتمسكون بها ، أي : عيّنا كل شريعة لأمة معينة من الأمم ، بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى ، لا استقلالا ولا اشتراكا ، فكل جيل لهم شرع مخصوص ، هُمْ ناسِكُوهُ : عاملون به ، فالأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى – عليهما السلام – منسكهم التوراة ، هم عاملون به لا غيرهم. والتي كانت من مبعث عيسى عليه السّلام إلى مبعث النبي صلى اللّه عليه وسلم منسكهم الإنجيل ، هم ناسكوه وعاملون به. وأما الأمة الموجودة عند مبعث النبي – عليه الصلاة والسلام – ومن بعدهم إلى يوم القيامة فهم أمة واحدة ، منسكهم القرآن ، ليس إلا.

والفاء فى قوله : فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن تعيين كل أمة بشرع مخصوص ، يجب اتباعه ، يوجب اتباع هؤلا الموجودين لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعدم منازعتهم له فى أمر الدين ، أي : فلا يجادلنك فى أمر الدين ، بل يجب عليهم الاستسلام والانقياد لكل أمر ونهى. أو : فلا تلتفت إلى قولهم ، ولا تمكنهم من أن ينازعوك فى الأمر ، أي : أمر الدين أو أمر الذبائح. قيل : نزلت حين قال المشركون للمسلمين : ما لكم تأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتله اللّه؟ يعنى : الميتة ، فأمر اللّه بالغيبة عنهم ، وعدم الالتفات إلى قولهم. وَادْعُ إِلى رَبِّكَ أي : دم على الدعاء إلى اللّه ، والتمسك بدينه القويم إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ : طريق قويم موصل إلى الحق.

وَإِنْ جادَلُوكَ بعد ظهور الحق مراء وتعنتا ، كما يفعله السفهاء ، بعد اجتهادك ألّا يكون بينك وبينهم تنازع وجدال ، فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ أي : فلا تجادلهم ، وادفعهم بهذا القول ، والمعنى : إن اللّه عالم بأعمالكم وما تستحقون عليها من الجزاء ، فهو يجازيكم به. وهذا وعيد وإنذار ، ولكن برفق ولين ، يجيب به العاقل كلّ متعنت سفيه. قال تعالى : اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ من أمر الدين ، وهو خطاب من اللّه تعالى للمؤمنين والكافرين ، تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مما كان يلقى منهم.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ ، الاستفهام للتقرير ، أي : قد علمت أن اللّه يعلم كل ما يحدث فى السماء والأرض ، ولا يخفى عليه شيء من الأشياء ، ومن جملتها : ما تقوله الكفرة وما يعملونه ، إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ فى اللوح المحفوظ ، إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ أي : علمه بجميع ذلك عليه يسير ، فلا يخفى عليه

معلوم ، ولا يعسر عليه مقدور. وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : متجاوزين إياه ، مع ظهور دلائل عظمته وقدرته وتوحيده ، ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً : حجة وبرهانا ، وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ أي : وما ليس لهم بجواز عبادته علم من ضرورة أو استدلال ، أي : لم يتمسكوا فى عبادتهم لها ببرهان سماوى من جهة الوحى ، ولا حملهم عليها دليل عقلى ، بل لمجرد التقليد الرديء ، وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ أي : وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم العظيم من أحد ينصرهم ، أو يصوب مذهبهم ، أو يدفع العذاب عنهم ، حين يعتريهم بسبب ظلمهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كما اختلفت الشرائع باختلاف الملل ، اختلفت التربية باختلاف الأشخاص والأعصار ، وقد تقدم عند قوله : لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً «١»

. وجملتها ترجع إلى الهمة والحال ، وبهما كانت التربية فى الصدر الأول ، فكانت الملاقاة والصحبة تكفى ، ويحصل التهذيب والتصفية وكمال المعرفة. وذلك فى زمان الصحابة والتابعين إلى القرن الثالث لقربهم من النور النبوي. فلما بعد الأمر ، وأظلمت القلوب ، أحدثوا تربية الاصطلاح ، وهو التزيي بزى مخصوص ، كالمرقعة وحمل السبحة فى العنق ، والركوة ، وغير ذلك من مسائل التجريد ، وترتيب أمور تموت بها النفوس وتعالج بها القلوب ، واستعمال أوراد مخصوصة ، فكانت التربية حينئذ بالهمة والحال والاصطلاح. وقد تحصل التربية لمن له الهمة والحال بغير اصطلاح ، إذا رآه ينجع فيه ذلك ، فبقى الأمر كذلك إلى القرن التاسع ، فتصدى للتربية بالاصطلاح قوم مدّعون ، لا همة لهم ولا حال ، فقال الحضرمي حسما لهذه الدعوى : قد انقطعت التربية بالاصطلاح ، وما بقي إلا الهمة والحال ، فعليكم بالكتاب والسنة ، أي :

بظاهر الكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان ، يعنى طريق الأحوال والاصطلاح. ومراده بذلك : قطع التربية بالاصطلاح من غير همة ولا حال. وأما من له الهمة والحال فلا يقصد الحضرمي قطع تربيته بالاصطلاح.

والحاصل : أن الحضرمي ما حكم إلا على وقته لما رأى من الفساد الذي دخل فى التربية. وقد وجد بعده رجال مربون بالاصطلاح مع الهمة والحال. والمراد بالهمة : العلم باللّه على نعت الشهود والعيان ، وبالحال : إنهاض القلوب عند رؤيته لذكر اللّه لقوله – عليه الصلاة والسلام – «خيركم من إذا رؤوا ذكر اللّه». ولا بد من إذن خاص من الشيخ ، أو من يقوم مقامه ، وإلا فلا تنجح تربيته ، ولا ينهض حاله. واللّه تعالى أعلم.

فإن تأهلت للتربية بإذن خاص ، فلا ينازعنك فى الأمر ، أي : لا تلفت إلى من ينازعك ويحتج عليك بانقطاع التربية تعنتا وعنادا. وادع إلى ربك ، إنك لعلى هدى مستقيم. قال القشيري : قوله : (وَ إِنْ جادَلُوكَ ...) إلخ ، أي :

(١) من الآية ٤٨ من سورة المائدة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٥٤

كلهم إلينا ، عند ما راموا أمر الجدال ، ولا تتكل على ما تختاره من الاحتيال ، واحذر جنوح قلبك إلى الاستغاثة بالأمثال والأشكال فإنهم قوالب خاوية. وأشباح من رؤية المعاني خالية. هـ. ويوم القيامة يظهر المحق من المبطل ، ويقال فى شأن من يعبد هواه : (وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ...) الآية.

ثم ذكر وصفا آخر لأهل الإنكار ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : آية ٧٢]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)

قلت : (وَ إِذا تُتْلى) : عطف على «يعبدون» ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددي.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ أي : على المشركين آياتُنا القرآنية ، حال كونها بَيِّناتٍ : واضحات الدلالة على العقائد الحقية ، والأحكام الصادقة ، تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ أي : الإنكار بالعبوس والكراهة ، فالمنكر : مصدر بمعنى الإنكار. يَكادُونَ يَسْطُونَ : يبطشون ، والسطو : الوثب والبطش ، أي. يثبون على الذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا من فرط الغيظ والغضب ، والتالون هم : النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه. قُلْ لهم : أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم ، أو مما أصابكم من الكراهة والضجر ، بسبب ما يتلى عليكم ، هو النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مثلكم ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ النار ، التي ترجعون إليها مخلدين.

الإشارة : من شأن أهل العتو والتكبر أنهم إذا وعظهم الفقراء عنفوا واستنكفوا ، ويكادون يسطون عليهم من شدة الغضب ، فما قيل لكبراء الكفار يجر ذيله على من تشبه بهم من المؤمنين.

ولمّا كان دعواهم الشريك لله تعالى جارية فى الغرابة والشهرة مجرى الأمثال السائرة ، ضرب لها الحق تعالى مثلا ، فقال :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٧٣ الى ٧٤]

يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ أي : يبين لكم حال مستغربة ، أو قصة بديعة رائقة حقيقة بأن تسمى مثلا ، وتنشر فى الأمصار والأعصار ، فَاسْتَمِعُوا لَهُ لضرب هذا المثل استماع تدبر وتفكر ، وهو : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ ، وعن يعقوب : بياء الغيبة ، أي : إن الذين تدعونهم آلهة وتعبدونهم مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً أي : لن يقدروا على خلقه أبدا ، مع صغره وحقارته. و«لن» : لتأبيد النفي ، فتدل على استحالته ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ أي : الذباب. ومحله : نصب على الحال ، كأنه قال : لا يقدرون على خلقه مجتمعين له ، متعاونين عليه ، فكيف إذا كانوا منفردين؟! وهذا أبلغ ما أنزل فى تجهيل قريش ، حيث وصفوا بالألوهية – التي من شأنها الاقتدار على جميع المقدورات ، والإحاطة بكل المعلومات – صورا وتماثيل ، يستحيل منها أن تقدر على أضعف ما خلقه اللّه تعالى وأذله ، ولو اجتمعوا له.

وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً من الطيب وغيره ، لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ أي : هذا الخلق الأرذل الأضعف ، لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه ، لم يقدروا ، وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : أنهم كانوا يطلونها بالعسل والطيب ، ويغلقون عليها الأبواب ، فيدخل الذباب من الكوى «١» فيأكله ، فتعجز الأصنام عن أخذه. ضَعُفَ الطَّالِبُ : الصنم بطلب ما سلب منه ، وَالْمَطْلُوبُ : الذباب بما سلب. وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب فى الضعف ، ولو حققت لوجدت الطالب أضعف وأضعف فإنّ الذباب حيوان والصنم جماد.

ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ : ما عرفوه حق معرفته ، حيث جعلوا هذا الصنم الضعيف شريكا له ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ أي : قادر غالب ، فكيف يتجه أن يكون العاجز المغلوب شبيها له! أو : لقوى ينصر أولياءه ، عزيز ينتقم من أعدائه. بعد أن ذكر تعالى أنهم لم يقدروا له قدرا حيث عبدوا معه من هو منسلخ من صفاته ، وسموه باسمه مع عجزه. ختم بصفتين منافيتين لصفات آلهتهم وهى القوة والغلبة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من تعلق فى حوائجه بغير اللّه أو ركن بالمحبة إلى شيء سواه ، فقد أشرك مع اللّه أضعف شيء وأقله. فماذا يجدى تعلق العاجز بالعاجز ، والضعيف بالضعيف ، ضعف الطالب والمطلوب. فما قدر اللّه حق قدره من تعلق فى أموره بغيره. قال الورتجبي : بيّن سبحانه – بعد ذكر عجز الخلق والخليقة – جلال قدره الذي لا يعرفه غيره ، بقوله : (ما قدروا اللّه حق قدره) ، قال : وهذه شكاية عن إشارة الخلق إليه بما هو غير موصوف به ، فذكر

(١) الكوى : جمع كوّة ، ويجمع أيضا على كواء. وهى الخرق فى الحائط. انظر : اللسان (كوى ٥/ ٣٩٦٤). والخبر : ذكره البغوي فى تفسيره (٥/ ٤٠٠).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٥٦

غيرته إذا أقبلوا إلى غير من هو موصوف بالقوة الأزلية والعزة السرمدية. ألا ترى كيف قال : (إن اللّه لقوى عزيز) ، ثم بيّن أنه تعالى اصطفى من الملائكة رسلا ، يخبرون عنه ما يتعلق بعجز الخلق عن إدراكه من وصف ذاته وصفاته ، بقوله :

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٧٥ الى ٧٦]

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦)

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ يَصْطَفِي : يختار مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا يرسلهم إلى صفوة خلقه ، كجبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم ، وَمِنَ النَّاسِ ، كإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، يعرّفون بجلال اللّه ومعرفة قدره ، حتى يقدروه حق قدره باعتبارهم لا باعتباره فإنّ اللّه تعالى لا يمكن لأحد أن يقدره حق قدره. قال سيد العارفين : «لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك».

وقيل : نزلت ردا لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر ، وبيانا أن رسل اللّه على ضربين : ملك وبشر. وقيل : نزلت فى قولهم : أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا «١»

. إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ أي : سميع لقولهم ، بصير بمن يختاره للرسالة. أو سميع لأقوال الرسل ، بصير بأحوال الأمم فى الردّ والقبول. يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ : ما مضى ، وَما خَلْفَهُمْ : ما يأتى ، أو ما عملوا وما سيعملونه ، أو أمر الدنيا وأمر الآخرة ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ أي : إليه مرجع الأمور كلها ، ليس لأحد أن يعترض عليه فى حكمه وتدبيره واختياره من شاء من رسله. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : شرب الخمرة ، وهى المحبة الحقيقية والمعرفة الكاملة ، لا تكون إلّا على أيدى الوسائط ، والنادر لا حكم له ، فالأنبياء وسائطهم الملائكة ، والأولياء وسائطهم خلفاء الأنبياء ، وهم أهل العلم بالله الذوقى العيانى. وقال الورتجبي – إثر ما تقدم عنه – : فالملائكة وسائط الأنبياء ، والأنبياء وسائط العموم ، والأولياء للأولياء خاصة. هـ.

وتوسيط الأنبياء للعموم فى مطلق المحبة ، وتعليم ما يقرب إليها ، وأما المحبة الحقيقية فهى خاصة بالأولياء للأولياء ، كما قال. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر سببها ، وما يقرب إليها ، فقال :

---

(١) من الآية ٨ من سورة ص.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٥٧

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٧٧ الى ٧٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

قلت : (ملة أبيكم) : منصوب بمحذوف ، أي : اتبعوا ملة إبراهيم.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا فى صلاتكم ، وكانوا أول ما أسلموا يصلون بلا ركوع وسجود ، فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود ، وفيه دليل على أن الأعمال ليست من الإيمان ، وأن هذه السجدة للصلاة لا للتلاوة ، قاله النسفي. وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ أي : واقصدوا بعبادتكم وجه اللّه ، وأخلصوا فيها ، أو هو عطف عام على خاص فإن العبادة أعم. وَافْعَلُوا الْخَيْرَ كله. قيل : لما كان للذكر مزية على غيره دعا المؤمنين أولا للصلاة التي هى ذكر خالص لقوله : وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي «١»

،

ثم إلى العبادة بغير الصلاة ، كالصوم والحج ، ثم عم بالحث على سائر الخيرات. وقال ابن عرفه : وافعلوا الخير : راجع للعبادة المتعدية ، وما قبله يختص بالقاصرة. قال المحشى : وفيه نظر لشمول العبادة لما هو متعدى النفع ، كتعليم العلم ، والصدقة ، ونحو ذلك ، بل أمر أولا بالصلاة ، وهى نوع من العبادة ، وثانيا بالعبادة ، وهى نوع من فعل الخير ، وثالثا بفعل الخير ، وهو أعم من العبادة. فبدأ بخاص ثم عام ثم بأعم. هـ. لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ : كى تفوزوا ، أي : افعلوا هذا كله ، وأنتم راجون للفلاح غير مستيقنين ، فلا تتكلوا على أعمالكم.

وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ أي : فى ذات اللّه ومن أجله حَقَّ جِهادِهِ ، أمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى ، وهو الجهاد الأكبر ، ومنه : كلمة حق عند أمير جائر. قال – عليه الصلاة السلام – : «أعمال البر كلها ، إلى جنب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كنفثة إلى جنب البحر ، والأمر بالمعروف والنهى عن

المنكر إلى جنب الجهاد فى سبيل اللّه عز وجل كنفثة فى بحر ، والجهاد فى سبيل اللّه عز وجل إلى جنب مجاهدة النفس عن هواها فى اجتناب النهى ، كنفثة فى جنب بحر لجى». وهذا على معنى الخبر الذي جاء : «جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» «٢»
. يعنى : مجاهدة النفس. قاله فى القوت.

---

(١) من الآية ١٤ من سورة طه.
(٢) أخرجه الديلمي فى مسند الفردوس (تسديد القوس ، باب القاف ، قدمت من الجهاد الأصغر) ، والخطيب البغدادي فى تاريخ بغداد (١٣/ ٥٢٣) من حديث جابر ، بألفاظ مقاربة ، وآخره : «وما الجهاد الأكبر؟ قال : مجاهدة العبد هواه». وإسناده ضعيف. راجع الفتح السماوي (٢/ ٨٥١) ، وكشف الخفاء (١/ ٥١١).

(٥٥٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٥٨
قال القشيري : حق الجهاد ما يوافق الأمر فى القدر والوقت والنوع ، فإذا حصل فى شيء منه مخالفة فليس حقّ جهاده. هـ. قلت : موافقة القدر ، فى جهاد النفس ، أن يكون بغير إفراط ولا تفريط ، فالإفراط يمل ، والتفريط يخل ، وموافقة الوقت أن يكون قبل حصول المشاهدة إذ لا تجتمع مجاهدة ومشاهدة فى وقت واحد. والنوع أن يجاهدها بما يباح فى الشرع ، لا بمحرم ولا مكروه. وقال فى الحاشية : هو الوفاء بالمشروع مع رفع الحرج ، بدليل ما بعده ، فهو موافق لقوله تعالى : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ «١»
، ومما هو ظاهر فى الآية : الذب عن دينه وتغيير المناكر. هـ.
هُوَ اجْتَباكُمْ : اختاركم لدينه بإظهاره والذب عنه ، وهو تأكيد للأمر بالجهاد ، أي : وجب عليكم أن تجاهدوا لأنّ اللّه اختاركم لإظهار دينه ، وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ : ضيق ، بل وسع عليكم فى جميع ما كلفكم به ، من الطهارة ، والصلاة والصوم والحج ، بالتيمم والإيماء ، وبالقصر فى السفر ، والإفطار لعذر ، وعدم الاستطاعة فى الحج. فاتبعوا مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ فإن ما جاءكم به رسولكم موافق لملته فى الجملة ، لقوله صلى اللّه عليه وسلم : «جئتكم بالحنيفية السمحة» «٢»
، وسماه أبا ، وإن لم يكن أبا للأمة كلها لأنه أبو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فكان أبا لأمته لأن أمة الرسول فى حكم أولاده.
قال صلى اللّه عليه وسلم : «إنّما أنا لكم مثل الوالد» «٣»

هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ أي : اللّه ، بدليل قراءة أبى : «اللّه سماكم» أو إبراهيم لقوله : وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ «٤» مِنْ قَبْلُ أي : سماكم من قبل ظهورهم فى الكتب السالفة ، وَفِي هذا أي : القرآن ، فقد فضلكم على سائر الأمم ، وسماكم بهذا الاسم الأكرم ، لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ أنه قد بلغكم رسالة ربكم ، وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ بتبليغ الرسل رسالات اللّه إليهم. وإذا خصكم بهذه الكرامة والأثرة فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ بواجباتها ، وَآتُوا الزَّكاةَ لشرائطها ، وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ أي ثقوا به وتوكلوا عليه ، لا بالصلاة والزكاة. أو : ثقوا به فى جميع أموركم ، ولا تطلبوا الإعانة والنصر إلا منه. هُوَ مَوْلاكُمْ : مالككم وناصركم ومتولى أموركم ، فَنِعْمَ الْمَوْلى حيث لم يمنعكم رزقكم بعصيانكم ، وَنِعْمَ النَّصِيرُ أي : الناصر حيث أعانكم على طاعتكم ومجاهدة نفوسكم وأعدائكم.

---

(١) من الآية ١٦ من سورة التغابن.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٥/ ٢٦٦) ، والطبراني فى الكبير (٨/ ٢٥٧ رقم ٧٨٦٨) من حديث أبى أمامة بلفظ : «إنى لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ، ولكنى بعثت بالحنيفية السمحة».

(٣) بعض حديث أخرجه أبو داود فى (الطهارة ، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة) ، والنسائي فى (الطهارة ، باب النهى عن الاستطابة بالروث) ، وابن ماجة فى (الطهارة ، باب الاستنجاء بالحجارة) ، والدارمي فى (الطهارة ، باب الاستنجاء بالأحجار) عن أبى هريرة رضى اللّه عنه.

(٤) من الآية ١٢٨ من سورة البقرة.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا تقربوا إلىّ بأنواع الطاعات وبالمسارعة إلى الخيرات ، لعلكم تفوزون بمعرفة أسرار الذات وأنوار الصفات ، وجاهدوا نفوسكم بأنواع المجاهدات ، كى أجتبيكم وأنزهكم فى أسرار ذاتى ، فإنى قد اجتبيتكم قبل كونكم فى أزل أزلى. وكأنه يشير إلى قوله : «لا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ...» الحديث.

والمأمور به من التقرب والمجاهدة قدر الاستطاعة ، من غير تشديد ولا تعقيد ، لقوله : (و ما جعل عليكم فى الدين من حرج) لأن مبنى الشرع الكريم على السهولة ، فالذى يتوصل إلى رضوانه أو صريح معرفته ، لا يشترط أن يستغرق كنه إمكان العبد فيه. «لو كنت لا تصل إليه إلا بعد فناء مساوئك ومحو دعاويك ، لم تصل إليه أبدا ، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ، ونعتك بنعته ،

فوصلك بما منه إليك ، لا بما منك إليه». كما فى الحكم.

وقال الورتجبي : (وَ ما جَعَلَ ..) الآية ، أي : إذا شاهدتم مشاهد جمالى سهل عليكم فناؤكم فى جلالى ، وسهل عليكم بذل مهجكم إليه. ألا ترى كيف قال : (ملة أبيكم إبراهيم) ، ومن ملته : الاستسلام والانقياد ، وبذل الوجوه بنعت السخاء والكرم ، يا أسباط خليلى ، رأى أبوكم استعداد هذه المراتب الشريفة فيكم ، قبل وجودكم بنور النبوة ، فسماكم المسلمين ، أي : منقادين بين يدىّ ، عارفين بوحدانيتى. وفيما ذكرنا من أوصافكم ، حبيبى شاهد عليكم ، يعرف هذه الفضائل منكم ، وهو بلغكم نشر فضائلى عليكم. ثم قال : اطلبوا الاعتصام منى ، استعينوا لأقويكم فى طاعتى. ثم قال : (فنعم المولى) حيث لا مولى غيره ، (و نعم النصير) حيث لا يخذل من نصره فإن اللّه عزيز ممتنع من نقائص النقص. قال جعفر فى قوله : (حق جهاده) : ألّا تختار عليه شيئا ، كما لم يختر عليك لقوله : (هو اجتباكم). هـ.

وقوله تعالى : (وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ...) الآية : أي : اجتباكم واختاركم وسماكم مسلمين ، لتكونوا مرضيين عدولا ، تشهدون على الأمم ، كما يشهد محمد صلى اللّه عليه وسلم عليكم ويزكيكم ، فهو كقوله تعالى : جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ ... «١» إلخ. وإذ قد خصكم بهذه الكرامة والأثرة فاعبدوه وثقوا به ، ولا تطلبوا الولاية والنصرة إلا منه ، فهو خير ولى وناصر ، ومن كان اللّه تعالى مولاه وناصره فقد أفلح وفاز ، ولذلك افتتح السورة التي تليها به. وباللّه التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

(٥٥٩/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٦٠

(٥٦٠/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٦١

سورة المؤمنون

مكية. وهى مائة وثمانى عشرة آية ، قيل : مناسبة افتتاح السورة بالفلاح أنه قال فيما قبلها : لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ «١» على سبيل الرجاء ، وحققه هنا بشرطه فى الجملة ، ثم لمّا ذكر وراثة المتصف بتلك

الأوصاف للفردوس ، وذلك يتضمن المعاد ، ذكر النشأة الأولى دلالة على صحته ، أي : المعاد ، ثم لمّا ذكر ابتداء خلق الإنسان وانتهاء أمره ذكّره بنعمه ، فقال : لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ ، وَأَنْزَلْنا ، فَأَنْشَأْنا .. الآيات ، ولمّا كانت هذه النعم على الإنسان تقتضى منه الشكر بالطاعة والتوحيد للكريم المنّان ، ثم إن أصنافا من الكفرة قابلوها بالكفران ، فلذلك ذكر قصصهم بعد ذكرها ، بقوله : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً ... إلخ. فهذا ما تضمنته السورة من الترتيب ، قال تعالى :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ (٤)

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ (٩)

أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ (١١)

يقول الحق جل جلاله : قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ أي : فازوا بكل مطلوب ، ونالوا كل مرغوب ، فالفلاح : الفوز بالمرام والنجاة من المكاره والآلام ، وقيل : البقاء فى الخير على الأبد ، وقد تقتضى ثبوت أمر متوقع ، فهى هنا لإفادة ثبوت ما كان متوقع الثبوت من قبل ، وكان المؤمنون يتوقعون مثل هذه البشارة وهى الإخبار بثبوت الفلاح لهم ، فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه. والإيمان فى اللغة : التصديق بالقلب ، والمؤمن : المصدّق لما جاء به الشرع ، مع الإذعان بالقلب ، وإلا .. فكم من كافر صدّق بالحق ولم يذعن ، تكبّرا وعنادا ، فكل من نطق بالشهادتين ،

---

(١) من الآية ٧٧ من سورة الحج.

مواطئا لسانه قلبه فهو مؤمن شرعا ، قال عليه الصلاة السلام : «لمّا خلق اللّه الجنّة ، قال لها : تكلّمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون – ثلاثا – أنا حرام على كلّ بخيل مرائى» «١» لأنه بالرياء أبطل العبادات الدينية ، وليسر له أعمال صافية.

ثم وصف أهل الإيمان بست صفات ، فقال : الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ : خاضعون بالقلب

ساكنون بالجوارح ، وقيل : الخشوع فى الصلاة : جمع الهمة ، والإعراض عما سواها ، وعلامته : ألا يجاوز بصره مصلاه ، وألّا يلتفت ولا يعبث. وعن أبى الدرداء : (هو إخلاص المقال ، وإعظام المقام ، واليقين التام ، وجمع الاهتمام).

وأضيفت الصلاة إلى المصلين لانتفاع المصلّى بها وحده ، وهى عدّته وذخيرته ، وأما المصلّى له فغنىّ عنها.

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، اللغو : كل كلام ساقط ، حقه أن يلغى ، كالكذب والشتم ونحوهما. والحق أن اللغو : كل ما لا يعنى من الأقوال والأفعال ، وصفهم بالحزم والاشتغال بما يعنيهم وما يقربهم إلى مولاهم فى عامة أوقاتهم ، كما ينبىء عنه التعبير بالاسم الدال على الثبوت والاستمرار ، بعد وصفه لهم بالخشوع ليجمع لهم بين الفعل والترك ، الشاقّين على النفس ، الّذين هما قاعدتا التكليف. وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ : مؤدون ، والمراد بالزكاة : المصدر ، الذي هو الإخراج ، لا المخرج. ويجوز أن يراد به العين ، وهو الشيء المخرج ، على حذف مضاف ، أي : لأداء الزكاة فاعلون. وصفهم بذلك ، بعد وصفهم بالخشوع فى الصلاة للدلالة على أنهم بلغوا الغاية القصوى من القيام بالطاعة البدنية والمالية ، والتجنب عن النقائص ، وتوسيط الإعراض عن اللغو بينهما لكمال ملابسته بالخشوع فى الصلاة لأن من لزم الصمت والاشتغال بما يعنى عظم خشوعه وأنسه بالله.

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ : ممسكون لها ، ويشمل فرج الرجل والمرأة ، إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ ، الظاهر أن «على» بمعنى «عن» أي : إلا عن أزواجهم ، فلا يجب حفظها عنهن ، ويمكن أن تبقى على بابها ، تقول العرب : احفظ علىّ عنان فرسى ، أي : أمسكه ، ويجوز أن يكون ما بعد الاستثناء حالا ، أي : إلا والين على أزواجهم ، من قولك : كان زياد على البصرة ، أي : واليا عليها ، والمعنى : أنهم لفروجهم حافظون فى كافة الأحوال ، إلا فى حالة تزوجهم أو تسريهم. أو يتعلق «على» بمحذوف يدل عليه : (غير ملومين) ، كأنه قيل : يلامون إلا على أزواجهم ، أي : يلامون على كل مباشرة إلا على ما أبيح لهم ، فإنهم غير ملومين عليه ، أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ أي : سراريهم ، وعبّر عنهن بما لأن المملوك يجرى مجرى غير العقلاء ، لأنه يباع كما تباع البهائم. وقال فى الكشاف : وإنما قال «ما» ، ولم يقل «من» لأن الإناث يجرين مجرى غير العقلاء «٢». هـ. يعنى : لكونهن ناقصات عقل ، كما فى الحديث. وفيه احتراس من الذكور بالملك ، فلا يباح إتيانهم والتمتع بهم للمالك ولا للمالكة ، بإجماع.

---

(١) ذكره بنحوه الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٣٩٧) من حديث ابن عباس – رضى اللّه عنهما ، وقال : رواه الطبراني فى الأوسط والكبير ، وأحد إسنادى الطبراني فى الأوسط جيد. [.....]

(٢) فى هذا الكلام نظر.

وقوله تعالى : فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ أي : لا لوم عليهم فى عدم حفظ فروجهم عن نسائهم وإمائهم. فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ طلب قضاء شهوته فى غير هذين ، فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ : الكاملون فى العدوان ، وفيه دليل على تحريم المتعة والاستمتاع بالكف لإرادة الشهوة لأن نكاح المتعة فاسد ، والمعدوم شرعا كالمعدوم حسا ، ويدل على فساده عدم التوارث فيه بالإجماع ، وكان فى أول الإسلام ثم نسخ.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ أي : لما يؤتمنون عليه ، ويعاهدون عليه من جهة الحق أو الخلق ، راعُونَ : حافظون عليها قائمون بها ، والراعي : القائم على الشيء بحفظ وإصلاح ، كراعى الغنم. وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ المفروضة عليهم يُحافِظُونَ : يداومون عليها فى أوقاتها. وأعاد الصلاة لأنها أهم ، ولأن الخشوع فيها زائد على المحافظة عليها ، ووحّدت أولا ليفاد أن الخشوع فى جنس الصلاة أيّة صلاة كانت ، وجمعت ثانيا ليفاد المحافظة على أنواعها من الفرائض والواجبات والسنن والنوافل. قاله النسفي.

أُولئِكَ الجامعون لهذه الأوصاف هُمُ الْوارِثُونَ الأحقاء بأن يسمّوا وارثين ، دون غيرهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمها ، وقيل : إنهم يرثون من الكفار منازلهم فى الجنة ، حيث فوّتوها على أنفسهم ، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلا فى الجنة ومنزلا فى النار ، ففى الحديث : «ما منكم من أحد إلّا وله منزلان :

منزل فى الجنّة ومنزل فى النّار ، فإن مات ودخل الجنّة ، ورث أهل النّار منزله ، وإن مات ودخل النّار ، ورث أهل الجنّة منزله» «١».

ثم ترجم الوارثين بقوله : الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ ، هو فى لغة الروم والحبشة : البستان الواسع ، الجامع لأصناف الثمر ، والمراد : أعلى الجنان ، استحقوا ذلك بأعمالهم المتقدمة حسبما يقتضيه الوعد الكريم ، هُمْ فِيها خالِدُونَ ، أنث الفردوس بتأويل الجنة ، أو لأنه طبقة من طبقاتها ، وهى العليا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال القشيري : الفلاح : الفوز بالمطلوب ، والظّفر بالمقصود. والإيمان : انتسام الحقّ فى السريرة ، ومخامرة التصديق بخلاصة القلب ، واستكمال التحقيق من تامور الفؤاد «٢». والخشوع فى الصلاة : إطراق السّرّ على بساط النّجوى ، باستكمال نعت الهيبة ، والذوبان تحت سلطان الكشف ، والانمحاء عند غلبات التّجلّي. هـ.

قلت : كأنه فسر الفلاح والإيمان والخشوع بغايتهن ، فأول الفلاح : الدخول فى حوز الإسلام بحصول الإيمان ، وغايته : إشراق شمس العرفان ، وأول الإيمان : تصديق القلب بوجود الرب ، من طرق الاستدلال والبرهان ، وغايته :

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى (الزهد ، باب : صفة الجنة) ، عن أبى هريرة – رضى اللّه عنه.
(٢) أي : داخل القلب.

(٥٦٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٦٤
إشراق أسرار الذات على السريرة ، فيصير الدليل محل العيان ، فتبتهج السريرة بمخامرة الذوق والوجدان ، وأول الخشوع : تدبر القلب فيما يقول ، وحضوره عند ما يفعل ، وغايته : غيبته عن فعله فى شهود معبوده ، فينمحى وجود العبد عند تجلى أنوار الرب ، فتكون صلاته شكرا لا قهرا ، كما قال سيد العارفين صلى اللّه عليه وسلم : «أفلا أكون عبدا شكورا».
ولا تتحقق هذه المقامات إلا بالإعراض عن اللغو ، وهو كل ما يشغل عن اللّه ، وتزكية النفوس ببذلها فى مرضاة اللّه ، وإمساك الجوارح عن محارم اللّه ، وحفظ الأنفاس والساعات ، التي هى أمانات عند العبد من اللّه.
قال فى القوت : قال بعض العارفين : إن للّه – عز وجل – إلى عبده سرّين يسرهما إليه ، يوجده ذلك بإلهام يلهمه ، أحدهما : إذا ولد وخرج من بطن أمه ، يقول له : عبدى ، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا ، واستودعتك عمرك ، ائتمنتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة ، وانظر كيف تلقانى كما أخرجتك ، وسرّ عند خروج روحه ، يقول له : عبدى ، ما ذا صنعت فى أمانتى عندك؟ هل حفظتها حتى تلقانى على العهد والرعاية ، فألقاك بالوفاء والجزاء؟
أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟ فهذا داخل فى قوله عز وجل : (وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ) ، وفى قوله عز وجل : وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ «١» ، فعمر العبد أمانة عنده ، إن حفظه فقد أدى الأمانة ، وإن ضيّعه فقد خان ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ «٢». هـ.
ثم ذكر ابتداء خلق الإنسان وأطواره وانتهاء أمره ، فقال :
[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ١٢ الى ١٦]
وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)
قلت : «خلق» : إن كان بمعنى اخترع وأحدث تعدى إلى واحد ، وإن كان بمعنى صيّر تعدى إلى مفعولين ، ومنه : (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً) ، وما بعده.
يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ جنس الإنسان ، أو آدم ، مِنْ سُلالَةٍ «من» :

للابتداء ، والسلالة : الخلاصة لأنها تسل من بين الكدر ، وهو ما سلّ من الشيء واستخرج منه ، فإن (فعالة) اسم لما

---

(١) من الآية ٤٠ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٥٨ من سورة الأنفال.

يحصل من الفعل ، فتارة يكون مقصودا منه ، كالخلاصة ، وتارة غير مقصود ، كالقلامة والكناسة ، والسلالة من قبيل الأول فإنها مقصودة بالسّل ، وقيل : إنما سمى التراب الذي خلق منه آدم سلالة ، لأنه سلّ من كل تربة. وقوله :

(مِنْ طِينٍ) ، بيان ، متعلقة بمحذوف ، صفة للسلالة ، أي : خلقناه من سلالة كائنة من طين.

ثُمَّ جَعَلْناهُ أي : الجنس ، باعتبار أفراده المتغايرة لآدم عليه السّلام ، وجعلنا نسله ، على حذف مضاف ، إن أريد بالإنسان آدم ، فيكون كقوله تعالى : وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ «١» أي : جعلنا نسله نُطْفَةً : ماء قليلا فِي قَرارٍ مَكِينٍ أي : فى مستقر – وهو الرحم – (مَكِينٍ) : حصين ، أو متمكن فيه ، وصف الرحم بصفة ما استقر فيه ، مثل طريق سائر ، أي : مسير فيه.

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً أي : دما جامدا ، بأن جعلنا النطفة البيضاء علقة حمراء ، (فخلقنا العلقة مضغة) أي : قطعة لحم لا استبانة ولا تمايز فيها ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ أي : غالبها ومعظمها ، أو كلها عِظاماً ، بأن صلبناها ، وجعلناها عمودا على هيئة وأوضاع مخصوصة ، تقتضيها الحكمة ، فَكَسَوْنَا الْعِظامَ المعهودة لَحْماً بأن أنبتنا عليها اللحم ، فصار لها كاللباس ، أو كسونا كل عظم من تلك العظام ما يليق به من اللحم ، على مقدار لائق به ، وهيئة مناسبة. وقرىء بالإفراد فيهما ، اكتفاء بالجنس ، وبتوحيد الأول فقط ، وبتوحيد الثاني فحسب.

ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ أي : خلقا مباينا للخلق الأول ، حيث جعله حيوانا ، وكان جمادا ، وناطقا وسميعا وبصيرا ، وكان بضد هذه الصفات ، ولذلك قال الفقهاء : من غصب بيضة فأفرخت عنده ضمّن البيضة ، ولم يردّ الفرخ لأنه خلق آخر سوى البيضة.

فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ أي : فتعالى أمره فى قدرته الباهرة ، وعلمه الشامل. والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة ، وإدخال الروعة ، والإشعار بأنّ ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية ،

وللإيذان بأنّ من حق كل من سمع ما فصّل من آثار قدرته تعالى أو لا حظه ، أن يسارع إلى التكلم به ، إجلالا وإعظاما لشؤونه تعالى ، وقوله : (أَحْسَنُ الْخالِقِينَ) : بدل من اسم الجلالة ، أو نعت ، على أنّ الإضافة محضة ليطابقه فى التعريف ، أو خبر ، أي : هو أحسن الخالقين خلقا ، أي : أحسن المقدرين تقديرا ، فحذف التمييز لدلالة الخالقين عليه.

قيل : إنّ عبد اللّه بن أبى سرح كان يكتب الوحى للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، فلمّا انتهى – عليه الصلاة والسّلام – إلى قوله :

خَلْقاً آخَرَ ، سارع عبد اللّه إلى النطق بذلك ، فنطق بذلك ، قبل إملائه ، فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «اكتب ، هكذا

---

(١) الآيتان ٧ – ٨ من سورة السجدة.

أنزلت» ، فشكّ عبد اللّه ، فقال : إن كان محمد يوحى إليه ، فأنا يوحى إلىّ ، فارتدّ ولحق بمكة كافرا ، ثم أسلم يوم الفتح. وقيل : الحكاية غير صحيحة لأن ارتداده كان بالمدينة ، والسورة مكية «١».

ثم قال تعالى : ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ أي : بعد ما ذكر من الأمور العجيبة ، حسبما ينبىء عنه ما فى اسم الإشارة من البعد ، المشعر بعلوّ مرتبة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل ، لَمَيِّتُونَ : لصائرون إلى الموت لا محالة ، كما يؤذن به صيغة الصفة ، وقرىء «لمائتون» ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أي : عند النفخة ، تُبْعَثُونَ فى قبوركم للحساب والمجازاة ، فإن قلت : لم أكدّ الأول بإنّ واللام ، وعبّر بالاسم دون الثاني ، الذي هو البعث ، والمتبادر للفهم العكس لأن الموت لم ينكره أحد ، والبعث أنكره الكفار والحكماء؟ فالجواب كما قال ابن عرفة : إنه من حمل اللفظ على غير ظاهره ، مثل :

جاء شقيق عارضا رمحه إنّ بنى عمّك فيهم رماح

فهم ، لعصيانهم ومخالفتهم ، لم يعملوا للموت ، فحالهم كحال المنكر لها ، ولمّا كانت دلائل البعث ظاهرة صار كالأمر الثابت الذي لا يرتاب فيه. هـ.

الإشارة : اعلم أن الروح لها أطوار كأطوار البشرية ، من الضعف والقوة شيئا فشيئا ، باعتبار قوة اليقين والترقي إلى العلم باللّه ومشاهدته ، فتكون أولا صغيرة العلم ، ضعيفة اليقين ، ثم تتربى بقوت القلوب وغذاء الأرواح فقوت القلوب : العمل الظاهر ، وقوت الأرواح : العمل الباطن ، فلا تزال تتقوت بالعمل الظاهر شيئا فشيئا حتى تقوى على كمال غايته ، ثم تنتقل إلى قوت العمل الباطن كالذكر القلبي ،

والتفكر والاعتبار ، وجولان القلب فى ميادين الأغيار ، ثم دوام حضور القلب مع الحق على سبيل الاستهتار ، ثم يفتح لها ميادين الغيوب ، ويوسع عليها فضاء الشهود ، فيكون قوتها حينئذ رؤية المحبوب ، وهو غاية المطلوب ، فتبلغ مبلغ الرجال ، وتحوز مراتب الكمال ، ومن لم يبلغ هذا بقي فى مرتبة الأطفال ، ولا يمكن حصول هذا إلا بصحبة طبيب ماهر ، يعالجها ويربيها ، وينقلها من طور إلى طور ، وإلّا بقيت الروح مريضة لا تتقوت إلا بالمحسوسات ، وهى لا تشبع ولا تغنى من جوع.

وباللّه التوفيق.

ولمّا ذكر ابتداء الإنسان وانتهاءه ، ذكّره بنعمه ، أو تقول : لما ذكر نعمة الإيجاد ذكر نعمة الإمداد ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ١٧ الى ٢٢]

وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ (١٧) وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (٢١)

وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)

---

(١) انظر روح المعاني (١٨/ ١٦).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٦٧

قلت : «سيناء» ، من فتحها : جعل همزتها للتأنيث ، فلم يصرفه للتأنيث والوصف ، كحمراء ، أو لألف التأنيث ، لقيامه مقام علتين ، ومن كسرها : لم يصرفه للتعريف والعجمة ، وهذا البناء ليس من أبنية التأنيث ، وإنما ألفه ألف الإلحاق ، كعلباء وجرباء. ونبت وأنبت : لغتان بمعنى واحد ، وكذلك سقى وأسقى.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ ، وهى السموات السبع ، جمع طريقة لأنها طرق الملائكة وتقلباتها ، وطرق الكواكب ، فيها مسيرها ، وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ ، أراد بالخلق السموات ، كأنه قال : خلقناها وما غفلنا عن حفظها وإمساكها ، أو الناس ، أي : خلقناها فوقكم لنفتح عليكم منها الأرزاق والبركات ، وما كنا غافلين عنكم وعما يصلحكم ، أو : خلقناها فوقكم ، وما حالت بيننا وبينكم ، بل نحن أقرب إليكم من كل شيء ، فلا نغفل عن شيء من أمركم ، قلّ أو جلّ.

وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً هو المطر ، وقيل : الأنهار النازلة من الجنة ، وهى خمسة : سيحون نهر الهند ، وجيحون نهر بلخ ، ودجلة والفرات نهرا العراق ، والنيل نهر مصر ، أنزلها اللّه تعالى من عين واحدة من عيون الجنة. هـ. وقوله تعالى : بِقَدَرٍ أي : بتقدير ، يسلمون معه من المضرة ، ويصلون إلى المنفعة ، أو بمقدار ما علمنا بهم من الحاجة ، أو : بقدر سابق لا يزيد عليه ولا ينقص ، فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ أي : جعلناه ثابتا قارا فيها ، كقوله : فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ «١» ، فماء الأرض كله من السماء ، وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ أي :

إزالته بالإفساد والتغوير ، بحيث يتعذر استنباطه ، لَقادِرُونَ كما كنا قادرين على إنزاله ، وفى تنكير «ذهاب» :

إيماء إلى كثرة طرقه ، ومبالغة فى الإيعاد به ، ولذلك كان أبلغ من قوله : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ «٢».

ثم ذكر نتائجه ، فقال : فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ أي : بذلك الماء جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ ، لَكُمْ فِيها أي : فى الجنات ، فَواكِهُ كَثِيرَةٌ تتفكهون بها سوى النخيل والأعناب ، وَمِنْها تَأْكُلُونَ أي : من الجنات تأكلون

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الزمر.

(٢) الآية ٣٠ من سورة الملك.

تغذيا وتفكها ، أو ترزقون وتحصّلون معايشكم ، من قولهم : فلان يأكل من حرفته ، وهذه الجنة وجوه أرزاقكم منها ترزقون وتتمعشون ، ويجوز أن يكون الضميران للنخيل والأعناب ، أي : لكم فى ثمرتها أنواع من الفواكه ، الرطب والعنب ، والتمر والزبيب ، والعصير والدّبس ، «١» وغير ذلك ، وطعاما تأكلونه ، وَأنبتنا به شَجَرَةً هى الزيتون تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ ، وهو جبل موسى عليه السّلام بين مصر وأيلة ، وقيل : بفلسطين ، ويقال : فيه طور سينين ، فإمّا أن يكون الطور اسم الجبل ، وسيناء اسم البقعة أضيف إليها ، أو المركب منهما علم له ، كامرىء القيس ، وتخصيصها بالخروج منه ، مع خروجها من سائر البقع ، إما لتعظيمها ، أو لأنه المنشأ الأصلى لها لأن أصل الزيتون من الشام ، وأول ما نبت فى الطور ، ومنه نقل إلى سائر البلاد ، تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ أي : متلبسة بالدهن ، أي : ما يدهن به ، وهو الزيت ، وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ أي : إدام لهم ، قال مقاتل : جعل اللّه فى هذه إداما ودهنا ، فالإدام : الزيتون ، والدهن : الزيت. وقيل : هى أول شجرة تنبت بعد الطوفان ، وخص هذه الأنواع الثلاثة لأنها

أكرم الشجر وأفضلها وأنفعها.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ ، جمع نعم ، وهى الإبل والبقر والغنم ، لَعِبْرَةً تعتبرون بها ، وتستدلون بأحوالها على عظم قدرة اللّه تعالى ، وسابغ نعمته ، وتشكرونه عليه ، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها من الألبان سائغة للشاربين ، أو مما استقر فى بطونها من العلف فإنّ اللبن يتكون منه ، وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ ، سوى الألبان ، وهى منافع الأصواف والأوبار والأشعار. وَمِنْها تَأْكُلُونَ أي : من لحومها ، عَلَيْها

أي : على الأنعام فى البر ، عَلَى الْفُلْكِ

فى البحرحْمَلُونَ

فى أسفاركم ومتاجركم ، والمراد بالأنعام فى الحمل الإبل لأنها هى المحمول عليها فى البر ، فهى سفائن العرب ، كما قال ذو الرمة :

سفينة برّ تحت خدّى زمامها يريد ناقته. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ولقد خلقنا فوق قلوبكم سبعة حجب ، فمن خرقها أفضى إلى فضاء شهود ذاتنا وأنوار صفاتنا ، وهى حجاب المعاصي والذنوب ، وحجاب النقائص والعيوب ، وحجاب الغفلات ، وحجاب العوائد والشهوات ، وحجاب الوقوف مع حلاوة المعاملات ، وحجاب الوقوف مع الكرامات والمقامات ، وحجاب حس الكائنات ، فمن خرق هذه الحجب بالتوبة والتزكية واليقظة والعفة والرياضة ، والأنس باللّه والغيبة عما سواه ، ارتفعت عنه الحجب ، ووصل

---

(١) الدّبس : عسل التمر وعصارته .. انظر اللسان (دبس ٢/ ١٣٢٣).

إلى المحبوب. قال الورتجبي : أوضح سبع طرائق لنا إلى أنوار صفاته السبعة. هـ. وقال القشيري : الحق – سبحانه – لا يستتر من رؤيته مدرك ، ولا تخفى عليه من مخلوقاته خافية ، وإنما الحجب على أبصار الخلق وبصائرهم ، والعادة جارية أنه لا يخلق لنا الإدراك لما وراء الحجب ، ولذلك أدخلت الغفلة القلوب ، واستولى عليها الذهول ، سدّت بصائرها ، وغيبت فهومها ، ففوقها حجب ظاهرة وباطنة ، ففى الظاهر : السموات حجب تحول بيننا وبين المنازل العالية ، وعلى القلوب أغشية وأغطية ، كالشهوة والأمنية ، والإرادات الشاغلة والغفلة المتراكمة.

ثم ذكر أن طرائق المريدين الفترة ، وطرائق الزاهدين ترك عروق الرغبة. قال : وأما العارفون فربما تظلّهم فى بعض أحيانهم وقفة فى تضاعيف سيرهم إلى ساحات الحقائق ، فيصيرون موقوفين ريثما يتفضّل

الحقّ – سبحانه – عليهم بكفاية ذلك ، فيجدون نفاذا ، ويدفع عنهم ما عاقهم من الطرائق ، وفى جميع ذلك فالحق – سبحانه – غير تارك للعبد ولا غافل عن الخلق. هـ.

وقوله : وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ أي : وما كنا غافلين عن إرسال من يخرجهم من تلك الحجب القهرية ، بل بعثنا الرسل ، وفى أثرهم العارفين الربانيين ، يخرجون من تعلق بهم من تلك الطرائق ، ويوصلونهم إلى بحر الحقائق.

وأنزلنا من سماء الغيوب ماء العلم اللدني ، فأسكناه فى أرض النفوس والقلوب ، بقدر ما سبق لكل قلب منيب ، وإنا على ذهاب به من القلوب والصدور لقادرون. ولذلك كان العارفون لا يزول اضطرارهم ، ولا يكون مع غير اللّه قرارهم ، فأنشأنا بذلك العلم فى قلوب العارفين جنات المعارف من نخيل الأذواق والوجدان ، وأعناب خمرة العيان ، لكم فيها فواكه كثيرة ، أي : تمتع كثير بلذة الشهود ، ومنها تتقوت أرواحكم وأسراركم ، وشجرة المعرفة تخرج من القلوب الصافية ، التي هى محل المناجاة ، كطور موسى ، أي : تنبت فيها ويخرج أغصانها إلى ظاهر الجوارح ، تنبت فى القلب بدهن الذوق والوجد ، وصبغ للآكلين ، أي : المريدين الآكلين من تلك الشجرة ، فتصبغ قلوبهم بالمعرفة واليقين.

وقوله تعالى : وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً ، قال القشيري : الإشارة فيه : أنّ الكدورات الناجمة المتراكمة لا عبرة بها ولا مبالاة ، فإنّ اللّبن الخالص السائغ يخرج من أخلاف الإبل والأنعام ، من بين ما ينطوى حواياها عليها من الوحشة ، ولكنه صاف لم يؤثر فيها بحكم الجوار ، والصفا يوجد أكثره فى عين الكدورة إذ الحقيقة لا يتعلق بها حقّ ولا باطل. ومن أشرف على سرّ التوحيد تحقّق بأنّ ظهور جميع الحدثان من التقدير ، فتسقط عنه كلفة التمييز فالأسرار عند ذلك تصفو ، والوقت لصاحبه لا يجفو ، (وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ) لازمة لكم ، ومتعدية منكم إلى كلّ متصل بكم. انتهى على لحن فيه ، فتأمله.

ولما ذكّرهم بالنعم ، ذكر من قابلها بالكفران فهلك ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٢٣ الى ٣٠]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧)

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠)

قلت : ذكر فى الحاشية وجوها من المناسبة ، فقال : لمّا استطرد ذكر الفلك ناسب ذكر نوح إثره ، لقوله : (اصْنَعِ الْفُلْكَ) ، وأيضا : هو أبو البشر الثاني ، فذكر كما ذكر أولا آدم ، فى ذكر خلق الإنسان ، وأيضا فى ذكر نجاة المؤمنين وفلاحهم ، فناسب صدر السورة ، وهلاك الكافر وهو ضد المؤمن ، كما صرح بذلك فى قوله فى آخرها : (إنه لا يفلح الكافرون) ، وفى النجاة فى الفلك مناسبة للنعم المقررة قبل ذكره. هـ. (وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ) : «إن» : مخففة ، واسمها : ضمير الشأن ، واللام فارقة.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا : وتالله لقد أرسلنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ ، وقد مرّ فى الأعراف نسبه وكيفية بعثته «١» ، فَقالَ لقومه حين أرسل إليهم ، متعطفا عليهم ، ومستميلا لهم إلى الحق : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وحده إذ العبادة مع الإشراك لا عبرة بها ، فلذلك لم يقيدها هنا ، وقيدها فى هود ، بقوله : أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ «٢» ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أي : مالكم فى الوجود إله يستحق أن يعبد غيره ، فالرفع على المحل ، والجر على اللفظ. أَفَلا تَتَّقُونَ أفلا تخافون عقوبة اللّه ، الذي هو ربكم وخالقكم ، إذا عبدتم غيره مما ليس من استحقاق العبادة فى شيء ، أو : أفلا تخافون عذابه الذي يستوجبه ما أنتم عليه ، كما يفصح عنه قوله تعالى : إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ «٣».

---

(١) راجع تفسير الآية ٥٩ وما بعدها ، من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٢٦ من سورة هود.

(٣) الآية ٥٩ من سورة الأعراف.